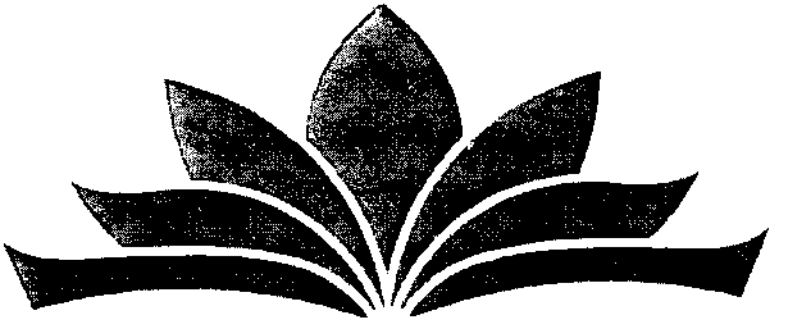

الجحيم

رواية

هنري باربوس

ترجمة: فتحي العشري

الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
الدور الثانى شقة 3
53 ش خيرت - ميدان لاظوغلى عابدين
جمهورية مصر العربية

البريد الالكترونى:
ziad.meguid@gmail.com
Baitelyasmin@yahoo.com
Baitelyasmin@gmail.com

تليفون:-
(+202) 27949885
(+2) 011100 94 62 5
(+2) 010166 85 58 3

اسم الكتاب:
الجحيم (رواية)
تأليف: هنري باربوس
ترجمة. فتحي العشري

الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:
2018/ 2223
الترقيم الدولى:
978-977-817-126-6
حقوق الطبع محفوظة.
الطبعة الأولى لبيت الياسمين 2018.
مدير التحرير: معتز عراقي

كل ما يرد داخل هذا الكتاب من آراء أو أفكار هو مسؤولية الكاتب وحده، ولا يعبر بالضرورة عن التوجهات والسياسة التحريرية للدار.

طالبني نجيب محفوظ بترجمة هذه الرواية.

فتحي العشرى

هنرى باربوس
بين الجحيم والنار.. وحرية الانسان وخلاصه

بقلم: فتحي العشرى

ولد "هنرى باربوس" في مدينة آزونيير الفرنسية عام 1873 في السابع عشر من مايو على وجه التحديد، لابوين ميسورين، فوالده كان كاتبا مسرحيا مرموقا، وكانت والدته سليلة أسرة عريقة.. اضطر أبوه إلى رعايته الكاملة رغم مشاغله، بعد موت أمه ولم يتجاوز الصغير سنوات عمره الست، فأخذ يوسع مداركه الأدبية إلى جانب دروسه التي يتلقاها من مدرسته الابتدائية ثم الثانوية، إلى أن انتقل إلى مدرسة المعلمين العليا بباريس ثم كلية رولان حتى انتظم في جامعة السوربون متخصصا في دراسة القانون...

وكان "باربوس" مولعا بالأدب منذ الصغر، موهوبا في مجال الشعر والكتابة، ولكنه كان يتميز دائما بالفكر والتفكير بحيث تفجرت ملكاته وقدراته في قاعات الجامعة وأبهائها وردهاتها، الأمر الذي لفت إليه أنظار أساتذته وجمع حوله زملاءه من الثوريين المتحمسين للعدل الاجتماعى انطلاقا من مفهوم المساواة والإخاء والحرية، وهي المبادئ التي أصبحت دستورا للثورة الفرنسية والمجتمع الفرنسي بعد ذلك وحتى الآن..

ومزج "باربوس" وهو مازال طالبا في السوربون يفوز بالجوائز الأدبية وبأعلى التقديرات الدراسية بين الكتابة والفكر، بين ما يكتبه وما يفكر فيه: وبطريقة "واقعية" رغم انتشار المذاهب الأدبية المختلفة وأبرزها "الرمزية" بزعامة فرلين ورامبو ومالارميه، و"الكلاسيكية" التي كانت تمتد بجذورها المحافظة وقيمها الجامدة وقوانينها الصارمة.. فقد وجد أن كلا المذهبين يعيش في الخيال والأوهام مبتعدا عن آلام الناس وآمالهم منفصلا عن أرض الوطن والعالم الذي نعيش فيه...

وأصدر "باربوس" أول عمل أدبى له عام 1895، وهو ديوان "النائحات" الذي

كان سببا في تعرفه بالكاتب الواقعي "كاتيل مانديس" وإبنته التي صارت زوجة له، فاستطاعت بثقافتها وشاعريتها أن تساعده كثيرا وأن تسعده أكثر..

أما الديوان الأول فقد أحدث ضجة في الأوساط الأدبية، وظن الجميع أنه يعني ميلاد شاعر ينبئ بمستقبل باهر. ولكن "باربوس" هجر الشعر بسرعة لما أحس فيه من تعالٍ على رجل الشارع من ناحية والواقع الثوري من ناحية أخرى.. فاتجه إلى الرواية لأنها تمثل في رأيه مرآة المجتمع، قاعه قبل سطحه، ولأنها ضمير الشعب بكل فئاته وعلى اختلاف طبقاته.. فأصدر رواية "المتضرعون" يحاول أن يمسك بالوسط الذهبي، ذاته وذكرياته من ناحية، ومعاناة الجماهير وتمنياتهم من ناحية أخرى، بالنضال والكفاح..

وفي عام 1908 أصدر "باربوس" أهم رواياته على الإطلاق "الجحيم" وفيها تتأكد موهبته ويكتمل نضجه وتتضح رؤيته ويتميز أسلوبه وتتبلور لغته ويتحدد هدفه.. وبرغم أن الرواية تكاد تندرج تحت شكل المذكرات أو الترجمة الذاتية، إلا أن البطل يتحول إلى نموذج للكل.. بطل لا نعرف اسمه، فلا ضرورة لذلك، فهو يقول "ليست لي عبقرية، ليست لي رسالة، ليس لي قلب كبير، لا شيء عندي، لا أساوى شيئا، ورغم كل هذا فاني أريد تعويضا من هذه الحياة".. إن عبقريته ليست إلا بالآخرين ورسالته هي رسالة الآخرين وبهم، فإذا كان قلبه يخفق في الآخرين، فلا شيء يفضل الناس عنده، وهذا هو التعويض الذي ينادى به ويطلبه من الحياة، أن يكون دائما بين الآخرين ومنهم.. وعندما يقرر أن ينتحر كفرد ليحيا في المجموع، لا يشعر بأي خسارة، بل على العكس تنتابه سعادة لا تعدلها سعادة، لأنه تحول إلى إنسان آخر، إنسان غيره، إنسان رمز وليس إنسانا فردا.. وهو يفرض على ذاته هذا الإحساس بالجماعية رافضا فرديته، مخفيا حقيقته، مندمجا في الكل.. وبدلا من أن يكون "الكل في واحد" أصبح "الواحد في الكل"..

وقبل أن يصدر روايته الرائعة الأخرى بعنوان "النار" عام 1916، نشر

مجموعة قصص قصيرة بعنوان "نحن الآخرون" عبارة عن ثلاث مجموعات هي "الشهيرة" و "الرحمة" و "جنون الحب".. وتتشابه المجموعة الأولى مع المجموعة الأخيرة في سمة مشتركة هي الشاعرية المثالية الرومانسية على طريقة "جى دى موباسان" بينما تنفرد المجموعة الثانية والوسطى بالواقعية الشديدة التي تجنح نحو طريقة "إميل زولا" الطبيعية..

أما روايته "النار" فتدور أحداثها وحوادثها حول الحرب العالمية الأولى متخذة شكل المذكرات التي سجلها الكاتب بنفسه أثناء المعارك والخنادق والاقتحام والمقاومة.. وقد نال "باربوس" عن هذه الرواية "جائزة الجونكور الكبرى" في العام التإلى لنشرها..

واختتم "باربوس" هذه المرحلة الثورية في إطار الحرب برواية "الضياء" التي ظهرت عام 1919 تعبيرا عن فكر المثقفين ورأيهم في الحروب بشكل عام..

وقد تنوع انتاجه بعد هذه المرحلة، فبدأ بديوان شعر -بعد انقطاع طويل- أسماه "بعض زوايا القلب" ثم كتب رواية بعنوان "النور في الهاوية" ثم "أحاديث محارب" ثم رواية "الجلادون" فكتاب "الأغلال" الذي ظهرت فيه أراؤه السياسية لأول مرة، وهو كتاب ضخم يؤرخ لصراع الطبقات عبر التاريخ في معظم أنحاء العالم، وتبع هذا الكتاب المثير بدراسة إنسانية أسماها "الحقائق" ثم ببيانه الشهير "إلى المثقفين".

وفي عام 1932 أصدر ما عكف عليه منذ سنوات، كتابين عن "زولا" و "جوته"..

وفيما عدا التأليف الخالص عمل "باربوس" بالصحافة منذ مطلع عام 1908، وبعد سنتين فقط تولى رئاسة تحرير مجلة "اعرف كل شيء".. بعدها رشح لعضوية مجلس تحرير جريدة "لومانيتيه"، ولكنه أصدر عام 1920 مجلة شهرية، هي التي تحولت فيما بعد إلى الجريدة المسائية المعروفة "لوموند"..

وفيما عدا التأليف الخالص والصحافة الأدبية كان "باربوس" خطيبا، يخطب

في الناس، لا فرق عنده بين اجتماعات عامة وتجمعات ميادينية، وفي كل الأحوال كان يدعو إلى نبذ الحروب ونزع السلاح ومعاداة الاستعمار، منشئا تجمعا ضم كل الكتاب الأحرار المناهضين لعبودية الانسان الداعين لانتصار الشعوب وهو ما سمى باتحاد العقليين.. ولم يكتف بذلك، فرأس جمعية أخرى لمكافحة النازية والفاشية عام 1933 واشترك في جمعية استقلال سوريا ولبنان ونادى بتحرير باقي الدول العربية والهند وعدد من الدول الافريقية.. حتى انتهى به المطاف إلى عقد "المؤتمر الثقافي العالمي" بباريس عام 1935..

ولا غرابة في اتخاذ "باربوس" لكل هذه المواقف، فقد جند فور اندلاع الحرب العالمية الأولى، وحارب بشجاعة فائقة ونصب عينيه السلام، فمنح وسام "صليب الحرب" بعد أن جرح أكثر من مرة جراحا غائرة وخطيرة وخاصة خلال معارك "أرتوا" و "بيكاردى" عام1916.. وأعفى من الجندية في العام التالي، ولكن أهوال الحرب وويلاتها تركت في نفسه آثارا بليغة، أبلغ بكثير من جراحه.. حتى أنه أطلق على قرننا العشرين لقب "عصر الدماء" بعد أن سجل شهادته في مجموعة قصص قصيرة أسماها "شهدته بنفسي" ورواية أسماها "المؤخرة" تعد من بواكير "الرواية العلمية" اذ تخيل عالمنا وقد غمره الغاز الذي يجمد كل شيء بما في ذلك الانسان نفسه، بحيث لا يقدر على الحركة ولا على دفع الموت الخاطف دون أن يفرق بين حاكم ومحكوم أو بين ثري وفقير.. وكأن "باربوس" المعروف بعدائه للقوى المتسلطة يستدعي في داخله "شمشون" وصيحته المدوية الشهيرة "عليَّ وعلى أعدائي"..

وتوفى "هنري باربوس" بعد معاناة في مستشفى "الكرملين" بموسكو في السابع والعشرين من أغسطس عام 1935، عن عامين فوق الستين، وقد فقد فيه الأدب أديبا متميزا، وفقد فيه الفكر مفكرا بارزا، وفقد فيه الإنسان العالمي زعيما من أكثر الزعماء دفاعا من حريته وخلاصه..

- 1 -

تركتني صاحبة الفندق، مدام لومرسييه، وحدي في غرفتي بعد أن ذكرتني في كلمات قصيرة بكل المزايا المادية، والمعنوية التي يتمتع بها "بنسيون عائلة لومرسييه".

توقفت منتصبا في مواجهة المرآة وسط هذه الحجرة التي سأسكنها لفترة قصيرة أنظر إلى الغرفة وأنظر إلى نفسي.

كانت الحجرة رمادية اللون وكانت تمتلئ برائحة الأتربة. رأيت مقعدين ضم أحدهما حقيبتي، ومقعدين كبيرين بمساند هشة، يكسوها نسيج سميك، ومائدة مغطاة بمفرش من الصوف الأخضر، وسجادة شرقية مطعمة برسوم الأرابيسك التي تسعى إلى لفت الأنظار وألوانها بدت في هذا الوقت من المساء بلون الأرض.

كل هذا كان مجهولا لي، مع أني كنت أعرف كل هذا. السرير المصنوع من الموجنة المقلدة، والتسريحة البالية، وهذا الترتيب السيء للأثاث وذلك الفراغ بين الجدران الأربعة...

لا شك أن الغرفة مستهلكة، وأن الكثيرين قد نزلوا بها من قبل. فمن أول الباب حتى النافذة بدا واضحا أن السجادة قد وطأتها الأقدام يوما بعد يوم وأن أجزاء منها بها بعض التجويفات التي أظهرت النسيج، أما النقوش فقد شوهت معالمها ولم يسلم رخام المدفأة، فقد أصابه الإهمال هو الآخر! ومع كثرة استعمال وملامسة الناس للأشياء، توارت ألوانها الحقيقية بطريقة تدعو إلى النفور.

أما السقف فقد بدا كأنه وقت العاصفة، كل شيء قد اكتسى بطبقة قاتمة: مقبض الباب ومقابض دولاب الحائط والحائط نفسه الذي يقع على يمين النافذة حيث توجد أحبال الستائر.

كل شيء يبدو كأنه سحب من دخان، ولم تحتفظ بلونها الطبيعي من بين هذه الأشياء جميعا سوى النافذة.

أما أنا.. فإنسان كسائر البشر، وأما هذه الأمسية فهي كغيرها من الأمسيات.

ألقيت بنفسي متهالكا في أحضان أحد المقاعد الكبيرة، فشعرت بالهدوء والراحة من حولي، فلقد كان اليوم مضنيا. السفر منذ الصباح، السرعة، الإجراءات الشكلية، وأجواء المدن المختلفة.

كان القرار الذي اتخذته بالمجيء من المقاطعة إلى باريس يعني بالنسبة لي مرحلة جديدة في حياتي، حيث وجدت وظيفة شاغرة في أحد البنوك، ولهذا سوف تتغير أيامي ونتيجة لهذا التغيير لم أسمح لأي من الأفكار أن تطرأ على بالي فيما عدا تفكيري في شخصي في ذاتي، فأنا شاب في مقتبل العمر، سأتم الثلاثين ربيعا في بداية الشهر القادم..

فقدت والدي منذ ثمانية عشر أو عشرين عاما تقريبا.. زمن طويل، وحدث لا أتوقف عنده، أما من الناحية الاجتماعية فأنا غير متزوج وليس عندي أطفال، ولن يكون عندي في يوم من الأيام.

وما أن لاحت لي هذه الفكرة حتى اضطربت نفسي. فبموتي سوف تنتهي سلالة بقيت منذ فجر الإنسانية..! وإني لأتساءل: أسعيد أنا؟.. نعم طالما لا يعتريني الحزن، ولا تتملكني الحسرة، وكل شيء يسير وفق هواي، وأسترجع أيام طفولتي.. كان شعوري مرهفاً حساساً، يجيش بعاطفتي حنان غامض، وأنفرد مع ماضي بحب عقيم وسقيم.

كنت أعطي نفسي نصيباً كبيراً من الاهتمام، حتى اعتقدت أني أسمو على غيري من الناس..! لكني فقدت كل هذا، وطوته الأيام، وأسدل عليه ستار العدم.

أما الآن فها أنذا.. أجلس على مقعدي، اقترب كثيرا من المرآة، لأمعن النظر ولكن كل شيء يبدو عاديا وطبيعيا.

وعن قرب، أرى عينيّ وكأنهما خضراوان، بالرغم مما كان يقال عن لونهما الأسود وقد بدا عليهما الاضطراب الفكري الذي لا أدري كنهه.

إنني أؤمن بأشياء كثيرة متداخلة وجود الله والعقائد الدينية التي تميز بين الناس وتفرق بين البسطاء منهم رجالا كانوا أم نساء كما تكشف عن مدى مستوياتهم العقلية.

أما المجادلات الفلسفية، فأعتقد أنها واهية لا فائدة منها، فالإنسان يصعب عليه أن يصل إلى حقيقة الأشياء.

الحقيقة...؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟ وما الذي ترمي اليه؟ الخير والشر.. أدرك معناهما، فلا أقترف شيئا مخلا بالمبادئ والقيم الإنسانية، ولا أغالي في شيء مهما بلغت قيمته، ولا أبالغ فيه أيا كانت حقيقته، ولذا فأنا أستحق القصاص، ولو حذا كل انسان حذوي فستسير الأمور وفق ما نرمي إليه جميعا.

الوقت متأخر واليوم ضائع ولم أفعل شيئا حتى الآن، لم أبرح مقعدي المواجه للركن الذي توجد فيه المرآة وقد بدأت الغشاوة تغزوها، ويتراءى لي وجهي البيضاوي الشكل، كأني أسترق النظرات خلسة إلى أعماق نفسي، التي تبدو أشبه ما تكون بمقبرة.

آه.. يا للناس والعقل والارهاق (وأنا أنصت إلى صوت المطر)، والظلال التي انتشرت وازدادت واتسعت، فضاعفت من وحدتي رغم كل شيء، ثم هناك شيء ما يسبب كدري وسأمي لكني أجهله، وهذا ما يضاعف من حزني.

انني مضطرب.. ماذا هناك إذن؟.. لا شيء، لا شيء سواي.. أنه أنا!

إنني وحيد هذه الليلة، ولم أكن كذلك من قبل، ولكني أتذكر حبي الذي يذكرني بلطف وجه حبيبتي "جوزيت" وبما كان يصدر عنها من تصرفات خفيفة الظل.

عندما التقينا، منذ وقت طويل، خلف محل الأزياء الذي تعمل فيه بمدينة (تور)، وحينما فغرت فاها عن ابتسامة حلوة، وأخذتُ رأسها بين راحتي، وطبعتُ على شفتيها قبلة، أيقنت حينئذ أني أحبها.

ولا أتذكر مدى السعادة الغامرة التي كنا نخفيها عن نفسينا. بل لا أنكر أن هناك لحظات كنت أتمناها فيها كما لو كان ذلك لأول مرة، وخاصة عندما تكون بعيدة عني، وأحيانا عندما تكون قريبة مني.

لكن الإجازات ستجمعنا، وسنتلاقى قبل أن يلقانا الموت، وإذا واتتنا الجرأة فسنضع تلك الأيام نصب أعيننا.

الموت...! يا لها من فكرة سقيمة تطرأ على تفكيرنا، وأعترف بأنه لا مفر منه في يوم من الأيام، وأحيانا أسأل نفسي: هل فكرت فيه من قبل؟.. لا.. لم يحدث لأني لا أستطيع، فالإنسان لا يقدر على أن يواجه مصيره كما يواجه نور الشمس الساطعة، لأن الموت مصير مظلم وغامض.

ويأتي الليل... كما تتوالى الليالي الأخرى... حتى يحل الليل الطويل.

وفجأة، أنتفض، غير متردد، من مقعدي، ودقات قلبي تبدو كأنها خفقات أجنحة الطير.. ماذا هناك؟ أنه صوت بوق يدوي، وإذا بي أرى من النافذة بعض أتباع العائلات الكبيرة، بالقرب من مصرف الحانة، وقد انتفخت أشداقهم وزموا أفواههم بشدة، لقد أدهشني هذا المنظر، كما جذب أنظار المارة، أنه مظهر من مظاهر الصيد.

وتذكرت.. تلك الجوقة الموسيقية التي يتردد صداها بين جدران المدينة.. عندما كنت طفلا صغيرا في الريف حيث نشأت، كنت كثيرا ما أسمع هذه الضجة في الطريق إلى الغابة، وفي الطريق إلى القصر.. نفس الشيء ونفس المظهر الذي رأيته منذ سنوات مضت، لا يختلف في شيء عما أراه اليوم.. يا له من تشابه عجيب؟

وبحركة لا إرادية، رفعت يدي المرتعشة ببطء لأضعها على قلبي، وأخذت

أفكر بغير روية، كالمجنون، أفكر في كل ما مضى، وتوالت على مخيلتي صور لا حصر لها. الماضي.. الحاضر.. حياتي.. قلبي، و.. أنا.

وإني لأسائل نفسي.. ماذا أعددت لها في الأيام الماضية أو الحاضرة؟! لا شيء.. بالرغم من أني على وشك أن أبدأ حياة جديدة.

هذه الفكرة أعادت إلى مخيلتي ما مضى من حياتي، كأني لم أعش، وأتوق إلى ما يسمى بالجنة المفقودة.

وهكذا لن يكون هناك شيء بالنسبة لي، لن أكون سعيدا، لا يائسا ولا بائسا وهكذا لن يمكنني الحياة، وهكذا سأثور، سأبتهل وأتضرع.

العمر سيتقدم بي وأنا بكامل هدوئي، كما هو واضح اليوم، في هذه الغرفة التي أقام فيها الكثيرون قبلي فمنهم من ترك فيها أثرا له، ومنهم من لم يُعثَر له على أثر.

هذه الغرفة ليست الوحيدة من نوعها في الوجود، فهي منتشرة في كل زمان وكل مكان، وهي ليست -كما تظن-مغلقة أو غامضة، إنها واضحة كل الوضوح، واضحة كالرياح الأربعة لكنها تائهة وسط مثيلاتها من الغرف، كأنها شعاع بسيط في كبد السماء، أو يوم في خضم أيام الحياة.. حالها كحالي.. أنا و.. الكون.

أنا.. أنا..! لا أرى سوى شحوب وجهي وعينيّ الغائرتين، وقد احتضنتهما هالة من السواد، أما ثغري، فهو مطبق في هدوء، هذا الهدوء الذي سيخمد أنفاسي وفي النهاية سيحطمني.

وأتكأت على مرفقي الذي يبدو وكأنه جناح طير مبتور. آه.. كم كنت أتمنى أن يقع لي شيئ سرمدي، فلا أستحق شيئا، ولا استحوذ على شيء، فليس لدي قلب كبير لأهبه ولا عبقرية فذة لأستغلها، ولا عمل أؤديه، وبالرغم من كل هذا، أشتهي نوعا من المكافأة.. الحب.. أشتهي حبا فريدا لم يُسمَع به من قبل، مع فتاة إذا بعدت عنها، كأني ابتعدت عن روحي، لدرجة لا أستطيع معها تمييز أي شيء، إلا أن أعي ظلينا ونحن نسير جنبا إلى جنب في الطريق.

ومن جديد تطاردني الأفكار التي لا نهاية لها! تلقي بي في أحضان رحلة أخرى، رحلة شاذة تجعلني مشتتا، كالرحلات التي يقوم بها رجال الأعمال بمبادرة وسرعة في عربات سريعة تدور عجلاتها كأنها الرعد متخذة طريقا تتناثر على جانبيه الأشجار بطريقة غير منظمة حتى تبدو وكأنها امرأة قد شعث شعرها، وتبدو المدن كأنها في سباق مع الريح. والمراكب والصواري، والأيدي العاملة التي تلقى معاملة سيئة، والإبحار بعيدا عن الأرصفة الذهبية، وأشياء أخرى غريبة كالآثار القديمة تتراقص تحت أشعة الشمس كأنها تترنح، وتبدو للمشاهد كأنها ترافقه وتسير معه.

لقد ساءت حالتي وأصبحت وحيدا لا أجد صديقا أركن اليه، ويؤنس وحدتي، تكتنفني أركان الحجرة التي أقيم بها في الفندق، تلك الحجرة التي يفد إليها الكثيرون ويتركونها كما جاؤا إليها، إني أشعر بقلبي ينزف، وعقلي يغضب، وكل شيء من حولي يهرب، فلا أنيس ولا جليس، ومع ذلك فإني أتطلع إلى المجد! مجد يخالجني، مجد يثير الدهشة والعجب، مجد يعوض كبرياني الجريح، ويتحدث عنه الجميع ويهتفون باسمي تحت رحب السماء.

ثم أشعر وكأن كاهلي قد وهن، فتلك الصور الصبيانية التي لا حد لها تتراقص أمام مخيلتي، وأفقد كل شيء، ولا أجد سوى الليل الذي يطويني.

الوقت أعماني، وعندما حملقت في المرآة لم أر سوى ضعفي وقصوري، مددت يدي نحو النافذة، فبدت وكأنها ممزقة، ومن ركني المظلم دفعت وجهي إلى السماء، فشعرت بقواي تخور، فاتكأت على السرير الذي يوحي إليّ بشعور مبهم، فأراه وكأنه إنسان ميت.

رحماك يا الهي، لقد ضللت الطريق، حسبت نفسي عاقلا وسعيدا بما قدر لي وحسبت أني شفيت من رغبتي في تملك ما ليس من حقي..! لكن وأسفاه لم يتحقق ذلك.

*****

- 2 -

توقف صوت البوق منذ وقت طويل وخلد كل شيء للهدوء، الطريق والمنازل، الهدوء التام يخيم على المكان. ومسحت بيدي على جبيني، وانتهت النوبة التي اعترتني، واستعدت هدوئي واتزاني، ببعض المجهود من إرادتي.

جلست إلى المنضدة، وأخرجت من حافظتي بعض الأوراق التي كان على قراءتها وترتيبها. هناك دافع يستحثني على الحصول على المال لأرسل منه إلى عمتي التي تكفلت بتربيتي، والتي كانت تنتظر عودتي دائما في المساء، جالسة في الصالة حيث توجد ماكينة الخياطة التي لا ينقطع ضجيجها الذي يشبه دقات ساعة الحائط عندما تدق معلنة الوقت.

وما أن يحل المساء حتى تضع المصباح بجوارها، وعندما أتذكر هذا المصباح، لست أدري لماذا يلوح وجهها في خاطري! لست أدري؟

هذه هي الأوراق والتقارير التي ستثبت أهليتي للعمل، ويحددون بها قبولي ببنك "بيرتون"، بنك السيد/ بيرتون الذي يعني الآن كل شيء بالنسبة لي، وبكلمة واحدة منه، يستطيع أن يتحكم في مصيري، بل في حياتي كلها!

تناولت عود ثقاب لأشعل المصباح، ولكن العود انكسر، وتناثر منه الفسفور، فألقيته وأنا مستاء ومكدر.. وانتظرت...

ما هذا الذي أسمع؟! كأن هناك شخصا يغني بصوت خافت هادئ قريب من أذني.. كأن هناك شخصا غير بعيد عن كتفي، يترنم وكأنه يهمس لي وحدي.. آه. إنني أهذي بلا شك.. لقد أجهدت عقلي من كثرة التفكير.. وها هو الجزاء.

إن الصدفة تلعب دورا في حياتي، بينما كنت واقفا بجوار المنضدة، ويداي معقودتان على حافتها، تملكني شعور غير عادي وتراقصت أهدابي بحركة لا إرادية وكأن شيئا ما سيحدث.

لا يزال الترنم مستمرا لا ينقطع، ولا أستطيع التخلص منه.. آه إن رأسي يدور.. الصوت يتسرب من الحجرة المجاورة.. إنه صوت نقي ولا أعرف لماذا هذا النقاء؟ إنه صوت غامض، ولكنه يؤثر في، ولا أدري لماذا أيضا؟ وأتطلع إلى الحائط الذي يفصلني عنه، وأكتم صيحة يأس كادت تفلت مني.

ولمحت شعاعا رفيعا وامضا ينفذ من ثغرة تعتلي الباب، كأنها نجمة متألقة يتسرب من خلالها الصوت، وينفذ منها الضوء إلى حجرتي.

وصعدت فوق السرير، واستندت بيدي على الحائط، حتى أصبحت الفجوة الصغيرة في مستوى نظري، ومن بين شقوق الخشب الذي أصابه العفن، العفن الذي تسبب في حدوث هذه الثغرة، تمكنت من رؤية الحجرة الأخرى، لكن اتساع الفجوة الذي يبلغ حجم كف اليد الواحدة وبسبب النقوش والزخارف، لم أتمكن من رؤية أرضية الحجرة جيدا.. ومع ذلك نظرت وشاهدت الحجرة التي بدت لي وكأن الغيم يكسوها.

وتوقف الصوت الذي كان يشدو في حنان. انصرف وترك الباب خلفه مفتوحا لا يزال يهتز، ولم أعد أرى سوى شمعة مضيئة وضعت على المدفأة، وعلى ضوئها الخافت الذي يتراقص رأيت، على بعد، منضدة تبدو لي كانها جزيرة وسط الضباب، أما الأثاث، فأراه خليطا من اللونين الأزرق والأحمر الباهتين، فكان من الصعب على أن أحدد ما أرى.

ثم وقع نظري على الدولاب، وأخذت اتأمله، فكانت مرآته ترسل انعكاسات رأسية وأفقية على السقف، وصورة النافذة المفتوحة تبدو كانها وجه في أحضان السماء.

وعدت إلى حجرتي، أقول عدت إلى حجرتي وكاني حقيقة كنت خارجها.. في

الحجرة المجاورة! عدت مشدوها، مختلط الأفكار، حتى كدت أنسى من أنا!

ألقيت بنفسي على السرير، وتوالت الأفكار على رأسي في لهفة عن المستقبل، وعن الحجرة... أي حجرة؟ ليست الحجرة التي أقيم فيها، بل الحجرة المجاورة أيضا.. سأكون مع كل من يقطنها في كل لحظة ولكن دون علمه. سأرى من فيها، وسأسمعه، وسأشاركه حياته كما لو لم يكن بيننا فاصل، هو ذلك الباب.

وبعد مرور لحظة من إصابتي بقشعريرة طويلة، رفعت رأسي إلى الفجوة ونظرت من جديد. الشمعة انطفأت ولكن يبدو أن هناك شخصا ما. إنها الخادمة، بغير شك، دخلت لترتيب الحجرة وتوقفت.. إنها بمفردها، قريبة مني ولكني لا أستطيع أن أتحقق منها، ربما لأني أراها أمامي وهي لا تراني، كانت ترتدي مريلة زرقاء في مثل لون السماء، تختلط بألوان قاتمة، ذات أكمام بيضاء، ولكنها قاتمة بسبب العمل، وتقاطيع وجهها غير واضحة.. وبالرغم من أن عينيها غير مميزتين، لكنهما تبرقان في الظلام، ووجنتاها بارزتان تلمعان أيضا، وكانت تجمع شعرها فوق رأسها بطريقة تجعله يبدو للناظر إليه، كأنه تاج متلألئ.

لقد رأيت هذه الفتاة منذ قليل، كانت تنظف الدرج، كان وجهها محتقن كيديها الضخمتين القذرتين اللتين تمارس بهما أعمالهما من كنس ومسح، فكان منظرها يبعث الاشمئزاز في النفس، ويدعو للنفور منها.

كنت أراها أمامي ثقيلة الظل والفهم، وشعرها المنكوش الذي تنبعث منه، بل من كل جسدها، رائحة غير مستساغة كأنها لفت في ملابس قذرة متسخة.

أما الآن، فقد محا الليل القبح والشقاء، ورغما عني، غير الأتربة بالظلال، كأنه بدّل اللعبة بالرحمة، فلم يبق منها سوى طيف كالضباب، مع دقات قلبها ورعشة خفيفة تسري في جسدها.. لم يبق سواها، هي فقط.

حقيقة إنها وحيدة، ووحدتها شئ مقدس لا يسمع، في هذه الوحدة، الوحدة النقية البريئة، وحدتها التي اعتديت عليها بعينيّ.. لكنها لا تدري شيئا.. فليس هناك اعتداء إذن.

واتجهتْ إلى النافذة، فبرقت عيناها، ويداها إلى جوارها غير ثابتتين على مريلتها السماوية اللون، وعندما يقع الضوء الذي يتسرب من النافذة على شعرها ووجهها، تبدو كأنها صورة معلقة في السماء.

وبعد ذلك جلستْ على الأريكة ووضعت مكنستها إلى جوارها، فاختلفت مقاييس الأشياء في نظري، من صغيرة وكبيرة ومتوسطة الحجم، كما اختلفت ألوانها من حمراء، وحمراء داكنة.

ورأيتها تخرج من جيبها خطابا تقرأه، وبدا هذا الخطاب من أنصع الأشياء الموجودة بالحجرة بياضا، في هذا الجو لذي يشبه الغبش، وأمسكت بين يديها بالخطاب الذي يتكون من صفحتين، وبحذر، فتحته وفردت صفحتيه، كجناحي طائر، ثم قربت الخطاب من شفتيها، وتمتمت ببعض كلمات ثم قبّلته.

وكنت أتساءل، ممن يكون هذا الخطاب؟ هل هو من عائلتها مثلا؟ لا.. لأن امرأة في مثل سنها لا تكن هذه العاطفة الطفولية لعائلتها إلى درجة أن تقبّل الخطاب! أيكون من حبيب لها؟ أو من خطيبها؟.. نعم.. هو ذاك.. وطبيعي لا أعرف اسمه، ولكن لابد أن هناك كثيرين يعرفوه.. وهأنا أكتفي بمشاهدة دلائل الحب كأنه لم أجربه.

أن هذه الفعلة البسيطة، أي تقبيل الخطاب، في هذه الخلوة الرهيبة، التي يخدشها الظلام، توحي بشعور من التقدير والهيبة في الوقت نفسه.. ونهضتْ واقتربتْ من النافذة وقد طوت الخطاب في يدها الرمادية.

وأسدل الليل ستائره في كل المكان، ويبدو أنها ستنصرف دون أن أعرف أي شئ عنها، لا سنها ولا اسمها ولا حتى مهنتها التي تباشرها، لا شئ عنها مطلقا، لا شئ غير أنها تنظر إلى الفراغ الشاحب الذي يضمها.. وعيناها تتألقان كأنها تبكي وتشع الضوء كله، ماذا تكون هذه المرأة إذا كشفت عن حقيقتها؟

ها هي تتجه إلى الباب في خطى وئيدة، وللمرة الثانية سمعت صوت الباب

يُغلق كأن شيئا وقع على الأرض، وانصرفت ولم تفعل شيئا سوى إنها قبّلتْ الخطاب وقرأته.

وعدت إلى ركني أشعر بالوحدة أكثر مما كنت، كأني قابلت انسانا، وتركت مقابلته في نفسي أثرا، ولم يكن سوى إنسان مثلي. إذن ليس هناك أجمل وأقوى من أن يتقرب إنسان إلى إنسان آخر، مهما يكن من أمره.

لقد تركت هذه المرأة في قلبي وفي نفسي أثرا، كذلك الأثر الذي تتركه السفينة على الماء عندما تمخر عباب البحر.. كيف ولماذا؟ لا أدري!.. وما هي أهميتها بالنسبة لي؟ ليس لشخصها، فأنا لا أعرفها، ولن يفيدني عدم التعرف عليها، لكن وجودها في هذه اللحظة الأخيرة كان له وقع كبير في نفسي.

ويبدو أن الأحلام الشاذة التي كانت تتعاقب على مخيلتي منذ قليل قد تحققت، ما كنت أسميه "باللا محدود" قد وقع أيضا. هو ذاك الذي قدَّمَته إليّ تلك المرأة دون أن تدري خاصة عندما رأيت قبلتها المجردة. أليس هذا دربا من دروب الخيال الذي يخيم هنا ويعكس لنا بصيصا من نور الفضيلة؟!

وفي مساء ذلك اليوم، وككل يوم، دق الجرس في جميع أنحاء الفندق معلنا موعد العشاء، لقد غير رنينه مجرى أفكاري، وأخذت أهبتي للنزول إلى صالة الطعام، وارتديت صديري مناسبا للمساء، ووضعت حلية على رباط العنق، ولكني توقفت قليلا وأرهفت أذنيّ عساي أن أسمع شيئا كوقع أقدام مثلا أو صوت انسان.

وانتهيت من هندامي، وشرعت في النزول ولكن الأفكار ظلت تطاردني.

نزلت إلى صالة الطعام مع نزلاء الفندق، وكانت الصالة باهرة الأنوار، يغلب على أثاثها اللون المذهب، واتخذت مكاني من المنضدة، كل شئ كان براقا وامضا، تعلو الأصوات هنا وهناك، ضجيج وهرج ومرج، كثيرون من النزلاء قد اتخذوا أماكنهم، برصانة وتمييز كرجال الطبقات الراقية، وتتلاقى الابتسامات هنا وهناك، أحاديث مختلفة تدور وأصوات تتقابل مع بعضها ممتزجة

بالأصوات التي تصدر عن جذب المقاعد والجلوس عليها وارتطامها بالأرضية وبالمنضدة وغير ذلك من وضع الأطباق والمفارش وما يلزم من أدوات.

هناك أشياء كثيرة كانت تسترعي انتباهي، وأخرى أنفر منها. كنت أنصت إلى الحديث الذي يدور بين اثنين من الجالسين إلى جواري، حديث مُمِلّ جعلني أتحاشاهما. وعندما دفعت عينيّ، ارتطم نظري بما اصطف أمامه من جبهات لامعة، وعيون براقة، وأربطة عنق مختلفة، وخدود وأيدي مشغولة على المنضدة بغطائها ذو البياض الناصع.

لا أدري فيم تفكر هذه المخلوقات؟! ما هو جوهرهم وكلهم متحفظون ويحجب كل منهم الآخر! وهذه الأنوار التي تشع من جبهاتهم وتصطبغ بالصبغة الجدية وتلك الأساور التي تحلى الأيدي، والعقود التي تزين الصدور والأقراط التي تتدلى من الآذان، والخواتم التي تجمل الأصابع،وفي كل حركة، وفي كل إشارة، وفي كل لفتة وكل تنهيدة تتلألأ هذه الحليّ وكأنها النجوم في كبد السماء.

وكانت هناك فتاة تنظر اليّ بعينيها الزرقاوين الغامضتين.. وماذا يمكنني عمله لمقاومة هذا النوع من الياقوت الأزرق!

الجميع كانوا يتسامرون، ولكن وسط هذا الضجيج، كنت أخلو إلى نفسي، فالضوء الساطع كان يبهر نظري، والضجيج يصم أذني، ومع ذلك فهؤلاء النزلاء الذين جمعتهم الصدفة، يعبرون أحيانا عما يجيش بصدورهم، فتمر لحظات يشعرون فيها بالوحدة، وقد لمست هذه الحقيقة، وشعرت بشحوب وجهي عندما عبرت أفق خيالي بعض الذكريات.

وكان مجرى الحديث متشعبا، فتحدثوا عن المال، وقد اتخذ الحاضرون منه موقفا مثاليا، وومضت الأحلام في العيون صافية كالماء، وانتابهم شعور كذلك الذي انتاب المرأة عندما انفردت بنفسها في الغرفة، شعور بالهدوء والراحة النفسية.

وتطرق الحديث إلى موضوع آخر، كتمجيد البطولات الحربية والمفكرين،

متحمسين لكل ما يخطر لهم على بال.. بالرغم من التفاوت الذي يبعث على الضحك - في مراكزهم الاجتماعية.. وأنا..! ماذا عن نفسي!؟..

وبدا لي وجه فتاة مشرقا مضيئا، تكسوه حمرة الدم بعد أن زفرت زفرة تنم عن الارتياح وفرط السعادة، ربما قد مرت بخاطرها فكرة ارتاحت إليها، وعلى مرآة وجهها رأيت نور فؤادها.

وتناول الحديث مسارا ثالثا عن علم الأرواح وقراءة الطالع والسحر والشعوذة والعالم الآخر، وكان السؤال الذي يتبع كل حديث هو: "من يدري أو يعلم!".

ومن الأفكار التي طرقها الحديث فكرة الموت.. وعند ذكر هذه الكلمة، لاحظت اثنين من النزلاء، رجلا وامرأة، ظلا طوال هذه المدة صامتين لا يتحدثان، كأنهما لا يعرفان بعضهما وعندما سمعا هذه الكلمة "الموت" نظرا إلى بعضهما، وتسرب الشك إلى نفسي بأنهما متحابان يعيشان في أعماق ليال الحياة.

وانتهى العشاء، وانتقل النزلاء بعد ذلك إلى الصالة ليواصلوا تسامرهم ويقص كل منهم ما يعرفه. ومنهم محام شاب يسرد أحداث قضية عرضت اليوم للحكم، وكان متأثرا أثناء سرده للوقائع، وتدور أحداث القضية حول رجل ذبح فتاة صغيرة بعد أن اغتصبها، وكان أثناء اقتراف جريمته يغني ويصيح بصوت مرتفع حتى لا يسمع أحد صراخ الضحية الصغيرة المسكينة

وفي الجلسة اعترف هذا المتوحش قائلا "وبالرغم من ذلك فقد تناهى صوتها إلى الأسماع، فهي لم تكن صغيرة جدا..!" واستحوذ المحامي الشاب على انتباه الحاضرين، وفغرت الأفواه مشدوهة، واقترب البعيد ليكون عن كثب من المتحدث، والجميع آذان صاغية وارتسمت على وجوههم أقصى درجات الألم لهذه النزعة المخيفة، وخيم الهدوء الشديد على المكان ولم يكن هذا الهدوء إلا نتيجة لما يعتمل داخل النفوس من انفعالات وجدانية وعاطفية هائلة.

واخترقت هذا السكون ضحكة، ضحكة جافة متقطعة، أطلقتها سيدة نبيلة، معتقدة إنها ضحكة بريئة، ولكنها في الواقع غير ملائمة في موقف كهذا.

وبعد أن أقلعت عن ضحكها، استطرد المحامي بصورة يملؤها الهدوء واثقا من نفسه في تأثيره على السامعين عندما يلقي عليهم باعترافات ذلك الوحش الآدمي: "وكانت لم تزل على قيد الحياة.. تصيح وتصرخ وتصرخ، وحيال هذا الموقف، أضطررت إلى أن أغمد في أحشائها سكين المطبخ حتى تكف عن الصياح".

وأثناء ذلك، قامت سيدة في مقتبل العمر مع طفلتها وحاولت النهوض والانصراف، ولكنها لم تقوَ على ذلك، فعاودت الجلوس محتضنة طفلتها، كأنها تحميها من مثل ذلك الوحش الآدمي، وكان يتنازعها شعوران. رغبة، وخجل، رغبة في أن تصغى إلى أحداث القضية، وفي الوقت نفسه، خجل من التمادي في الاصغاء.

وسيدة أخرى ثابتة بلا حراك، أطرقت برأسها إلى الأرض، تذم شفتيها بشدة كأنها تدفع عن نفسها فاجعة أو مأساة، وارتسمت على وجهها النبيل ابتسامة كأنها ابتسامة شهيد!

أما الرجال، فمنهم من كان هادئا رابط الجأش، وآخر كأنه يلهث، وغيرهم تبدو عليه سمات البورجوازية، يبذل جهدا كبيرا في الحديث إلى صديقته، متفرسا في جسدها، بل تذهب نظراته إلى أبعد من ذلك، نظرة أقوى، تبعث في نفسه الخجل، نظرة تحمله وزرا ينوء بحمله ويكاد يحطمه، حتى أخذت أهدابه تتراقص بشدة، وهذا الآخر رأيت أيضا نظرته السَكْرى، ومن فمه المضطرب، يحاول أن يتفوه ببعض الكلمات، وتصطك أسنانه ببعضها كأنها عازل في دولاب آلة بشرية اذا ما وقعت العيون على الأجساد البضة التي تجري فيها دماء الجنس الآخر. وهكذا، اتخذ كل من في هذا الحفل، الذي طرق شتى المواضيع موقفا متباينا من الفسق والفجور.

وهكذا أيضا ومنذ لحظة، أعترفوا بما يخالجهم من شعور وإحساسات،

اعترفوا دون أن يدروا، واعترفوا دون أن يعرفوا ما صرحوا به، فقد تأججت الرغبة وومضت ثم خبا وميضها، وخيم الهدوء على شفاهم.

وتركت الجميع، رجالا ونساء، تركتهم بكل ما يتحلون به من صفات حتى ولو كانت قبيحة، تركتهم وأسرعت إلى حجرتي أفتح لها ذراعي وأقبلها، غرفتي الوديعة. إنها أكثر حيوية من الناس الذين قابلتهم، وعشت معهم لحظات، ظاهرهم النفاق، وباطنهم الرياء، ويظهرون غير ما يبطنون، ولهم لسان ليكذبوا به ولا يصدقون.

- 3 -

جن الليل، الليل الطويل الحقيقي، وأحاطتني الظلال الكثيفة من كل جانب كأنها شئ جميل ناعم الملمس، كل شئ من حولي انغمس في ظلام دامس، وجلست إلى المنضدة الصغيرة التي ينيرها مصباح مستدير كقرص الشمس الذي يسطع نوره في الكون، جلست واتكأت عليها بمرفقي لأنجز بعض الأعمال، ولكن في الواقع ليس لدي ما أعمله، وما على إلا أن أجلس، وأسترق السمع.

ونظرت إلى الحجرة المجاورة، وكانت خالية، ولكن سيأتي أحد بدون شك، إن لم يكن هذا المساء، وإن لم يكن غدا، فيوم آخر، فلابد أن يرسل القدر أحدا.. وسيتوالى الآخرون بعضهم في إثر بعض، وما علىّ إلا الانتظار كأني لم أخلق إلا لأنتظر.

وطال انتظاري، ولم أجرؤ على الخلود إلى الراحة، والوقت متأخر، والهدوء يعم المكان، حتى يكاد يشل حركتي، لما بذلته من جهد، ومن جديد استندت إلى الحائط ونظرت إلى الغرفة الأخرى متضرعا علّي أجد أحدا، ولم أر سوى الظلمة الحالكة التي تملأ الحجرة، ولم أشاهد سوى المجهول.. وعدت أدراجي إلى حجرتي!

وفي اليوم التالي، رأيت الغرفة في وضوح نور الصباح المسترسل وشاهدتها والفجر يغزوها شيئا فشيئا، ونفضت الغرفة عن نفسها أنقاض اليوم السابق، وبدأت تستيقظ.

ورأيت الغرفة واضحة، مؤثثة على نفس طراز الغرفة التي أقيم بها، ففي

نهايتها توجد المدفأة، تعلوها مرآة، والسرير على يمين الحجرة، والأريكة على يسارها، فالغرف هنا متطابقة ومتماثلة، أما غرفتي فقد شغلتها، وأما الأخرى فما زالت خاوية.

وبعد تناول الطعام، عدت إلى الفجوة التي أصبحت شغلي الشاغل، ولكن لا جديد. وعدت وتوجهت إلى باب الغرفة وفتحته، وكان الباب كسائر أبواب الفندق، مطليا باللون البني والأرقام محفورة على مستطيلات نحاسية صغيرة، وخطوت خطوتين إلى الخارج.

وقفت على درج طويل ولكنه ضيق، واستندت إلى الدرابزين، ولفت نظري الحائط المنقوش كسجادة نقشت بفروع أشجار خضراء قاتمة وسمعت وقع أقدام الخادم قادما من الدور العلوي مرتديا زيا أزرقا، ويتأبط الجرائد الصباحية وكان هو الخادم نفسه الذي يخدم أثناء تناول الطعام.

وطفلة أخرى عرفت أنها ابنة مدام "لومرسييه" تصعد الدرج ويدها على الدرابزين وتمد رقبتها إلى الأمام كأنها رقبة طائر، وكنت أقارن خطواتها الصغيرة بحركات عقرب الثواني.

ومر أمامي رجل وبصحبته سيدة يتحدثان، وعندما اقتربا مني توقفا عن حديثهما حتى لا أسمعهما، كأنهما يرفضان التصدق عليّ بما يفكران فيه أو يتحدثان به.

وتتابعت هذه الأحداث الخفيفة، كأحداث هزيلة أسدل عليها الستار. وحل المساء، مملا، وخرجت ينتابني شعور بالوحدة اثناء تجوالي داخل الفندق أو خارجه.

واثناء سيري في أحد الممرات الصغيرة، شاهدت بابا يُغلق بسرعة وتناهت إلى سمعي ضحكة من امرأة كأنها فوجئت بشئ ما. وأناس يهرعون وأناس يتدافعون، وضوضاء ليس لها معنى.

واجتزت الدرج إلى قاعة الجلوس، حيث المناقشات لا تنتهي، واتخذت مكاني

بجوار بعض النزلاء الذين يتفوهون بعبارات وكلمات لا أذكرها، وانصرفوا، وجلست وحيدا بمفردي، وسمعتهم يتناقشون أيضا في الممر القريب من القاعة إلى أن خبت أصواتهم.

وهذه سيدة تدخل، رشيقة وأنيقة، متعطرة، تخب في الحرائر، ونالت اعجاب الكثيرين لأناقتها ورشاقتها وعطرها النفاذ ووجهها الجميل الذي تزينه نظراتها الحلوة ولم استطع التحقق منها، لأنها لم تلتفت ناحيتي.

جلست هذه السيدة، وتناولت كتابا، وأخذت تتصفحه وانعكست صفحات الكتاب البيضاء على وجهها، فأضفت عليه تألقا وإشراقا.

وكنت بين الحين والحين، أختلس النظرات إلى صدرها الذي يعلو ويهبط، ووجهها الثابت، والكتاب الذي بين يديها، وثغرها الدامي، وبشرتها الناصعة، كنت اتأملها من أخمص قدميها إلى شعر رأسها، هذه السيدة المجهولة..! كنت اتأملها بأسف عظيم، وجمالها يبعث في نفسي الحزن، ومجرد وجودها يهدهدني، ويريحني.

إن المرأة لا تلاطف رجلا إلا اذا كانت وحيدة وقريبة منه، ومهما يكن نوع الفراق فبداية السعادة بينهما يسبقها دائما شئ من الرهبة. ولم تلبث هذه السيدة أن انصرفت وانتهى كل شئ عنها، ومر ذلك سريعا وواقعيا.

وهذا اليأس الحلو الذي لم أشعر به من قبل يؤرقني. لقد تغيرت منذ الأمس، الحياة الانسانية والحقيقية الحية، لقد عرفتهما كما يعرفهما الجميع، كنت أمارسهما منذ خروجي إلى الدنيا والآن يتملكني شعور بالإيمان ممتزجا بشئ من الخوف، الخوف الإلهي.

وصعدت إلى حجرتي في هذا الوقت الطويل الممل، ومع ذلك فقد حل المساء، ومن نافذتي أخذت أتطلع إلى السماء، السماء الذي تسلل الليل إليها، الليل الجميل، جميل سواء نظرنا إليه أو لم ننظر، ورأيت الجموع التي تنقض على قارعة الطريق، والمارة يعودون أدراجهم إلى مساكنهم.

وأرهفت أذني لأسمع شيئا من الحجرة المجاورة، سمعت ضوضاء خفيفة صادرة من الناحية الأخرى للمزلاج، وتوجهت إلى الحائط، وكالعادة، نظرت من الفجوة واليوم كالأمس يخيم الغيم على الأشياء، ولكن امرأة، امرأة غامضة..

اقتربتْ من نافذتها، كما فعلت أنا منذ قليل، فكل إنسان وحيد، أو يشعر بالوحدة، يقيم في غرفة بمفرده كثيرا ما يفعل ذلك.

إني أراها، أراها أكثر فأكثر، حتى تعودت عيناي عليها، تبدو واضحة، ويخيل إليّ إنها ستتجه نحوي.

نحن الآن في بداية الخريف، ومع ذلك كانت ترتدي ثوبا في لون الغسق، وترتديه النساء عادة في أيام الشمس الساطعة، ويضفي عليها الشعاع الذابل الذي ينبعث من النافذة بانعكاس خافت يميل إلى الظلمة، فبدت كأنها حورية من حوريات القصص الخيالية.

ومن خلال الفجوة، هبت عليّ نسمة تحمل أريج عطرها، عطر الزهور ممزوجا برائحة كرائحة البخور، وعرفتها من رائحة عطرها الذي يميزها عن غيرها من النساء، كأنه إسم لها. عرفت فيها السيدة التي كانت تجلس بجواري منذ قليل في القاعة وانصرفت دون أن أعرف عنها شيئا، والآن.. ها هي خلف الباب الذي أنظر منه خلسة، ها هي قد أصبحت فريسة لنظراتي. شفتاها تتحركان، ولا أعرف اذا كانت تحدث نفسها أو تتمتم بشئ، أم انها تترنم ببعض الألحان؟

ها هي، هناك، أرى انعكاس صورتها في المرآة، تقف بجوار النافذة ذات الضوء الحزين، ها هي هناك بشحمها ولحمها، وبوجهها الوضاء المشرق.. تزينه نظراتها أينما وجدت.. وتستند إلى النافذة برأسها الذي تحمله رقبة بيضاء جميلة، كأن يد فنان ماهر قد صنعتها، فبدت سابحة في ظلال تميل إلى الزرقة الباهتة، وكأن أفكارها التي تهيم فيها، أفكار في مثل لون السماء،

وتتراقص على خصلات شعرها هالة هزيلة من النور المنبعث من الخارج، فأظهر لونه الذهبي الجميل.. ثغرها.. يدها التي تستند إلى النافذة.. خصرها النحيل.. كل شئ يميل إلى اللون القاتم، أخضرا كان أم أزرقَ. سيدة مجهولة لا أعرف عنها شيئا.. كأنها بعيدة عني كما لو كان بيني وبينها أجيالا ودهورا تفصلنا، كما لو كانت قادمة من العالم الآخر.

ومع ذلك، لا يوجد بيننا شئ، فأنا معها وقريب منها وتجعلني أشعر بانشراح يمتزج به الخوف.. يخيل اليّ أن أمد يدي لأقبلها، انني رجل كسائر الرجال، ولكني للأسف أتأثر بأول امرأة أقابلها.

وتلك المرأة مثال خالص للمرأة التي نرنو إلى حبها، تلك المرأة التي لا نعرفها للآن والتي سنعرفها، تلك المرأة التي تعد أعجوبة تعيش على وجه الأرض.

وكسحابة متعددة الاشكال، كانت هذه المرأة تروح وتجئ في الغرفة، أسمع حفيف ثوبها وهي رائحة غادية أبحث عن وجهها كما أبحث عن نجمة في السماء ولكن.. لا أرى وجهها، ولا أفكارها.

وحاولت أن أصل إلى تفسير لحركاتها، كانت الأفكار تهرب مني.. إنني قريب منها ولا أعرف ما تفعل..! ومن يفعل شيئا في الخفاء، أو بعيدا عن العيون، فهذا دليل على أنه لا يعني ما يفعله.

أغلقت باب غرفتها بالمفتاح، حتى تخلو إلى نفسها، ودون شك، جاءت إلى الغرفة كي تغير ملابسها.. لن أحاول أن أسترسل في شرح الظروف التي أتت بها إلى هنا، كما أني أطالب نفسي بتقديم حساب عن الجريمة التي أقترفها بعيني في حق هذه المرأة.

إن الصدفة قد جمعتنا.. أعرف ذلك، ولكني أتمنى من كل قلبي، ومن أعماق نفسي، ومن صميم حياتي أن تكشف لي عن نفسها!

يبدو عليها التردد، تحاول جمع شتات أفكارها.. وأتصور أنها تنتظر أن ينشر الهدوء جناحية في كل مكان، ويأوى كل إلى داره، حتى يمكنها أن تخلع

ملابسها، فهي لم تزل تشعر بالهواء يلفحها، وكأن عيون المارة تختلس إليها النظرات، لعلها تحتمي بين جدران حجرتها التي تأويها وتحميها من مثل هؤلاء، حتى تطمئن إلى نفسها وتخلع عنها ملابسها.

وسرني ما لمسته فيها من أفكار عذرية شهوانية، وشعرت بالرغم من الحائط القائم بيننا، أن جسدي يميل إلى جسدها ويحن. واتجهتْ إلى النافذة، ورفعتْ يديها وجذبت الستائر وأسدلتها، فاحتضن الغرفة ظلام تام.

لقد فقدتها.. يا له من ألم شديد قد أصاب كياني، كأن الحياة قد نزعت منه.. ولبثت هناك فاغر الفم، متألما، أتحين الفرصة وسط هذا الظلام الذي يختلط بأنفاسها.

وشعرت بها تتحسس باحثة عن شئ في هذا الظلام، وخمنت، وشاهدت نورا يصدر من عود ثقاب بين أناملها فوضحت صورتها شيئا فشيئا، وبزغ بياض يديها الهزيلتين وجبينها ورقبتها، وبدا لي وجهها كوجه حورية.. ولم تتح لي الفرصة كي أميز ملامحها الدقيقة في ضوء عود الثقاب الضعيف. وركعت على ركبتيها أمام المدفأة، وألقت بعود الثقاب بين قطع الخشب، دون أن تنير المصباح فكان الضوء الوحيد في الغرفة هو ذلك الضوء الصادر من أسفل.. من المدفأة.

وتأججت نار المدفأة، وغدت كشمس غاربة، تروح أمامها السيدة وتجئ، أسمع صوت حفيف ملابسها، كحفيف النسيم لأوراق الشجر.

كنت أراها تتحرك بقوامها الممشوق الأهيف، كأنها طيف، وظلها يتسلق الحائط ويرتفع إلى سقف الحجرة، حيث تتراقص ألسنة النيران المندلعة من المدفأة وتلاحقها أينما ذهب ولكنها تحتمي في ظلها، وينسدل من حولها الثوب حزينا، وجلستْ على الأريكة فأصبحت في مواجهتي تماما، وسبحت بنظرها في أرجاء الحجرة.. وتمر لحظات تتلاقى فيها نظراتنا ولكن دون أن نشعر أو نرى بعضنا.

أحيانا تنبعث من عينيها نظرات حادة، نظرات فاحصة، نظرات حادة، ثم يرتخي ثغرها وينفرج عن ابتسامة خفيفة كأنها ارتاحت إلى فكرة خطرت لها، أو وجدت لها حلا.

وأرى فمها ووجهها، شيئين مجردين، ثغرها أحمر قاني، كقلب دامي، إنه جرح، جرح أن ترى ثغر امرأة.

وبدأت أشعر بالرعشة تسري في جسدي بسبب هذه المرأة التي ينفغر فاها عن ابتسامة قانية.. وعانقت الأريكة ردفيها العريضين الدافئين، عناقا حارا، ودنت ركبتيها البضتين من بعضهما حتى اتخذ جسدها شكلا يشبه القلب.

وتمددت على الأريكة مستندة بنصفها الأعلى إلى المسند، ومدت قدميها في مواجهة نار المدفأة، ورفعت رداءها قليلا بيدها حتى كشفت عن ساقيها يغطيهما جورب أسود.. وصاح لحمي ينادي، وكأن قضيبا من الحديد الساخن يلهبني.. إنها النار.. نار الشهوة.. إنه شعور اللذة.

ولويت أصابعي، ونظراتي الممزقة تتساقط على جسدها الممدد أمامي، وجبينها مضئ وسط الظلام، وهي تتثاءب متثاقلة، بينما نظراتي الدامية تزحف على الأرض، متجهة نحوها، وعندما تصل إليها تحتضنها ثم تلتهمها.

وانسدل الرداء ثانية على ساقيها، وعادت كما كانت.. لا.. لم تعد كما كانت لأني جرحتها بنظراتي.. لقد رأيت جزءا من لحمها الحي البضن المحرم، إنني أقف دائما بالمرصاد لهذا اللحم، في كنف هذه الظلمة التي تغمر غرفتينا..

وانحسر ثوبها ثانية عن ساقيها.. لقد صدرت منها هذه الحركة التي يحبها الرجال، بل يعبدونها، كحبهم وعبادتهم لعقيدة دينية كتلك التي يبتهلون ويتضرعون لها كأنها هدف أو مأرب يسعون إلى تحقيقه.

وللمرة الثانية، نهضتْ من رقدتها، وتهاوت في الغرفة، وشعرت بحفيف ثوبها كأجنحة طير ترفرف بين أحشائي.. أما نظراتي فقد تركتْ كل شئ فيما عدا شئ واحد.. تركت وجهها البريئ براءة الطفولة، ونظراتها الساهدة،

وابتسامتها الهادئة، نحيت كل هذا جانبا ولم أشتهِ سوى دماءها.. دماءها.

وحاصرتها نظراتي من كل جانب، حتى لا تهرب منها، حاصرتها كما تحاصر النيران ضحيتها، لكن نظراتي لا تصل إلا إلى قدميها، وبلطف تداعب أطراف ثوبها، وتخدشها كما يخدشها لهيب النيران الصادرة من المدفأة والتي تتصاعد إلى السماء في جداول صغيرة.

وها هي تكشف لي الآن أكثر من ذي قبل، كشفت لي عن أكبر جزء من جسدها، لقد وضعت إحدى ساقيها الرقيقتين السجينتين داخل حذائها المكشوف وجوربها الحريري الطويل، وركبتيها الدقيقتين، وسمانتيها البضتين الممتلئتين قليلا، كثمرتين ناضجتين على كاحلين رشيقين.

وشاهدت أعلى ردفيها حيث ينتهي الجورب.. يا له من كأس أبيض جميل تحجبه غيوم.. لم أتحقق جيدا مما أرى، هل هو لحمها الحي الناضج؟ أم ملابسها الداخلية الرقيقة الجميلة؟ لم أدقق النظر جيدا لاختلاج نور المدفأة. وكنت أسأل نفسي.. هل هذا الذي أراه، هو كل شئ؟ أم جزء منه.

ثلاثة يتنازعون هذا الجسد شبه العاري.. نظراتي والظلال التي تخيم على الغرفة واللهب الذي يتراقص فيها.

إن عينيّ لتتعذبان، وجبهتي وراحة يدي وصدري يستندون إلى الحائط محاولين عبوره أو اختراقه أو تدميره، حتى أتمكن من رؤية الأشياء واضحة جلية، لأرى أكثر، وأفضل.

وغمرني هذا الليل الطويل، ليلها، تحت رفرفة أجنحة ثوبها المثير، الذي يبعث الدفء ويبعث الرهبة، وفي حركة من حركاتها، انفرج سروالها عن فتحة عريضة مظلمة حيث ألقت نظراتي بنفسها بعد أن أصبحت حمقاء محمومة.. كأنها عثرت على ضالتها المنشودة في هذه الفتحة الظليلة، في هذا الظل العاري، محور جسدها، في وسط ملابسها الدقيقة. هذا الظل الذي يتبخر بخفة حاملا شذاها، كسحابة من البخور تتوسط جسدها.. هذا الظل الذي يعتبر مأربا ومنالا لا حد لهما.

مر الوقت وأنا ما زلت مستندا إلى الحائط أمام هذه المرأة، أستعيد ما بدر فيها من حركات وسكنات، تلك المرأة التي تتخذ وضعا تتجلى فيه عفتها ووحدتها، أمام نظرات رجل مشدوه، جذبته هذه العفة، وشدته هذه الوحدة.

انطفأ لهيب المدفأة في اللحظة التي همت أن تنضو الثوب عن جسدها، فلم أتحقق منها، ومرت اللحظة التي طالما تمنيتها. انقضت في الظلام، هذه اللحظة التي كنت أعدها عيدا كبيرا لي ولها.

رأيت نصفها العلوي فارغا لا يرحم، بجماله الشاحب، بطئ الحركة، يصدر عنه صوت خفيف عذب، صوت مهدهد دافئ ووقع نظري على ذراعيها كأنهما شعاع هزيل، ومن حركات ذراعيهما الرخوتين، عرفت أنهما عاريتان.

وكانت تلقي بالملابس التي تخلعها في خفة وبطء على السرير قطعا رفيعة حريرية ناعمة الملمس.. ها هو الكورسيه الذي كان يحتضن جزءا من جسدها.. وفتحت الجونلة القائمة وتركتها تنساب حتى قدميها، بدت كزهرة متفتحة، واستطعت أن أتحقق من ساقيها.

هذا ما اعتقدته، ولست أدري إن كان حقيقة أم لا، فعيناي لم تسعفاني، ليس فقط بسبب الظلام، بل أيضا لما أصاب قلبي من ظلمة وخفقات ومن دياجير حياتي، إنها ليست عيني التي تلاحق هذه الصورة السامية، بل إنه ظلي الذي يتقابل مع ظلها.

وما راعني شئ منها وملك على إحساساتي مثلما راعتني (بطنها)، أكثر من ثدييها وساقيها! لقد نبهت شعوري فطرحت وجهها وأفكارها جانبا، وأصبحت هي كل ما أشتهيه. هي كل ما أحاول الحصول عليه. فيها خلاصي وفيها منجاتي.. بطنها..

إن نظراتي تتقلص كيدي، تنادي بكل كيانها.. اشتهي بطنها.. لا القوانين التي سُنّت ولا الملابس التي ترتدينها، تستطيع أن تحميكِ من نظرات الذكور التي تندفع وتتسلل خفية تلبية لنداء الجنس، نظرات كأنها أفعى تسعى مندفعة

إلى جحرها.. ليس لي من هذه المرأة سوى جاذبيتها وأنوثتها، فهي لي بمثابة جرح غامض وقلب دامي وقيثارة ناعمة.

أما الرائحة التي تفوح منها فلها مصدران. أولهما العطر الصناعي الذي تتزين به، وثانيهما الرائحة المنعمة التي تنبعث من كيانها قوية، نفاذة، عنيفة، كتلك الرائحة التي نتنسمها من البحر.

إنها رائحة الحب، رائحة الوحدة، رائحة الدفء والحرارة، رائحة السر الذي يطوي أحشاءها.. وعيناها المحتقنتين كالشفاه الشاحبة.. وثغرها وثغري يتلاقيان في قبلة طويلة، قبلة طويلة لكنها عقيمة.

وتسري في جسدي أحيانا رجفة، وينتابني شعور قوي ورغبة جامحة في أن ألمسها أو أحطم الحائط الذي يقف بيننا حائلا.. أو أترك غرفتي وأقتحم عليها غرفتها في خلوتها هذه وألقي بنفسي فوقها..! لكنها تجلس صامتة بلا حديث، هادئة بلا حراك، ساهمة واجمة في لا شئ.

لا.. لا.. لأ.. هتف بي هاتف وأعادني إلى صوابي، واستولى علي خوف عميق وتوالت على مخيلتي صور هذا العمل الشائن، وسرت في جسدي الرعشة المعهودة.

وسرعان ما تولدت فكرة أخرى، وحلم يمزق جسدي فربما هي أيضا في نضال مع مثل هذه الأفكار، أو لأنها أمامي يخيل إليّ أنها مثلي، تائهة مع نفسها وأفكارها!

لا.. لا.. إنها فتاة قبل كل شئ، والفتيات لا نحصل منهن على كل ما نبتغيه فمن السهل واليسير، وفي أي وقت، أن تجد أمرأة بين يديك تفعل بها ما تشاء، فمثل هذه الفحشاء معروف ثمنها، كما توجد أيضا بيوت حيث يستطيع كل منا أن يقضي الليل مع امرأة مقابل مبلغا من المال يدفعه. ولكن الأمر هنا يختلف لأنها فتاة.. وفتاة غير عادية.. تنفرد بنفسها في خلوة ملائكية.

يجب على أن أضع هذه الحقيقة نصب عيني، وإذا كانت هذه الأفكار

تتسلل إليّ، ذلك لأنها بعيدة عني ويفصلني عنها حائط ممزق، وتزيدها الوحدة تألقا وإشراقا، لكنها بعيدة المنال، وهذا الوحي ما هو إلا نتيجة لحقيقة واحدة هي حقيقتها كعذراء.

والعزلة التي تعيش فيها بعيدة عن العالم تظهرها من خلال فضيلتها، فلا هي تستسلم أو تبيح نفسها، فتبدو كأنها تحفة رائعة،، أو تمثال بارع الجمال، أو كلحن موسيقي جميل.. طبيعتها لا تتغير، تظل لابثة في هدوء، وهي على شفا هاوية.

يا للأسف.. كل شئ يجذبني ويمنعني من الاقتراب. بائس لا مفر له من أن يكون لصا أو أن يكون ضحية.. لا مفر لي من أن أظل أتمنى وأشتهي، وما علي إلا أن أتمادى في رغباتي وأحلامي وآمالي.

منذ برهة، أشحت بوجهي بعيدا عن الفجوة، إن الخيار بين شيئين لمهمة شاقة، فمن هذه الفجوة "اللامحدودة" أقلعت عن الاستماع إلى الضجة الخفية الحلوة التي كانت تصدر منها.. ما هذا؟ هل جننت أنا؟.. لا.. إنها الحقيقة نفسها هي التي أصابها الجنون..!.

واستعدت قواي وقهرت جسدي وأفكاري، وكبحت جماح ضعفي وشهوتي، وهدأ لحمي، وامتنع عن الأحلام، ومن فوق أنقاضي، بدأت أنظر ثانية.

كم هي رحيمة بي! لقد ارتدت ملابسها وأخفت كل شئ والآن أضاءت المصباح وارتدت ثوبا، وحجبت عني ما تحجبه عن الآخرين من أسرار، وعادت إلى حدود حيائها وعفتها.. مع بعض التصرفات المشتتة المبعثرة.

ها هي تقف أمام المرآة، متخذة عدة أوضاع مختلفة، منها الصالح والطالح، فمثلا تضع بعض الأصابع الحمراء على أذنها ثم تمحوها، كأن تقف بطريقة مغرية أو بطريقة أخرى وتبتسم اذا ما راق لها وضع من الأوضاع التي تجربها.. ابتسامات.. وحركات إغراء.. وحياء وغيرها، كلها تتسم بطابع واحد يزيدها جمالا هو طابع الوحدة.

وكثيرا ما كانت تتلاقى عيوننا ولكن دون أن تراني أو تشعر بي.

واستندت بإحدى يديها على المنضدة، ووقع ضوء المصباح على وجهها وذراعيها فازدادت بهاء وإشراقا كأن الشمس قد خلعت عليها قناعا وكدت لا أعرفها، فعيناي تعودتا على رؤيتها في الظلام.. وعن كثب لم أرَ شيئا غامضا. وبقيت قابعا في مكاني، تجذبني بوجودها كأن عيني لم تقعا على امرأة قط من قبلها.

وقبل أن تتلاقى نظراتنا، بدرت منها ابتسامة حلوة جعلتني أحس القيمة غير العادية لهذه الابتسامة، والفورة التي يتمتع بها وجهها.. وانصرفت.. لقد أعجبت بها وقدرتها احتراما وعبدتها، والآن أكن لها حبا من نوع خاص حب لا يهدف إلى شئ، حب لا نهاية له.. وأقول الحيقة.. لم أكن أعرف ما هي حقيقة المرأة.

لم أرها أثناء تناول العشاء، وفي اليوم التالي رحلتُ عن الفندق، وشاهدتها في لحظة انصرافها، كانت تهبط الدرج، وقد ارتدت قفازا ناصع البياض شبيها بفراشة تنزلق على الدرابزين القاتم.

وبدت لي أكثر طولا عن اليوم السابق، لكنها لم تتغير كثيرا عن أول مرة رأيتها فيها، بفمها الصغير، وهي ترتدي ثوبا رماديا، ومرت أمامي سريعا كأن ثوبها يغرد، واختفت عن ناظري كأنها تبخرت ولم يبق إلا آثار عطرها.

وأثناء مرورها بجواري لمستني لمسا خفيفا وكان يمكنها، رؤيتي، لكنها لم ترد، فهنا الموقف يختلف تمام الاختلاف عن الغرفة، فلا حائط يفصلنا، لكن هناك الفضاء الواسع "اللا محدود"، والزمن الأزلي، والقوى المحركة للكون.

هكذا ودعتها بنظري، وكانت النظرة الأخيرة، دون أن أفهم معنى رحيلها!.. يا للأسف.. لم أرها بعد ذلك..!.. كم من مآثر تزدهر ثم تخبو، وكم من ضعيف حلو لذيذ، وكم من سعادة نحصل عليها، ثم لا تلبث أن تتبدد!

لقد هربتُ إلى الحياة الغامضة شيئا فشيئا، ومنها إلى الموت المحتم الذي لا

مفر منه، ومهما طالت الأيام فستذهب حتما لتلاقي يومها الأخير. هذا كل ما أستطيع قوله عنها.

وفي هذا الصباح، عندما أحاطني ضوء النهار، ضوء النهار الذي يخلع على كل شئ حقيقته المجردة، أجد قلبي يئن ويشكو، ففي كل مكان أشعر بفراغ يمتد بلا نهاية، إذا ما انتهى شئ، ألا يدعو ذلك إلى الشك بأن كل شئ قد انتهى؟!

و... ذهبتْ، ذهبتْ ولا أعرف حتى اسمها، ذهبت إلى مصيرها في الدنيا كمصيري فيها، واذا ما ارتبط وجودنا نحن الإثنين، فلن يتلاقيا أو يتعارفا مطلقا.

أما الآن فيا له من ليل!.. لن أنسى ما عشت تلك الليلة التي قضيناها معا.. ليلة لا مثيل لها.

- 4 -

وفي صباح هذا اليوم، أخذت أستعيد في ذاكرتي ما مرّ من أحداث يوم أمس الأول، كأني أراه الآن دون أن يؤثر في.. والآن قد ابتعدت هذه المرأة عن قلبي فقد مضى يوم بأكمله على رحيلها. هل ذهبت لتقضي نحبها دون أن أستطيع شيئا نحوها؟

أن رغبة عارمة تتملكني في أن أكتب ما أشعر به، وأن أدون كل ما أحس به بالتفصيل، حتى لا تذروه الأيام، كما تذرو الريح الهشيم.

ولكن عندما وقع بصري على الورقة الناصعة البياض، تبددت الأفكار، ولم يعد عندي ما أقوله! واستجمعت أشلاء أفكاري المشتتة، بالرغم مما يعتريني من إعياء.. وكتبت.. كتبت كل شئ بحماس وحرارة، وأعتقد أني عبرت، وأجدت التعبير عن حقيقة الأشياء ثم أعدت قراءة ما كتبت.. ولكن.. لاشئ.. لم أجد سوى كلمات ماثلة أمامي دون انسجام ودون توافق فيما بينها؟

أين إذن سلاسة المأساة، والتعبير عن الضيق الذي يعيش في صدري؟ أين كل هذا؟! إن ما كتبته لا يعدو أن يكون إطارا من الألفاظ حول حقيقة المعاني، فالعبارات على الورقة كسلسلة سوداء.

ماذا أفعل حتى أبعث الحياة في هذه الألفاظ لتعطيني الحقيقة؟ بحثت عن التفاصيل الملهمة، وهبط علىّ شعور أحسست به في بادئ الأمر متمثلا في ضوء النافذة وأود لو أظل في هذه النافذة: "النافذة سابحة في جو من الألوان المختلفة منها ما هو أزرق وما هو أصفر وما هو أخضر".. لا.. ليس حقيقي، فالحقيقة في ذاتها ليست كلعب الأطفال ولكي نصل إلى الحقيقة، يجب علينا

أن نصف صلبها وجوهرها. وعصرت ذهني لأعبر عنها بدقة وقارنت عدة مرات بينها وبين تمثال أثري، وللمرة الثانية أعدت قراءة ما كتبت... وفي ثورة غضبي، وبجرة من قلمي، هدمت ما كتبته، لبعده عن الحقيقة وعدم تناسقه.

ثم أعدت المحاولة ببعض الكلمات الناضجة الحية، كما أراها أنا، واسترسلت في بعض التفصيلات مستهدفا حدة ومضاء الذكريات... "وكانت تتخذ أشكالا شهوانية فاسقة".. لا.. لا.. ليست هذه هي الحقيقة، إنها مجرد كلمات جامدة، ليس بها حياة، تفرض نفسها دون أن تعبر عن قيمة الأحداث التي وقعت. فهذه الكلمات ما هي إلا كلمات مملة لا قيمة لها، كنباح كلب، أو صوت لفرع شجرة في مهب الريح.

فتركت القلم يسقط من يدي، وأصابتني الرعونة، وشعرت بالعياء والسأم.. كيف لا يستطيع المرء أن يصف ما يحسه وما يراه؟! ولم تتهرب الحقيقة كأنها ليست من الحقيقة في شئ؟ وألا يكون المرء صادقا بالرغم من صدقها؟ والمرء عندما يطلق اسما على شئ من الأشياء، فلا يعني ذلك أنه يناديه به، وجميل أن نعرف الكلمات منذ طفولتنا، ومع ذلك فالمرء لا يعرف شيئا.

لقد افتقدت كآبتي وحزني وقشعريرتي وحكمت على نفسي بالنسيان، والناس تتجاهلني أثناء مرورها أمامي دون اكتراث لما يمكنني أن أقوم به فوجودي على وجه الأرض ما هو إلا وجود مؤقت.

وظللت بضعة أيام لا أرى شيئا، وكانت أياما شديدة الحرارة، والسماء ملبدة وممطرة، كما هي الحال دائما في آخر شهر سبتمبر من كل عام. ما هذا..؟! اليوم الجمعة، أي أن هذا يعني مرور سبعة أيام على إقامتي في هذا الفندق؟!

وذات مرة بعد وجبة غذاء دسمة، غصت في المقعد، واستسلمت إلى أحلام شبيهة بقصص الجن الخرافية.. بالقرب من الغابة المتاخمة، وعلى البساط

الأخضر الزمردي الذي يمتد بين أشجار الغابة، هناك عند نهاية السهل المنبسط، ربوة عالية، تكسوها النباتات الخضراء وتنمو عليها متجعدة، وترسل عليها الشمس أشعتها في دوائر ساطعة فتخلع عليها ألوانا كالأصفر والأخضر القاتم.. وهناك جانب من حائط وبرج صغير و ترابيع وتكعيبات مزركشة يهيم فيها وجه كأنه طائر جميل.. وصوت من بعيد كطنين الذباب. إنها جوقة الملك التي يخرج فيها للصيد.. كنت أرى أشياء غريبة لكنها حلوة.

وحل اليوم التالي، شبيها بالأيام السابقة المتلظاه التي ذكرتني بسنين ضاعت. كأن شدة الحرارة قد قضت عليها وعلى كل ما تمخضت عنه هذه الأعوام.

أما الحجرة المجاورة، فكانت تقريبا مظلمة، والنافذة مغلقة ومن خلال الستارة المزدوجة التي صنعت من نسيج خفيف، كنت أرى قضبان النافذة متلألئة كقضبان أتون متوهجة.

وكالأمس، وككل يوم، وفي السكون الخانق، الذي يكتنف هذا الفندق، يخيم عليه السبات العميق، وضحكات تتصاعد سدي، وأصوات تعلو ثم تخبو وتتلاشى.

وسمعت وقع أقدام متجهة نحوي، وأرهفت سمعي، واذا بباب الغرفة يفتح، وينزلق إلى الداخل خيالان هزيلان، ترددا في بداية الأمر، توقفا برهة على العتبة، ثم دخلا وكأن أحدا يتبعهما.. وسمعت الباب يغلق.

ها هي الغرفة قد دبت فيها الحياة.

دققت النظر في النزيلين، واستطعت تمييزهما أثناء دخولهما على ضوء هالة صغيرة من النور تسربت معهما عند دخولهما، أثناء فتح الباب.

فتاة صغيرة يصحبها غلام في الثانية أو الثالثة عشرة من عمره قريبي الشبه من بعضهما.وجلسا على الكنبة، ينظران إلى بعضهما، ولبثا صامتين دون أن يتفوها بكلمة واحدة.

همس أحدهما إلى الآخر وهو يشير إلى السرير الخالي من الغطاء: "ترى

لا أحد هنا"، فالمشجب خال من الملابس المعلقة، والمنضدة خاوية، فالغرفة معفرة وحالها كحال أية غرفة مهجورة ولا يقيم فيها أحد.

ورأيت هذه اليد التي أشارت إلى السرير ترتعش كورقة شجرة فخفق قلبي.. ثم همست الأصوات:

- اننا بمفردنا.. ولن يرانا أحد.

- يقال اننا بمفردنا.. للمرة الأولى.

- ومع ذلك فنحن نعيش دائما مع بعضنا....

وفي هذا السكون علت ضحكة خفيفة.

من الواضح أنهما كانا في حاجة إلى هذه الخلوة للمرة الأولى ليذهبا إلى المجهول.. لقد خلقا هذه الخلوة بعيدا عن عيون الآخرين، لقد أوجدا هذه الخلوة المحرمة. وبالرغم من نجاحهما في تحقيق هذه الخلوة المنشودة الا أنهما لا يدركان حقيقة ما يسعيان إليه.

ثم تناهى إلى سمعي صوت يختلج ببعض الكلمات كأنه ينتحب: "اننا نحب بعضنا.."، وارتفع صوت آخر لاهث بعبارة رقيقة كطائر صغير: "أود لو أحبك أكثر".

فكان الناظر اليهما وهما في هذا الوضع، وأحدهما مستند إلى الآخر تحتويهما الظلال الحارة، وتخفي عمريهما عن وجهيهما يعتقد أنهما عاشقان كانا على موعد لقاء.

عاشقان! هذا هو ما يرنوان إليه ويحلمان به، دون أن يدركا معنى العشق..؟ تفوه أحدهما بهذه الكلمات: "للمرة الأولى".. فبالرغم من أنهما يعيشان معا، الا أن هذه هي المرة الأولى التي يخلوان فيها إلى بعضهما.

فربما كانت هذه هي أول مرة بدون شك، يرمي فيها أصدقاء الطفولة إلى التحرر من أواصر هذه الصداقة. أول مرة تتدخل الشهوة بين قلبين كانا للآن ينامان جنبا إلى جنب.

ولما اعتدلا في جلستهما ورفعا هامتيهما، مر خيط رفيع من ضوء الشمس

عند قدميهما، فألقى عليهما ضوءا باهتا، متميزا، كما أضاء وجهيهما، فأضفيا على الغرفة كلها، مسحة من الضوء.

ترى،هل سيذهبان ويتركاني وحيدا؟ لا.. لن ينصرفا، فكل شئ احتوته الظلال، والغموض، والحقيقة.

وكلما تأملتهما، وجدت فيهما صورة شبيهة بماضي أيامي، وماضي كل انسان في الدنيا.. أين هما..؟ في كل مكان وزمان، كانا ومازالا، تجدهما على ضفاف النيل، وفي بلاد الهند، على شواطئ مجرى الحياة الأزلية، من قديم الزمان عند الرومان، وعند الأغريق، حيث نشأ العشق وترعرع على شواطئ الريحان!

كان حديثهما يشبه طنين أجنحة النحلة بالقرب من ينبوع رطب ونضر، في وقت تلتهب فيه الحرارة، فتأتي على الحقول بينما تمرق عربة من بعيد، محملة بزرقة السماء، وباقات من النبات الأخضر اليافع.

ها هو الجيل الجديد يتفتح، حيث تربض الحقيقة المختلجة ويستولي عليهما الارتباك والخوف من أن يفاجئهما أحد، سعيدان تعيسان، يقدم كل منهما للآخر كل ما في وسعه، لكنهما يجهلان حقيقة ما يقدمان، لصغر سنهما، وقلة تجاربهما وفي داخل كل منهما سر تضيق به نفسه.. فهما كسائر الناس، مثلي، ومثلك، يتمنيان ما ليس بين أيديهما ويستجديانه، يستجديان الرأفة، ويستجديان الغوث.

هو، كرجل تأثر بصحبة الأنثى التي معه، مشدودا إليها، يمد يديه نحوها دون أن يجرؤ على النظر أليها.

أما هي كأنثى، فقد ألقت برأسها على المسند، وعيناها تبدوان لا معتين ورديتين، منتفختين قليلا، مخضبة القلب هادئة، ورقبتها، ببشرتها الحريرية الملمس، تنبض وتخفق بالحياة، وتصل صدرها بوجهها.. انها أثمن وأرق موضع لانبثاق نبضاتها.. تفوح منها رائحة الرغبة، كأنها وردة تتنفس.

وكشفت عن ساقيها الرقيقتين، ذات الجوارب الصفراء تحت ثوبها الذي

يحتضن جسدها ويقدمه كباقة من الزهور.

أما أنا فلم أقدر على أن أبعد نظري عنهما، وعن حركاتهما، فكنت أتمسك بهذا المشهد، ووجهي ملتصق إلى الحائط كأنه خفاش مصاص للدماء.

وبعد صمت طويل، قال هامسا:

- هل ترغبين في أن تستمر الكلفة بيننا؟.

- لماذا؟

- لنبدأ ثانية.

وكرر "أتريدين" بعد أن غرق في التفكير.

وارتعش جسدها بوضوح لهذه الطريقة الجديدة في مخاطبتها بتكلف مستعملا لفظة "أنتم" وليس "أنتِ"!

فمثل ذلك الشعور ينتاب المرء عند أول قبلة. ولكنها جازفت وأجابت: "كنا سنقول أن هذا شئ يحول بيننا ثم نحيناه جانبا..".

هنا لم تواته الجرأة أكثر من ذلك.

وقال لها مضيقا عليها الخناق:

- أتريدين أن نتبادل قبلة؟

ولم تستطع أن تبتسم ابتسامة كاملة، وأجابت:

- نعم أريد.

وتشابكت أيديهما، وتلامس كتفاهما، ومدا شفاههما هامسين باسميهما كطائرين:

- جـان..

- هيلين...

وكانت هذه القبلة هي أول شئ ابتكراه. أليس جميلا أن يقبّل الإنسان من يقبله فالقبلة شعور رقيق مرهف يعبر عن الود والألفة، وتوثيق الصلة في أضيق حدودها.. ومع ذلك فهي محرمة.

ولمستُ للمرة الثانية أن الخبرة تنقصهما، فهما في وضعهما هذا، يشبهان إلى حد كبير جميع العاشقين، متحاضنين، ووجوههم ملتفتة تماما، تسري في أجسادهم الرعشة، وهم هائمين في ظلال القبلة.

وانتهيا من القبلة دون أن يستكملاها على أكمل وجه، وتبادلا الحديث، تحدثا عن الماضي، ماضيهما القصير والقريب، لقد تركا جنة طفولتهما، ومقام جهلهما بالحياة وتبادلا الحديث عن منزل، تحيطه حديقة، عاشا فيه وكان هذا المنزل شغلهما الشاغل، كان محاطا بسور كبير تكسوه الأشجار. فلم يكن يظهر منه سوى سقفه العالي.

وهمسا قائلين:

- والغرفة التي كانت كبيرة عندما كنا صغيرين..وكنا لا نشعر بتعب اذا سرنا فيها عن أي مكان آخر.. وكانت حوائط هذا المنزل تحتضن شيئا غامضا منتشرا في كل مكان كإله رحيم.

وترنمت هي بلحن موسيقي وقالت:

- إن للموسيقى ذكرى أفضل من ذكرى الإنسان.

وتعمقا في ماضيهما، ماضيهما الصغير الحلو، كصغيرها وحلاوتها، وانغمسا في ذكرياتهما، وازداد تأثرهما بها، وتماديا فيها:

"وفي اليوم السابق على الرحيل كنت ممسكا في يدي مشعلا وأتنقل في المنزل على مرأى ممن فيه بعد أن يستيقظوا من نومهم على وقع أقدامي...".

"... وفي الحديقة الهادئة المنمقة، ما كنا نفكر في شئ سوى أزهارها، لا شئ غيرها. كنا نشاهد المستنقع، والممر المفروش، ونرى شجيرات الكرز المثمرة بينما تذبل غيرها من الشجيرات".

ان المرء عندما تتقدم به السنون، لا يلقى بالا إلى ماضيه، أما إذا كان فتيا فهو يحاول تحطيمه. فالحياة تغيرت بالنسبة لهذين الصغيرين. بالأمس كانا شقيقين يمرحان في الحديقة، واليوم يحيان حياة جادة

يحاولان فيها القضاء على ماضيهما.

بعد أن اعتدلت في جلستها قالت له:

- لا أريد منك أن تذكرني بالماضي.

- لا أرغب في أن نكون أقارب، ولا أريد أن نتشبث بأننا أخـان.

واتسعت عيناها شيئا فشيئا، فقال لها وهو يختلج:

- لا تلمسي سوى يدي.

- أن نكون أخين، فهذا لا يعني شيئا.

لقد جاءت ساعة الأماني الحرجة، والثمار "المحرمة". حلت الساعة التي يهتمان فيها بأمورهما، ويتملكان فيها نفسيهما، ولم يكن ذلك في وسعهما من قبل، حلت اللحظة التي احتضر فيها الخجل والحياء اللذان كانا يعترضانهما، ويقفان حائلا بينهما، ويمكنهما الآن أن يتصرفا كيفما أرادا.

ومنذ بضعة أيام، قرب المساء، كانت تسيطر عليهما رغبة ملحة في أن يعصيا والديهما ويخرجا عن طاعتهما، ويذهبا إلى الحديقة.

"وجاءت جدتي من أعلى الدرج، تنادي علينا لنعود..".

"ولكنا ذهبنا نحن الاثنين، وتخطينا السياج إلى حيث يعشش طائر، بالقرب من أحد الشقوق، وطار الطائر وتلاشت صيحته، أغصان الشجر هادئة، والثرى يرقد على الأرض دون حراك، فلا ريح ولا ضوء، وطوقتنا الظلال من كل جانب كأنها تحدثنا".

"وبسط الظلام جناحيه علينا، واعترتنا الرهبة، فلا ألوان للأشياء، إلا بصيصا من الضوء يقع على الزهور وعلى القمح الفضي اللون، وعلى الطريق، وكانت هذه هي أول مرة يقترب فيها فمي من فمك " فقالت:

- الليل.. حيث تهيم الروح في جو من الجمال.. الليل الذي يلاطف الشعور ويدلل الأحاسيس.

- وأخذت يديك بين يدي، وشعرت بما تشعرين به.من قبل كنت أدعوك

ابنة عمي هيلين، لكني ما كنت أعي ما أقول، الآن، اذا قلت شيئا، سأكتفي بأن أقول: هي، وستكون كل شئ...

ومرة أخرى تلاقت شفتاهما وعيناهما.. كآدم وحواء.. وتذكرت التاريخ الذي لا ينتهي، التاريخ الإنساني المقدس، كأنه يسيل من نبع لا ينضب، عندما كان أدم وحواء يسبحان في أنوار الجنة دون أن يلويا على شئ فكانا لا يشعران بنفسيهما. وعندما انتصر الفضول الذي نهى عنه الله، عرفا السر، واكتشفا الفراق، ولمسا سرّ عظمة إرادة الإنسان وحساسيته، فأظلمت السماء، وتوعدتهما بمستقبل مؤلم، لا مفر منه، وملائكة كالطير الجارح، ملائكة كالنسور ألقت بهما، وضربا في الأرض يوما بعد يوم.ولكنهما، رغما عن ذلك، قد أوجدا الحب وابتدعاه، واستبدلا الثروة المقدسة بحاجة الإنسان لأخيه الإنسان. وأصاب الصغيران نصيبا من هذه المأساة، وتبادلا حديثهما دون تكلف.

"أريد أن أحبك أكثر.. وأود أن أحبك حبا أقوى.. ولكن كيف؟!".

ولبثا صامتين كأن الكلمات قد نضبت، وكان حاله كحالها، وارتعشت يداهما، واستجابا لرعشتهما، وواصلا سعيهما- دون أن يشعرا- نحو سعادة يشوبها الحزن والقلق، وسارا في طريق الخطأ، الخطأ الحلو الذي نقترفه ونحن عارفون به، واندمجا والتصقا كأنهما شخصا واحدا لا هيئة له.. كنت أراه، لكن دون وضوح، كأنه يضع يديه عليها، بينما العيون تتألق وتتلألأ واستطعت التحقق منه في هذا الظلام، كان شبه عاري وملابس ملقاه على الأرض متناثرة.. وجزء رقيق كزهرة غريبة فريدة في نوعها، من طبيعة أحشائه ومن طبيعة قلبه ولحمه، يبدو بينهما كأنه سرّ حي، كأنه معجزة.كأنه طفل صغير أما هي.. فساكنة بلا حراك.

وبدون شك، رفع ثوبها، وأدركت ذلك من الصوت المنخفض الذي ينبعث مختنقا ومختلطا، كأنه يبذل نفسه في وسط هذا السكون المخيف:

"هذا هو فمك الحقيقي".

أما عن نفسي، فإن كياني يختلج، بينما حب مخيف، حب هائل للحقيقة، يمزق جسدي على الحائط.. كان هذا الانغماس يحرقهما ويثبت فيهما الذعر، كان الخوف يتملكهما.. ونهضا.. بعد أن انتهى كل شئ.. وانتهت أمامي المغامرة إلى سمة التي بدأت مصادفة، وليس هنا فقط، بل في كل مكان أيضا.

وما أن نهضا متثاقلين حتى فتح عليهما الباب.. انها الجدة العجوز، التي ينحني ظهرها، كأنها شبح عاد من الماضي، تبحث عنهما، كأنهما تائهين، ونادت عليهما بصوت خافت، صوت يتناسب مع حالتهما، صوت ذو نبرة حانية تقريبا. ويا للعجب! مائل إلى الحزن. وقالت وهي تبتسم ابتسامة صغيرة صافية دون أن يتسرب إليها أدنى شك:

- أنتما هنا يا ولديّ؟" ماذا تفعلان؟ تعالا فنحن نبحث عنكما.."

إنها امرأة متقدمة في السن، ترتدي ثوبا مقفولا حتى الرقبة، يصبغها بصبغة ملائكية.

وعندما رأياها، ارتميا في أحضانها، ورفعا جبينيهما إلى فمها المقدس الذي لا يقربه أحد، كأنهما يودعانها.

هذه العجوز لا نفع فيها إلى جانب هؤلاء الذين يتأهبون لاستقبال حياة مليئة وجادة..

وانصرفتْ، وبعد قليل انصرفا هما أيضا، مسرعين كما قدما، انصرفا وقد ارتبطا برباط سام لا يراه أحد، لكنه رباط شر، يختلف عن الرباط الذي كان يربط بينهما عند مقدمهما.. وتوقفا قليلا عند عتبة الباب، وتبادلا النظرات.. وخلت منهما الغرفة.. بعد أن رحلا.. وأصبحت كمحراب مقدس.

تذكرت أول نظرة حب تبادلاها، والتي لم يرها أحد سواي، كنت بجوارهما ولكني بعيد عنهما قرأت وفهمت لأني كنت معهما بشعوري وأحاسيسي. كنت معهما بكياني، ولم يشغلني شئ آخر عنهما وهذا ما جعلني أرى تلك النظرة.

أما هما فلم يدركا أن هذه هي أول نظرة حب بينهما. حتى أنا أيضا لا يمكنني أن أتذكر أول نظرة حب ومع ذلك فقد حدث.. واحتجبت عني هذه الأشياء المقدسة.

إلهي، ماذا تبقى لي من هذه الأشياء، ومن ذا الذي يمكنه أن يقدرها! لقد انتهى أمري كمخلوق صغير، لقد عشت فعلا، فهذه حقيقة لا شك فيها، لكني عشت مغلوبا على أمري، هدني الحزن، وما كنت أعرف ما أريد وكل ما أتذكره لا يعدو أن يكون خاضعا للصدفة، لكن: إن أحلى وأجمل شئ في الوجود هو العدم؟

والآن،، حسنا، كأني استمعت إلى نشيد ديني مقدس يملأه "اللا محدود" وتحيط به ابتسامات جديدة من كل جانب، هذا النشيد القيم تعلمته وصنته وتملكته، فهو يخفق فوق فؤادي، وحلقت ولكني أنقذت شيئا من الحقيقة.

- 5 -

ظلت الغرفة خالية يوما بأكمله، وفقدت الأمل في أن يشغلها نزيل جديد، وانتظرت. انتظرت حتى أصبح الانتظار شيمتي ومهنتي، وأهملت كل شئ، وأرجأت مصالحي وعرضت وظيفتي للضياع، وأصبحت لا أبارح غرفتي إلا لتناول الطعام، ولم يكن هناك شئ يلهيني، فكان حالي كمن يتأهب لحب جديد.

وفي اليوم التالي، أُعِدَّت الغرفة لاستقبال أحد النزلاء الجدد، ورسمت في مخيلتي صورا عديدة لهذا الضيف الجديد الذي تحتفظ الغرفة بسره.

وأعقب الغسق المساء، ولم يتغير في الغرفة شئ، لكن يأسي تبدد بعد أن رأيت الباب يفتح ويدخل منه شبح لرجل.

وحال الظلام بيني وبين تمييزه، فكان يرتدي ملابس سوداء، أو تميل إلى السواد وأساور قميصه البنية اللون باهتة تتدلى منها يدان منسولتان، وياقة قميصه ناصعة البياض، وعلى وجهه الرمادي الشاحب المستدير، ترتسم محاجر عينيه، ويظهر ما تحت ذقنه وفمه، كفجوات مظلمة، بينما يبرق جبينه الذهبي، ويغطي وجنتيه حاجز مظلم، فكان يبدو لي كأنه هيكل عظمي.

ما هذا المخلوق ذو السحنة الممسوخة؟

وعندما اقترب قليلا، دبت فيه الحياة، وازداد وضوحا، كان يتمتع بوجه جميل وجذاب تعلوه سمات الرزانة، تحيطه لحية سوداء رقيقة، ونظراته نفاذة، وجبهته عريضة وحركاته بحساب ورقة وهدوء.

وبعد أن خطا خطوتين داخل الغرفة، استدار واتجه ثانية نحو الباب الذي لم يزل مورويا، واهتز ظل الباب، وظهر على عتبته شبح، شبح امرأة، وضعت يدها الصغيرة ذات القفاز الأسود على مقبض الباب، وانزلقت داخل الغرفة، تعلو وجهها أمارات الدهشة!

لقد كانت منذ بضع لحظات تسير خلفه في الطريق، وتجنبا دخول الغرفة معا حتى لا يراهما أحد، ودفعت الباب خلفها، واستندت بكل جسدها إلى المقبض، لتحكم الباب ولتطمئن إلى أنه قد أُوصِد جيدا، وأدارت وجهها ناحيته ببطء، خوفا من أن ترى أمامها شخصا سواه، وأصبحا وجها لوجه أمام بعضهما، وصدرت عنهما صيحة مكتومة، تعبر عن جراحهما المشتركة:

- أنتِ!

- أنتَ!".

والقت بنفسها على صدره خائرة القوى، ألقت بنفسها بين أحضانه وسط عاصفة من الانفعال، ولم يكن لديها من القوة الا القدر الذي يمكنها من الارتماء بين يديه.

ورأيت يدي الرجل الهزيلتين حول خصرها، واعترت جسديها اختلاجه، كأن ملاكا يملأ الغرفة برفيف جناحيه، باحثا عن مخرج ليهرب إلى الأبد.. لكن دون جدوى. وخيل إليّ أن الغرفة صغيرة لا تسعهما، بينما الظلام يملأ أرجاءها، ونطقا بنفس الكلمة التي سبق أن سمعتها في اليوم السابق من الغلام والفتاة: "لم يرنا أحد!".

فقال لها مجيبا: "تعالى" وأخذ يدها واتجها إلى الأريكة حيث جلسا بجوار النافذة.

جلسا على الأريكة ذات النسيج الأحمر، تغمرها الظلال من كل جانب، وتشابكت يداهما كأنها قيود تربطهما، لا دخيل بينهما سوى.. الليل.. والخلوة.

يا لها من بداية! يا لها من بداية..! يا للعنة!

ولما رنت فكرة الخطيئة إلى رأسي، اعتقدت أن المرأة عندما ظهرت على عتبة الباب، واندفعت ناحية الرجل، إنما تسعى إلى لقاء يعمه السرور، ويتسم بالتقوى ويملأه الجمال، سرور طبيعي، سرور بدائي وفطري، ولكن هذا اللقاء كان كوداع ممزق.

قالت وهي تخرج الكلمات بصعوبة: "إذن سيستولي الرعب علينا دائما..؟" قالتها وهي قلقة ترتجف، وتنتظر أن يجيبها، كانت ترتعد، وكان جسدها متكورا في قلب الظلام. وأخذت يديه واعتصرتهما باضطراب وتوهج، ونصفها الأعلى منتصب، وذراعاها متصلبتان، وحنجرتها تعلو وتهبط كموج البحر، ودنا كل منهما من الآخر، حتى التصقا ببعضهما ولكن شيئا من الهلع والعفاف كان يقف بينهما حائلا.

وتحدثت وهي شاخصة تنظر إلى الفضاء، وتفوهت بكلمات كأنها تهيم في زرقة السماء: ".. الخوف.. الخوف دائما.. بعيدا عن الطريق. بعيدا عن نور الشمس. بعيدا عن كل شيئ. انا التي كانت ترنو دائما إلى حياة مشرقة، وأيام طويلة!".

إن الخوف يتملكهما، وينقب عنهما أينما وجدا، ويستولى الرعب على كل جزء فيهما. على عينيهما، على أحشائهما، على قلبيهما، وخاصة حبهما.

ولاحت على وجه الرجل ابتسامة حزينة، وقال لها متمتما: "أتفكرين فيه...؟".

واعتدلت في جلستها واتكأت بمرفقيها على ردفيها، وأسندت وجهها على كفيها، ولم تجب بشئ، وظلت واجمة كطفلة صغيرة، تنظر إلى بعيد، تنظر إلى لا شئ.. وقد تقوس كتفاها.

واذا ما تخيلا الصورة التي يخافانها، فهي ذلك الشئ الذي يرهبانه، ذلك الشئ الذي لا وجود له، لكنه يجرحهما ويدميهما، ويستولى عليهما، ويتحكم فيهما، ذلك الشئ الذي وجد في كل مكان، إلا حيث يوجدان، ويشغل كل

ذرة داخل الغرفة وخارجها، وإذا ما ذكر اسمه، أطبق على نفسيهما وأصبحا له فريسة ومغنما.. ذلك الشئ هو.. الخوف.

وعم الليل الغرفة وطوى الخوف والخجل بين أحضانه، ووقع الظلام على الرجل والمرأة، حيث قدما إلى هذه الغرفة ليدفنا سر لقائهما، كأنهما يقبرانه في مقبرة ليعيش فيها العالم الآخر..

قال لها: "أحبك".. وترامت هذه الكلمة واضحة إلى سمعي، وهزت كياني هذه الكلمة التي خرجت من أعماق هذين المخلوقين المندمجين، هذه الكلمة.. أحبك التي تقدم القلب واللحم، إنها صيحة تنادي الوجود والمخلوق.. أحبك!.. ها أنا ذا أمام الحب وجها لوجه.

ثم أخذ يحدثها حديثا زائفا، بعيدا كل البعد عن الحقيقة والصراحة، مستغلا إياه في التودد اليها، والالتصاق بها تمهيدا لمعانقتها:

"لقد خلق كل منا للآخر، وتربط بيننا الصداقة التي ربطت روحينا معا، يجب أن ننتصر على مصيرنا، لا يستطيع أحد أن يدخل بيننا، ويشتت جمعنا، ولن يتسنى لأحد أن يحول بين شفتينا من أن تتلاقيا عند اقترابهما من بعضهما.. في هذه الغرفة التي تسبب لنا الكدر والهم والعزلة، هذه الغرفة التي سببها المجتمع، والعهد الذي قطعناه على نفسينا.. إن حبنا حب سرمدي، حب أزلي لا نهاية له".

وتفوه بكلمات رخيصة، ينادي بها "اللامحدود"، وينادي بها الأزل، لكن دون جدوى... كلمات غير نابعة عن صدق وإخلاص، غير صادرة من قلبه، كلمات ترددها شفتاه فقط، كلها نفاق، فمثله كمثل الذي يؤدي صلاة يومية من غير نية صادقة.

وتركا الحديث يختلط ببعضه، الكاذب منه بالصادق، والصالح منه بالطالح، وكانت المرأة صادقة، مخلصة في عباراتها، لا مراوغة ولا نفاق، وبدا عليها الانشغال والتفكير، وقالت عن صدق عاطفتها: "إني بائسة وحزينة...".

أما عن نفسي، فقد فهمت أنه يغويها، بعد أن وزنتُ كلماته وتفهمتها، رأيت أنه يريد التغرير بها.. آه.. لقد أضحى الحب وثنا، وأصبح شيئا لا حياة فيه.

واستهلت حديثها قائلة: "فمنذ زمن طويل.." كان همها دائما أن تسرد قصة حياتها، كالتي تؤدي صلاة، أو تقضي بعمل أدبي، تتحدث بسرعة وبصوت خافت، كمن تقف أمام كاهن وتعترف إليه، كأنها واقفة في هذا المكان الذي يجمعهما دون سابق تمهيد.

كانت تبدو في الثلاثين من عمرها، ذات وجه مميز، وشعر ناعم حريري، يخيل إليّ أني عرفتها، ولم يتسنى لي معرفتها.

كانت ترتدي ملابس بسيطة، وتخلصت من "جاكتتها" وقبعتها، وكذلك خلعت قفازها، وكانت "الجونلة" التي ترتديها ذات لون داكن، وصديري أحمر اللون تحليه بسلسلة ذهبية. ثم استرسلت في حديثها عن نفسها، وعن حياتها، وهي تستعيد ماضيها المثقل بالآلام.

"يا لها من حياة مليئة بالفرغ! حياة تسير على وتيرة واحدة! حياة لا يطرأ عليها أي تغيير، المدينة الصغيرة، والمنزل، وغرفة الاستقبال تنتظم فيها المقاعد هنا وهناك، دون تغيير لمواضعها أو تبديل، ثابتة راسخة كأحجار المقبرة... وذات يوم حاولت أن أغير وضع المنضدة الصغيرة... ولكن هيهات!".

وبعد أن نطقت هذه العبارة، شحب وجهها، فازداد إشراقا وبيانا، وهو ينصت إليها، تتأرجح على وجهه ابتسامة صبر وانتظار مبعثها الملل.

آه..! انه جميل بمعنى الكلمة، بعينيه الواسعتين، اللتين تستحقان أن تعبدا، وشاربه المسترسل، ومظهره الرقيق، وهو يشبه إلى حد كبير هؤلاء الذين يتحلون بذهنهم النشط، وقد تعودوا على ارتكاب الآثام.

فأثناء حديثها عن نفسها وشكواها، لم يكن معها بكيانه وحواسه، ومع ذلك فالرغبة تحركه لينال منها بغيته.. وهو مازال ينتظر.

وفجأة.. تمزق ثوب الحقيقة وتجردت من ردائها أمامي. لقد لمست أن

هناك فارقا شاسعا بينهما، وعدم توافق لا حد له، يصعب تفسيره لطول مداه، وسعة مغزاه لكنه مؤثر ومؤلم إلى درجة انتفض لها قلبي.

وكان كل ما يرنو إليه هو أن ينالها، ويحقق رغبته، حتى تخرج من حياته، فلم تكن مآربهما متشابهة، وإن تشابه ظاهرها، فباطنها متباين، فاذا ما تناولا الحديث عن شئ، اختلف كلاهما في التعبير عنه، وكلاهما لا يفهم الآخر، وقد بدا لي ذلك منذ أن جمعتهما الغرفة فهو كاذب، لا يصف لها حقيقة شعوره، ويظهر ذلك واضحا من نبرات صوته، وكلماته المعسولة المنمقة، ولهجته اللينة التي يهدف من ورائها إلى الحصول على إعجابها والتأثير عليها، وبذلك كان يسمو عليها، بينما هي صادقة فيما تقول، طبيعية في انفعالاتها وشعورها، تقدم نفسها إلى من ملك عليها كيانها..إليه.

واستطردت تصف حياتها الماضية:

- وكنت أتطلع إلى الميدان من نافذة حجرة الطعام، حيث تتوسطه النافورة بظلالها، فكنت أتطلع إلى الشمس وهي تغرب على هذا الميدان الصغير، فيبدو كأنه ميناء بيضاء صغيرة لساعة مستديرة.. وأمام باب الترسانة يقف جندي، يقف دون فائدة فإذا ما حان وقت الظهيرة يدق دقات حزينة، ولا أرى وجها لإنسان على قارعة الطريق، فيبعث هذا الوقت من اليوم، الحزن في نفسي، ويكتمل الهم. لم يكن لي شئ، ولم يقع لي شئ.. إن المستقبل ليس لي.. وإن استمرت أيامي هكذا، فلن يفرق شئ بيني وبين حتفي. لا شئ! آه، لا شئ! والهم هم الموت، ومع ذلك، فيجب على أن أعيش، أي أن هذا يعني بالنسبة لي انتحارا، والانتحار وسائله عديدة، فبينما ينتحر البعض بإغماد السلاح في صدورهم، يتعاطى آخرون السم، أما أنا، فتقضي على الدقائق والساعات. ما علينا.. فمن فرط ما أرى الأيام وهي تتمخض عن الصباح، ثم تلد المساء، أخشى الموت، وكان هذا هو أول خوف شعرت به، وأشعر به دائما.. عندما أقوم بزيارات، وليلا إذا ما عدت إلى منزلي، أو بعد ركوب الخيل

إلى جانب سور الدير، لقد جعلني الخوف أرتعد اذا ما خطر على فكري أي أمل.. ولكن، من سيخرجني من هذا؟ ومن سينقذني من هذه الدوامة التي لا أستطيع أنا نفسي الخروج منها؟ كأنها مكيدة مدبرة لي، أساسها الرغبة، ووسيلتها الشر وموت الضمير.. رغم أن كل ما كنت أراه وألمسه، كان يهديني إلى الطريق القويم.. قالت لي صديقتي الوحيدة والقريبة مني، مدام "مارتيه"، وأنت تعرفها، فهي تكبرني بعامين فقط، قالت لي إن الانسان يجب أن يقنع بما هو فيه، فسألتها: هل تعنين حقا ما تقولين؟ واذا كان كذلك، أي يجب أن نرضى بما نحن فيه، إذن فلن يجد الموت ما يفعله، فحديثك هذا يضع حدا لنهاية الحياة! فقالت هذه المرأة القذرة: نعم اني أعني ما أقول.

لكن هذا لا يكفي ليبعث الخوف في النفس، بل، يجب أيضا أن أمقت الهم وأن أبغضه.. فكيف يمكنني ذلك؟ لست أدري!

إنني في حالة تيه عن كل شئ، عما يدور حولي، وعن نفسي، وأكاد لا أعرف حتى من أنا؟ أو ما هو اسمي؟! أتذكر منذ يوم مضى - بالرغم من أني لست شريرة- أني رأيت في منام لذيذ أن زوجي قد مات، زوجي المسكين الذي لم يسئ إليّ، إذ كنت حرة، حرة بمعنى الكلمة، وكنت في نظر نفسي، أفضل إنسانه.ولم يدم هذا طويلا، ولم يكن في مقدوري أن أعاف سنة الحياة، وما يعتريها من إقفار ودأب، فالدأب (العادة) كانت من أكثر الظلال حقيقة. والليل في نظري لم يكن ليلا، اذا ما قارنته بغيره من الظلال.. كيف يمكن ملء هذا الفراغ؟ عن طريق الإيمان والدين؟ لا، بل عن طريق الحياة ذاتها، أم عن طريق المعتقدات؟ وأفكار يجب عليّ محاربتها؟، أيضا لا، انما يتأتى ذلك عن طريق الإنسان ذاته، عن طريقي أنا نفسي.حينئذ أكون قد عثرت على الدواء.

ثم صاحت بصوت مبحوح:

"الشر! الشر! الجريمة ضد الكدر والسآمة، والخيانة لتحطيم الملل والقضاء عليه، الشر لأضع حدا لحياتي، ولأصبح امرأة أخرى غير التي

كنتها، ولأكره الحياة أكثر مما تكرهني.. حتى لا يوافيني الموت!

ثم قابلتك.. قابلتك أنت، فأنت تنظم الأشعار، وتؤلف الكتب، وتختلف عن الآخرين، فصوتك له نبرات مختلجة جميلة، وكنت دائما أمامي، فلم يكن لي بد أن أفتح لك ذراعيّ، وحينئذ أحببتك بكل قواي، ومن الجائز يا صغيري أن يكون هذا هو الحب. وكان طبيعيا أن تحبني أنت أيضا، وعندما تسللنا سويا إلى الفندق للمرة الأولى ظننت أن الباب مفتوح تلقائيا، وهنأت نفسي على تمردي، وهنأت نفسي أيضا على أني مزقت مصيري كأني أمزق ثيابي. وبعد، إننا لا نمقت الكذب ولا نبغضه - برغم ما يسببه أحيانا من آلام- اذا ما أعملنا أذهاننا وعقولنا، فالكذب، والمخاطر والمجازفات التي تعطي لذة للوقت الذي نقضيه، وللمشاكل التي تملأ الحياة، وهذه الغرف والمخابئ، وهذه السجون المظلمة، قد وهبت للشمس النزعة المثالية التي تختلج في نفسي...

قالت هذه العبارات بصوت هادئ، خفت حدته عن ذي قبل، وكانت تلاطف يد صديقها وتداعبها، وكأنها تداعب شيئا صغيرا في يدها، ثم زفرت زفرة حارة خرجت من أعماق نفسها.. فهي لا ترى أمامها شيئا جميلا.

وبعد أن استعادت جأشها واستجمعت قواها قالت:

- هكذا نكون.. فبسبب شِعرك الذي نظمته، شعرت بحب مفاجئ جذبني إليك شئ خارج عن إرادتي، وجئت إليك، والآن، ها أنا ذا بين يديك، أغمض عيني. وأضافت:

- اننا كثيرا ما نكذب فيما يتعلق بالحب، ولا نقول الحقيقة.... ربما توجد هنالك جاذبية بين الرجال والنساء، ولا أعني بذلك أنه لا يمكن للحب أن ينشأ ويترعرع بين مخلوقين، لكن هذين المخلوقين ليسا أنا وأنت، فأننا لم نفكر مطلقا إلا في نفسينا، فأنا أحبك، وأنت تحبني، لا شك في ذلك، إلا أن هناك صفة تتمتع أنت بها ولا أجدها في نفسي، فأنت تشعر بالسرور والسعادة، أما أنا فلا، ألا ترى أننا نساوم بعضنا؟ فكلانا يعطي للآخر شيئا مقابل شئ آخر،

أنا المتعة، وأنت الخيال والحلم.. ولا صلة لكل هذا بالحب.

كان يلوذ بالصمت ويكتفي بالتعبير بقسمات وجهه وبحركات تنم إما عن الشك، وإما اعتراضا لما تقول، واذا تحدث فيكاد صوته لا يسمع، قال:

- هكذا يكون دائما أمر الحب، في أروع وأرق أنواعه، فالإنسان لا يستطيع أن يهرب من نفسه.

- لا تقل ذلك، ليس هذا كل شئ..

قالتها بشئ من الحماس أدهشني. ويخيل إلى أن الأسف والندم قد سادا لهجتها وفي نظراتها تشع تباشير حلم جديد. وهزت رأسها كأنها تبدد ذلك وتطرده بعيدا عنها، وقالت:

- كم كنت سعيدة! كنت أشعر بشبابي قد تجدد، وبأني بدأت من جديد، بنية صادقة، وبقلب أبيض، وأتذكر أني لم أكن أجرؤ على إظهار شئ، من أخمص قدمي حتى شعر رأسي، وحتى الكلمة كانت شدة الحياء تمنعني من النطق بها.

وبعد الاعتراف الذي قدمته، تناول هو الحديث من الطرف الآخر الذي لم تمسه، فحدثها ملاطفا عن اللحظات الأولى في لقائهما، وعن ذكريات هذا اللقاء الذي يطوقهما.

- أتذكرين.. عندما كنا بمفردنا في اللحظات الأولى للقائنا...

فنظرت اليه. فاستطرد في حديثه:

- كان ذات مساء، كنا نسير سويا، أتأبط ذراعك وكنت تميلين على بجسدك، لدرجة أني شعرت بثقل جسمك وأحسست بحرارة لحمك، وكانت الناس منتشرة في كل مكان، لكننا لم نشعر بأحد منهم، كنا وحيدين، وكل ما حولنا يبدو خاليا إلا منا نحن الاثنين وكان يخيل إلينا -نحن الاثنان- إننا نتهاوى على سطح الماء. فقالت:

- آه.. ما كان ألطفك! لقد كان لك وجه غير وجهك الذي عرفتك به بعد هذه الليلة، حتى في أجمل اللحظات وأسعدها.

- وتحدثنا في أشياء كثيرة، بينما كنت أضمك إلى بقوة كأني أضم باقة من الزهور، وحدثتيني عن أناس نعرفهم، حدثتيني عن كل شئ، عن الشمس، وعن النهار، وعن جمال الليل ونسيمه. ولكنك في الواقع قلت أنك جئت من أجلي.. وعباراتك التي ذكرتيها أثناء اعترافك لمستها خلال حديثك، وان لم تقوليها لي. آه.. كم تكون البداية دائما عظيمة.. خالية من كل وضاعة وصغر.. وذات مرة، عندما التقينا في الحديقة، وطفنا في أطراف المدينة، وكانت الشوارع هادئة ساكنة إلى درجة أنه خيل الينا أن وقع أقدامنا يغير الطبيعة بأجمعها، وأعاق حنانا مشيتنا، وانحنيت عليك ثم قبلتك..

فقالت:

- هنا..

ثم أشارت بأناملها إلى رقبتها، وزادت هذه الحركة رقبتها تألقا ونورا.

- وشيئا فشيئا، كانت القبلة تنتقل من مكان إلى آخر حتى وصلت إلى شفتيك، حيث توقفت عندهما، فأخطأتك في القبلة الأولى، بينما في القبلة الثانية تظاهرت بالخطأ.. وشيئا فشيئا شعرت بشفتيك..

ثم خفض صوته حتى صار كأنه همس:

- تزدهر وتتفتح بين شفتي..

وخفضت رأسها، ورأيت شفتيها حمراوين في لون الورد، وقالت وهي تزفر متأثرة:

- كم كان هذا جميلا، إذا ما قارنته بالسجن الذي أعيش فيه..

إنها دائما في حاجة إلى ذكرياتها الماضية، لتستعيد أحزانها وآلامها والأهوال التي لاقتها، وتستعيد حبها لهذا فهي تسرد قصة حياتها. أما هو، فيستدرجها إلى غرام يملأه الحنان، بعد أن تولاه الحماس، والآن فهما يبحثان عن الذكريات الرنانة، قبل أن تتحول إلى حقائق.

- وفي اليوم الثاني، وكان يوما حزينا بالنسبة لي، كنت مدعوا عندك مع جمع من الناس، وكنت أنت سيدة المنزل، مكتملة المظهر، توزعين مجاملاتك

على الجميع، مرحبة بهم، يعتريك شيئ من الخجل، وكل منا يصيبه بعض من حديثك، وقسط من جمال محياك.كنت ترتدين ذلك الثوب الأخضر الذي يبعث البهجة في النفس، وكان هذا الثوب محور الحديث، يجاملونك فيه ويمتدحونك، وأتذكر عندما كنت تمرين أمامي لم تواتني الجرأة على أن ألاحقك بنظراتي، فكم كنا متسرعين في اللحظات الأولى من تأثرنا، فقد قلت في نفسي: آه، لو أخذت قلادتها التي تضعها حول ساقها العارية وطوقت بها رقبتي، ولو طوقت جسدها الأملس الممشوق بين ذراعي، وعانقتها جسدا وروحا، لكان هذا كسبا عظيما! ولكنه لم يكن كسبا هينا طالما كنت أتمناك في هذه اللحظة، ولم أتمكن من الحصول عليك.وبدون شك كنت سأعانقك، ولكن للأسف لم يتحقق ذلك، فضلا عن أنك كنت ضالتي المنشودة، واعتراني الحزن وقتها. وبعد ذلك، من يدري؟ اذا حصل الانسان على شئ أو اذا كان يملك شيئا، فهل يدوم هذا الشئ؟ وهل في مقدوره أن يحصل عليه مرة أخى؟

- آه! كلا.

قالت ذلك وتنهدت من أعماق نفسها، من أعماق ماضيها وذكرياتها واستمرت:

- في الحب ليس كل شئ يقال، أنا أيضا هزتني بعض الأحزان وكان يجب علي أن اكتمها وأخفيها في قلبي، واتظاهر بالسعادة، ففي الأيام الأولى، لم أكن أجرؤ على النوم مخافة أن أتفوه بإسمك في أحلامي، وكنت أبذل قصارى جهدي لأتجنب ذلك، ولأنتصر على جنون النوم، فكنت أفتح عيني ساهرة لحراسة قلبي.كنت أخشى أن يكتشف أحد أمري ويرى الصفاء الذي يغمرني.. نعم الصفاء فعندما يستيقظ الإنسان من حياته، ليستقبل حياة أخرى، ليرى ضوءا جديدا، ويرى كل شئ قد خلق من جديد، فاني أسمى هذا:" الطهارة والنقاء".

- وهل تذكرين يوم مركبة السباق في باريس؟

- آه.. نعم.

أجابت وهي تشعر بسعادة متناهية.

- لقد كان أعظم يوم.

كان يحدثها بصوت مرتعش النبرات، تختلط به خفقات قلبه، هو الذي يتحدث:

- كنت تجلسين على المقعد بركبتيك، وتنظرين إلى الوراء من خلال فتحته وأنا أداعب جسدك بيدي وأنت تصيحين:

"آه! لقد اقترب! ها هو قد ابتعد.. يا للأسف لقد فقد! "

ومع هذه الحركة تلاقت شفتاهما في قبلة. وقالت كنسمة عابرة:

- إنها المرة الوحيدة التي استمتعت فيها.

فأجابها قائلا:

- سنكون دائما خائفين.

وأصبح حديثهما متقاربا، وتحولت عباراتهما إلى عناق وقبلات وتحول إلى وشوشة وهمس. لقد كان متعطشا إليها، وشفتاه تناديها بكل ما أوتيا من قوة وسكنت يداها، وتركزت حياتها في شفتيها.. وتلاشى كل شئ وتوارى أمام الشعور بالرغبة، وحلت روح الشر.

نعم.. إنهما في حاجة إلى بعث ذكرياتهما من جديد ليحافظا على حبهما من الدمار، ومن سنة الحياة ووتيرتها التي لا تتغير، وحتى يقاوما ويحولا دون تقدم السنين بهما، وسعي الموت إليهما.

وتعانقا يعتصر كل منهما الآخر، والتحم وجهاهما بقسماتهما الشاحبة، ولم أتمكن من التحقق من كليهما، ولكن يبدو منظرهما أكثر وضوحا لالتصاقهما ببعضهما.

وانفردا ببعضهما وسط هذا الظلام، وسقطا في الهاوية التي طالما تمنياها، ودفنا نفسيهما في دياجير الليل التي ينشدانها على وجه الأرض وتمتم قائلا:

- سأحبك دائما.

ولكن، أنا وهي، كنا نحس كذبه، ولم يخدعنا حديثه المعسول كما كان يفعل منذ برهة، ولكن ماذا بهما؟ ماذا بهما؟!

وهمست وهما متعانقان، والشفتان على الشفتين:

"سيعرف طريقه ولن يستغرق وقتا طويلا"

وبعد التصاقهما، لم يكن هناك سوى الرجفة التي تشترك بينهما، والتي تزداد اضطرابا، ولكن الجهد الذي يبذلانه، لينصهرا روحا وجسدا كان على وشك الانتهاء.

وبدأت المرأة تستعد لاستقبال الليل المظلم، بوجهها المبتسم الباكي، تغمره ظلال الاستسلام والخضوع.

وتوقف الكلام.. وحل محله العناق والتصاق اللحم باللحم، والهدوء التام، والتنهيدات، وحركات غير منتظمة، وصوت صادر عن الملابس التي يرتديانها.

ونهضت، نصف عارية.. لقد أصبحت بيضاء.. هل هي التي تعرت؟ أم هو الذي جردها من ملابسها؟ اني أرى فخذيها العريضين، وبطنها الغض الذي يضئ كالقمر في الغرفة المظلمة، يحيط به خط أسود طويل، إنها ذراع الرجل.. وفمه بجوار فمها، وأخذها في أحضانه واعتصرها وهو جالس على الأريكة، وأخذ شفتيها بين شفتيه في قبلة وحشية، وبجسده الأسمر جلس على ركبتيه أمام جسدها الشاحب، وتركت هي نظراتها تنساب عليه.. ثم همست بصوت تملأه الفرحة:

- خذني، خذني مرة أخرى، خذني بقوة عن ذي قبل، أن جسدي ملكي، وسأهبه لك، لا؟ أنه ليس لي، لذلك أقدمه لك وأنا راضية!"

ومددها على ركبتيه، وأظن أنها عارية تماما، فليس في مقدوري أن أميز الخطوط والأشكال.

ولكن رأسها ملقى إلى الخلف، تعكسه النافذة، وأرى وجهها في الظلام حيث تتألق عيناها وفمها أيضا. هذا الوجه الذي ينيره الحب!

وأخذها عليه عاريا أيضا، ووسط هذا الرضا المتبادل والمشترك، كان هناك

نوع من الصراع، صراع مقدس وضاري، وتأثر غير عادي يسودهما. ومع أني لم أره فقد عرفت اللحظة التي دخل فيها لحمه في لحمها.

وأنا.. شعرت كأن عضلات كتفي وصلبي تُسحقان وتصلبت في موضعي، ولكني تغلبت عليها واستطعت أن أبسطها على الحائط، وألصقت عيني بالثغرة الصغيرة لأمتع نظري بهذا المشهد الرائع الشنيع، وأقبله بكل وجهي، وأعانقه بكل كياني، وكان الحائط يردد خفقات قلبي.

كان يطوق كل منهما الآخر، ويهتزان كشجرتين متداخلتين، تأخذهما لذة الشهوة، بعيدا عن كل شئ، عن القوانين، وعن إخلاص العاشقين، تلك الشهوة التي تحاول إنجاز عملها، عملها الخلقي الذي يتميز بحدة الطبع والشؤم، عملها المشين.

وأعترف، على الأقل، أن الله لا يرضى أن يميت المخلوقات، وأن يمنعهم عما يرتكبون!

وبرغم أنهما كانا متشابكين، فقد رفع رأسه وألقاها إلى الخلف، في ضوء مكنني من أن أرى هذا الوجه، فاغرا فاه، عن أنات متقطعة منغومة منتظرا قمة الشهوة.

ووصلت الشهوة بلذتها، متخفية ولا صوت لها، استطعت أن أحدد وقتها، وقت وصولها كحدث جلل، وكنت أعد حتى الرقم أربعة خلال هذه الفترة، ولم أترك وجهه يغيب عن عيني، وهو بجسده الأسمر، رافعا إحدى يديه كأنه يضرب في الهواء، كان يبتسم ويبدو كأنه شهيد، أو كملاك تلقى أمرا ساميا ودار حول نفسه في وجل ثم انطلق طائرا.

ثم أخذ يطلق صيحات قصيرة خافتة، صيحات فيها عجب ودهشة، كأنه رأى شيئا جميلا لا يتوقعه قد بهره جماله، وهو لا يصدق ما هو فيه، وما يتمتع به من فرط سروره وفرحته.

وفي هذه اللحظة زاد انصهارهما روحا وجسدا، وهي؟ ربما لم تكون سعيدة، ولكن لامراء في أنها تتمتع بما تحسه من لذة، وبما تشعر به من انسجام، ولكن هناك معجزة أنثوية يصعب وصفها والتعبير عنها.

ولما سألته. "أسعيد أنت؟" تملكني شعور غريب فقد خيل إليّ أنها توجه إليّ هذا السؤال! وكنت تقريبا على حق في هذا الاحساس طالما كنت إلى جوار فمها العاري، نعم، إنها تتحدث إليّ.

وهمس، وهو مازال شاخصا إلى السماء، ولحمه لم يزل موثوقا بلحمها. "أقسم أن هذا هو كل شئ في الوجود!".

وحالما شعرت بانتهاء السعادة التي كانت تغمرها، ستذهب عنها، وأن وهمها سيحتجب عنها ويتركها، قالت حينئذ وكأنها تنتحب: "فليبارك الله البقية الباقية لنا من تلك اللذة وهذا السرور!"..

صيحة بائسة.. رجاء مهين وشائن، هذه أولى بوادر السقوط الكبير. أما هو فكان يردد بطريقة آلية: "كل ما في الوجود!".. ها هما صديقا الشهوة قد أنحطت قواهما، وأشبع الرجل رغبته.

ولمحت على وجهه علامات الندم والألم التي تسببت له في الإعياء، وفي إقصائه عن جثة هذه المرأة التي لا تحس هذا البعد. لم تكن مثله، لقد نضت عنها فجأة لذتها، وأيقنت أنه لم يكن يبحث أو يأمل في شئ أبعد من ذلك... وأنه حقق مآربه.. وأمعنت هي الفكر، ولم يساورها الشك في أن هذا سينتهي في يوم من الأيام، وأن ما يخفيه القدر لها لن يكون أفضل مما مضى.

وفي هذه اللحظة، كما يبدو لي من شدة تبصري بالأشياء ومن متابعة الجَزْر الذي يطرأ على فرحتهما تارة وعلى حزنهما تارة أخرى، وما يملأ عينيهما من عبارات. وقال وهو يئن:

- كل شئ في الوجود"

وصاح:

- آه! هذا لا شئ، لا شئ مطلقا!

فكل منهما يشعر كأنه غريب عن الآخر وتطوف نفس الخواطر بذهنيهما، وبينما لا تزال هي مستندة إليه بجسدها، كانت نظراتها إليه- بلفتة من

عينيها- تتنقل بينه وبين بندول الساعة وبين الباب، كأنها تفكر في الانصراف.

ولما كان فمه قريبا من فم عشيقته، فقد نحى وجهه بلطف- (وكنت أنا وحدى أستطيع ملاحظة ذلك)- بانقباضة خفيفة علت وجهه نتيجة لانحراف مزاجه، لقد جنى زهورا كان متعطشا إليها. قبلات كانت تحبس في هذا الفم منذ دقائق كأنها حبست في تابوت.. ثم نطقت.. نطقت الآن فقط، بثغرها المسكين، أجابت على ما قاله لها من قبل المتعة التي كان يعيشان فيها:

- لا. إنك لن تستمر على حبي، ولن تدوم دائما، وستتركني ومع ذلك فلست آسفة أو نادمة على شئ، وبعد هذه اللحظة التي جمعت بيننا، وعندما أعود إلى حزني الكبير، الذي لن يخيفني بعد ذلك سأقول لنفسي:"كان لي حبيبا!" وسأنضو عني شعور الندم، لأعيش لحظات سعيدة.

وهو صامت لا يريد ولا يستطيع الإجابة، ولكنه تمتم قائلا:

- لماذا تشكين في؟

لكن نظراتهما اتجهت إلى النافذة، إن جسديهما قد أُثلجا وتولاهما الخوف، ينظران بعيدا إلى المنازل التي تظهر من النافذة، وبقايا الشفق الذي ولى الأدبار هاربا كأنه سفينة قد حققت نصرا، وكما أرى فإن النافذة قد أصبحت طرفا ثالثا لها دورها في هذا المشهد، وهما يتأملانها. كبيرة، باهتة، كل شئ حولها قد تبدد. بعد التوتر الشهواني الممل، واللذة- الدنسة الصغيرة، ظلا محطمين أمام زرقة السماء دون نور، ثم تلاقت نظراتهما، فقالت:

- ألا ترى أننا نجلس بمفردنا، وحيدين ككلبين ينظر كل منهما للآخر، ويتأمل كل منهما حال الآخر!

وتداعت يداهما، وامتنعت ملاطفاتهما وتوقفت، وسكن عناقهما وهدأ، وخار لحمهما، وابتعدا عن بعضهما، وجلست هي على الأريكة، وهو على مقعد آخر، يكسو الحزن وجهه، وتتباعد ساقاه وتهدل بنطلونه وهو يلهث ببطء، تدنسه المتعة التي لا حياة فيها.

وانفغر فاه، وتقلص وجهه وانكمش، كما بدا ذلك واضحا على قسمات وجهه، ويمكن أن يقال أن الهزال قد أصابه في لحظة وعاد إلى سابق عهده كهيكل عظمي، لقد بذل جهدا شاقا ومضنيا، وبالرغم من الصمت الذي يلوذ به، فقد بدت عليه الرغبة في الصياح ليملأ ذرات أعماق هذا الظلام. وتشابه الإثنان في كل شئ، ليس بوجهيهما فقط، بل أيضا ببؤسهما!

وغرقا في ظلام دامس، لم يمكنني من رؤيتهما جيدا، ولكم كانت دهشتي عندما تنبهت إلى أني أراهما حتى الآن! وكان حتميا أن يحميا جسديهما وروحيهما بنوع من النور..

"كل شئ!، لا شئ!" هاتان العبارتان لهما صدى يرن في أذني دون ولولة أو صياح، بل كانتا بصوت خافت ميزته بصعوبة، يعبر عن عواطفهما، وعن الفارق الذي يفصل بينهما.

وربما لأني رجل مثله، وككل رجل، وربما لأن كل ما هو عنيف وحيواني، يستحوذ على انتباهي في لحظة كهذه، يرهبني التراجع الذي لا مفر منه أمام إغراء الجسد واللحم!

من يعرف؟ ومن يدري؟ ان المرء يجب أن يسمو على الآخرين مثلي، ويجب عليه ألا يجاريهم فقط، بل وينعزل أيضا عنهم حتى يمكنه أن يرى الاندماج وهو يتفكك ويرى الابتسامة وهي تتحول إلى كرب وحسرة، لأن المرء ان لم يجرب هذا وذاك، فلن يتعلم شيئا، ولن يكتسب شيئا من الحياة، وسيتخبط في دروبها، وينهض من هوة لتتلقفه أخرى.

ويدل على ذلك، ما سمعته من صيحة الرجل "كل شئ ولا شئ"! "وهذا هو المرء الذي يناقض نفسه وأملي الوحيد أن يعي الجميع ذلك؟ ولكن.. من سيعيه فمهما تكن الكلمات والعبارات، ومهما يكن التوافق والتناسب بينها، ومهما جمدت وتيرة الحياة الراسخة منذ أجيال وكذلك المواهب والعبقرية، على مفارق هذه الصفات، فيبدو أنهما حرما كل هذا.

وأنجح طريقة لنشر هذا، هي عمل أدبي، ليعرفه الجميع، الخاصة منهم والعامة فالهدف الوحيد هو الإشارة إلى القوة الخلاقة لأفكارنا وآمالنا، ففي اللحظة التي تتجلى فيها هذه القوة الخلاقة ويتبلور جوهرها، سوف يحدث انقلاب هام في كل من مفهوم الحقيقة والوجود.

ما هو الشئ، وما هي الصدفة التي لها قيمة كبيرة التي يمكن أن نهبها إلى هذين العاشقين. هذه هي قصتهما الوحيدة بل هي واحدة من القصص العديدة.

سيحاول كل منهما أن يقاوم حياته، ويصارع مصيره، بكل ما أوتي من قوة ومقدرة، حتى ينتصر في النهاية على الموت.. ومن جديد، سيبحثان في جسديهما المختلطين عن تفريج لكربهما، وخلاص من حسرتهما.

ومن جديد أيضا، ستشدهما سكرات الإثم الفانية، التي تتملك الجسد كأنه شريحة من اللحم،... ومرات أخرى ستحلق أحلامها، وسيصبغ الشك رغبتهما الجنونية بالفراق، وسيسمو انحطاطهما، ويتعطر جسداهما الآثمان، وستتطهر أجزاءهما الملعونة والأكثر ضلالة، والتي يمارسان بها ارتكاب آثامهما، وأعمالهما الضالة الممقوتة.. وفي برهة صغيرة ستحل عليهما لحظة يصبحان فيها أهلا للعزاء.

وكذلك سيقتص كبرياؤهما منهما، اذا ما خلطا بين الرغبة والشهوة من ناحية، و"اللامحدود" من ناحية أخرى.

آه!! اني غير أسف أو نادم على أني هتكت هذا السر الكبير والبسيط، فربما يكون هذا هو مجدي الوحيد، أني قبلت هذا المشهد، وطوقته ولثمته في كل خطواته، وفهمت منه أن الحقيقة الحية أكثر حزنا وأكثر اكبارا مما كنت أعتقد من قبل.

*****

- 6 -

انتهى كل شئ وانصرفا، واختفيا حيث لا أدري. ويخيل إلى أن زوجها لابد أن يأت ليبحث عنها، إنني لست على يقين مما قالاه، فلست واثقا إن كنت قد فهمت أم لا!

وأخذت أطوف بغرفتي، بعد أن أصبحت الغرفة المجاورة خالية ووحيدة، ثم تناولت العشاء ونادتني الطبيعة إلى الخروج.. فخرجت.. سرت في الطريق حيث المساكن جامدة ومغلقة، وكل مكان تقع عليه يعني، أرى فيه الناس كأنهم يبتعدون عني فلا أرى سوى حوائط ووجوه.

وجدت نفسي أمام مقهى، جذبتني إليها أضواؤها الباهرة، فهذه الأضواء تعجبني، وأطمئن إليها، ومع ذلك، تشعرني بالغربة... وكان لابد لي من أن أسلك طريقي بين المارة، لأجلس في هذا المكان العام، وأطلب ما أشتهي.. فذهبت وجلست وأسبلت عيني.

فالناس أمامي متجمعين هنا وهناك، مبتهجين، بسطاء هادئين، لا يهتمون بشئ، وليس لديهم -مثلي- عمل معين يؤدونه، وكنت أجلس بمفردي، وأمامي كوب مملوءة، أتنقل ببصري بين الحاضرين، وهناك، رأيت فتاة زينت وجهها بالأصباغ، واضعة على ركبتيها "كلبة" صغيرة تظهر رأسها من خلف المنضدة الرخامية، وتتسلى بالنظرات والابتسامات التي يرميها المارة على هذه "الكلبة".

وبدا لي من نظراتها أنها تعيرني شيئا من الاهتمام، فهي ترى أني لا أنتظر أحدا، وبإشارة، وبكلمة، جاءت هي، وهي التي تنتظر الجميع، جاءت وهي

تبتسم بكل جسدها... ولكن لا.. ليس هذا ما أريد... فإنني أكثر سذاجة منها، لست في حاجة إلى امرأة، وإن كنت قد أخفقت في الحب، فذلك ليس عن طبيعة، وإنما عن فكر ناضج.

اقتربت مني وهي لا تعرف من أنا! فأشحت بوجهي عنها. إنني لا اهتم بالتأثر السريع للجنس، الملهاة الجنسية!... أراها في كل مكان، وعند كل إنسان، عند الرجال، وعند النساء، وأعرف ما يصنعون، يا لها من ملهاة!

وامتزجت رائحة القهوة مع الدخان المتصاعد من السجائر مما جعل الجو خانقا، كما اختلطت الأصوات مع بعضها محدثة ضوضاء جلبة من ارتطام أطباق الفناجين، ودفع باب الدخول واصطدامه، وصيحات الدهشة والتعجب الصادرة عن أحد اللاعبين، واكتست الوجوه بلون أخضر شاحب، أما وجهي فكان يختلف عن وجوههم، فكان أكثر تعبيرا عما يراه، ولما يعلوه من كبرياء، ولما يريد أن يراه!

وفي الحال دعاها أحدهم مناديا إياها "محبوبة".

ولا أدري إن كان هذا اسمها، أم هي حقيقة محبوبته، لا أعرف شيئا عن التفاصيل أو الاسماء، وأجهل كل شئ عن هذا النوع.

إن الناس تكشف لي عن خباياها، وأنا أنادي كنه الحياة، ومع ذلك أحس أني مفقود، هائم، على صفحة الكون.

ومن خلال زجاج المقهى رأيت خيالا لرجل يسير في الطريق، عرفت فيه أحد نزلاء البنسيون الذي أقيم فيه، فتراجعت بمقعدي إلى الوراء، فلم أكن في حالة تسمح لي بالتحدث مع أحد أو الدخول في مناقشات، ولم يعتريني هذا الشعور إلا في هذه الأيام الأخيرة، وأسندت رأسي على يديّ المتكئتين على المنضدة، حتى لا يتعرف على أحد من هؤلاء اذا ما ألقت بهم الصدفة في طريقي.

تركت المقهى، وأخذت أجوب الطرقات متنقلا من شارع إلى آخر، ومرت

أمامي امرأة، وبطريقة لا إرادية تبعتها. كانت ترتدي ثوبا يميل إلى الزرقة الداكنة، وتضع على رأسها قبعة كبيرة زرقاء، وكانت متميزة بمشيتها المرتبكة، وثوبها ينحسر عن ساقيها بطريقة بلهاء، تظهر ساقيها الرقيقتين، وحذاءها المكشوف، وجوربها الأسود الشفاف.

وإذا ما قابلتني غيرها، أنظر إليها متفرسا.. وهناك امرأة ثالثة تعبر الطريق مرتدية ثوبا رماديا، وخفق قلبي، كأنه استيقظ من سباته وأفاق من رقدته..

إنني رجل كغيري من الرجال، لي نزواتي، ورغباتي المكبوتة، وفي الطريق الطويل حيث خيم الظلام، وحيث كنت أسير، ولا أعرف إلى أين، تملكتني رغبة في أن أقترب من جسد امرأة..

وهذه امرأة تكاد تمس الحائط، تسير قريبة مني، فتطلعت إليها وتخيلتها وهي عارية تماما، لها قدمان صغيرتان، لم أر مثلهما، وتتشح بوشاح خفيف وصغير، وتحمل في يدها ربطة صغيرة، وتنحني قليلا إلى الأمام، وتسير مسرعة كأنها تريد أن تسبق نفسها.. فتحت هذا الظل الحزين، يكمن جسد من نور يشع أمام عيني، ثم اختفى في طيات أمواج الظلام التي تهتز برقة... وكنت أفكر في جمال نجمة، يتمثل في خصلات شعرها اللامعة التي تنسدل من تحت قبعتها النحيفة... كما تخفى تحت قسمات وجهها الجادة ابتسامة عريضة.

ولبثت متسمرا وسط الرصيف بضع لحظات، حتى ابتعد طيف المرأة، ولحسن حظي لم تلتق عيناي بعينيها فان كان قد حدث لكان ذلك سببا في آلام عظيمة لي.

ومن بعيد وقع نظري على فتاة تجلس في الترام وقد تعرت قليلا وتجمع ثوبها تحتها فكشف عنها كلها، ولكن اعترضتني سيارة، فتسلل الترام واختفى كأنه كابوس.

وبوجه عام كان الطريق يعج بالسيدات من كل لون ومن كل نوع، فمنهن

اللاتي ترتدين ملابس خفيفة، ومنهن من تقدمن أنفسهن، ومنهن من تقصر أو تطول ملابسهن، بحيث كان هناك توازن بينهن.

وأثناء سيري، فإذا بي أمام إحدى المرايا، فنظرت إلى نفسي وإلى وجهي الذي كان شاحبا، وإلى عيني المجهدتين.

إنني لا أريد امرأة واحدة فقط، بل أريد كل النساء، اشتهيتهن جميعا، أبحث عنهن الواحدة بعد الأخرى، كل منهن تمر أمامي رائحة غادية، كأنها تقصدني وتقترب مني، ثم لا تلبث أن تتحول عني.

أصبحت مغلوبا على أمري، وأذعنت لحكم الصدفة، وتتبعت امرأة، كانت ترمقني من ركن عينيها، ثم سرنا جنبا إلى جنب، وأمام المدخل، عندما فتحت الباب اعتراني شعور بالمثالية اختلج له كل جسدي، واستسلمت، استسلمت لهذا الفعل الذي يأتيه الجميع... وانتهى كل شئ بسرعة ولم يستغرق وقتا طويلا.

وجدت نفسي من جديد أسير على الرصيف، ولم أهدأ كما كنت أتوقع، بل على العكس من ذلك، كنت أشعر بارتباك عميق، وكان يقال عني، أني لا أرى الأشياء على حقيقتها، بل أني أراها كثيرة ومن بعيد... ماذا هناك أذن؟!

جلست على إحدى المقاعد، متعبا، وقد أعياني ثقل همي، وبدأت السماء تهطل، وأسرع المارة، ووضع بعضهم مظلة على رأسه لتقيه مياه المطر، وتتساقط قطرات الماء بغزارة وسط الطريق وعلى الأرصفة السوداء اللامعة، وخيم شئ من الصمت والهدوء... لشد ما يضايقني أن أتخيل شيئا، أو أحلم بشئ لا أحتمله!

يا لشقاء الذين يفكرون فيما لا يملكون! لديهم العقل، ولديهم الأسباب، وهم بذلك يختلفون عن الآخرين، فالبسطاء منهم، والمتواضعون والضعفاء، لا يعيرون اهتماما بما ليس لهم، فهم يتقربون لبعضهم جماعات وفرادى، دون توجس أو حزن، (كذلك ذوو النفوس الصغيرة لا يتمنون إلا الأشياء الصغيرة)، ولكن ما موقف غيرهم؟... وأنا.!

أسرقه هي، اذا ما رغبت في حيازة شئ ليس لي؟! يكفيني أن أرى بعضهم يتنازعون عن إيمان من أعماقهم، ليثبت اعتقادي بأن المرء يشبه الأرض في دورانها حول نفسها؟

يا للأسف! يا للأسف! إنني لم أتعلم هذه البساطة الرهيبة فحسب، بل جذبتني أيضا في مدارها، فقد لحقت بي عدواها، وازدادت رغبتي امتدادا وازدادت خطورة، كنت أرنو إلى أن أعيش الحياة بأنواعها، وأثقل القلوب جميعها، كان يخيل إليّ أن ما ليس لي، سيتوارى عن عيني وسأظل وحيدا مهجورا.

وجثمت على أحد المقاعد أحتمي به من هبة ريح قوية، في هذا الطريق الذي أصبح موحشا، يموج بالأمطار.. وتسرب اليأس إلى نفسي، لأني إنسان طيب وأحب كل شئ.

آه! لقد تجلى لي الآن كيف سيكون عقابي، لاطلاعي على أسرار الناس، وسأعاقب بقدر ما أذنبت، سأعاني من الشقاء "اللامحدود" كذلك الذي أراه عند الآخرين سيكون عقابي على كل سر يستباح، ولكل امرأة تمر.

إننا لا نفهم ما هو "اللا محدود"، إننا نضعه بإرادتنا لبعض الأبطال الروائيين، نتزين به كأنه حلة من حلل المسرح، باستثناء "هاملت"... فاللا محدود يعيش خامدا داخل هذا الرجل، كما عكست لي المرأة التي وقفتُ أمامها منذ قليل في الطريق، وكما كان الناس يتطلعون إليّ في صورتي المهزوزة ووجهي المعهود، وإسمي، وكنت أتمنى أن أنال كل ما ليس لدي... وهكذا أمضي بخطى متئدة في طريق "اللامحدود" هائما، لا يحدني أفق، كأني جرم من الأجرام السماوية... يهيم دون توقف.. لأنه ليس هناك ما يدعوه لذلك!

ورفعت عيني التائهتين، متألما من الخطأ، أشعر بشقاء عظيم واذا ما بكى المستحيل، أشعر به كأنه يفتديني، ولكني لا أومن بالاعتداء، لا أومن بهذه الأشياء المختلفة دينية كانت أم أخلاقية، إني أتألم في أعماقي، ولا غرو في أن سمات الشهيد ترتسم على وجهي.

إذن، فيجدر بي أن أعود لأملأ فراغ هذا الشهيد وأتأمله دون انقطاع، وعوضا عن افتقاد الوقت في الفراغ الذي يملكه الجميع، يجمل بي أيضا أن أعود إلى حجرتي الحية.

وقضيت يومين يملأهما الفراغ، أنظر إلى الأشياء، ولا أرى شيئا، وبدأت استحث الأحداث، وبعد مشقة تمكنت من الحصول على بعض الأيام جعلتها للراحة، ولأنسى نفسي أيضا.

ومكثت بين حوائط هذه الغرفة هادئا محموما، وليس لي عمل، كأني سجين، أتمشى فيها وعيناي معلقتان بالفجوة الصغيرة التي لا أجرؤ على الابتعاد عنها.

ومرت الساعات طوالا، وما أن حل المساء حتى بدوت مرهقا تعييني الأفكار، ويرهقني الانتظار.

في مساء اليوم التالي، استيقظت فجأة، وشعرت برعشة، كانت غرفتي باردة كبرودة الطريق، ووضعت يدي على الحائط لأتحسسه، فكان باردا كمن لا حياة فيه، ونظرت إلى الغرفة المجاورة، وكان (شيشها) مفتوحا، مثل شيش نافذتي، وانعكس عليه بصيص من ضوء القمر، ولبثت واقفا في المكان المعهود، يغلب علي النعاس، متأثرا بهذا الجو الذي يميل إلى الزرقة الفاتحة، كتأثير التنويم المغناطيسي على شخص من الأشخاص فلم أهتم بالبرودة التي كانت تملأ المكان.. لا شئ.. إنني أشعر بالوحدة.

واخيرا هبت عاصفة كانت تنذر من قبل، وزمجرت الريح شديدة عاتية في كل مكان، وملأ السماء قصف الرعد، وهطلت الأمطار.

واشتد سقوط المطر شيئا فشيئا، والريح تهب، وحجبت القمر كثافة السحب واتشح كل شئ من حولي بظلام دامس.

واهتز مئزر المدفأة، ثم توقف، وكما لم أعرف لماذا استيقظت، ولمَ جئت، بقيت في هذه الظلمة الحالكة، طيلة الليل، والكون يبدو لي كأنه حائط عظيم يحجب عني نور الدنيا.

صدرت ضوضاء خفيفة من الحجرة المجاورة السابحة في الظلمة الحالكة وحدثتني نفسي أن هذه الضوضاء صادرة عن العاصفة التي هبت.. لا.. فهناك دمدمة، دمدمة قريبة جدا ووقع أقدام.

وأخيرا، ها هي الحياة قد دبت في الحجرة! وها هي حواسي لم تخدعني، ومن شدة فرحتي أخذت أقبل السرير بشدة.

وبذلت عيناي جهدا شاقا حتى تريا، ولكن الظلام حال بيني وبين ذلك، ولكني تمكنت بعد مشقة، في أعماق هذا الظلام الحالك من أن أتحقق من النافذة، ولست على يقين أن كانت هي، أم أن حواسي قد خدعتني!؟

وتناهت الضوضاء ثانية إلى أذني أكثر وضوحا عن ذي قبل. هناك خطوات، نعم خطوات، ووقع أقدام... وصوت صادر عن ارتطام أشياء، وأصوات متقطعة غير مفهومة تقطع هذا السكون الذي يفرض نفسه علىّ.

ومرت لحظة، وتطرق الشك إلى نفسي، وتساءلت.. ربما تكون إرهاصات وتهيؤات صادرة عن خفقان قلبي؟ ولكن وصلت إلى أذني نبرات صوت آدمي... كم هي خافتة هذه النبرات! وعلى وتيرة واحدة! كأنها تنشد لحنا ربانيا أو قصيدة شعرية... وحبست أنفاسي علّى أتمكن من تمييز هذه الأصوات، والحياة التي دبت في الغرفة.

لقد ازدوج الصوت...! صوتان متجاوبان تشوبهما رنة حزينة، حالهما كحال الأصوات التي تنساب خافتة في نغمات يملؤها الشجن.. لا شك أني أمام عاشقين جديدين، يلجآن إلى هذه الغرفة الحالية لفترة من الوقت.. إذن فهناك مخلوقان، يجذب أحدهما الآخر، تضمها هذه الغرفة التي يكتنفها الظلام، وتجمعهما الخلوة، وتنتظرهما الهوة المجهولة، ولا يوجد ما يساعد على رؤيتها بوضوح، ورغما عن ذلك فقد شعرت بحركاتهما، كما أشعر بحركات قلبي بين أضلعي.

وتحول كل انتباهي إلى هذين الجسدين، ولكن دون جدوى، فقد أعماني الليل، وعاقني عن الرؤية.

وبعد لحظة خيل إليّ أني أرى شبحا، شبح حالك السواد، يظهر أمام النافذة

وكأن الليل والظلمة الحالكة ثابتان لا يتحركان! أين هما؟ أين كانا؟ ماذا يفعلان؟

وأخيرا، انفجرت دياجير الظلام ببنت شفة، نطق بها آدمي، هذه الكلمة هي: "مرة أخرى!".

"مرة أخرى"، أرشدتني هذه العبارة إليهما، فهذه العبارة لا ينطق بها إلا لحمهما! ويبدو وجهاهما عاريين بعيدين عن الظلام.

ومن بين الهمسات التي تبادلانها والتي تمتزج بشئ من المقاومة نبعت عبارة أخرى من صوت تغمر نبراته السعادة: "واذا عرفوا! واذا علم أحد!" وتكررت هذه العبارة إلى أن تلاشت، وحلت محلها ضحكة عالية رنانة، وصوت آخر استطعت أن أميزه، صوت صادر عن قُبلة، بزغت من أعماق الظلال الكثيفة التي تسبح فيها الغرفة.

وظهر فجأة وميض خاطف أضاء الحجرة بنور أصفر ثم أختفى، وعاد الظلام ثانية، وعلى نور هذا الوميض استطاعت نظراتي أن تغزو الغرفة، ومع ذلك لم يقع نظري عليهما، فربما لجئا إلى أحد أركان الغرفة أو أن الظلام قد ابتلعهما في جعبته.

ولم ينقطعا عن ترديد هذه العبارة: " واذا عرف أحد! اذا عرف أحد!" ولم يفطنا إلى النور الذي ومض واختفى.

لماذا انتابهما مثل هذا الخوف؟! وما الذي يدعو إليه؟ ولمَ يريدان الانفراد ببعضهما؟! أليطلقا مثل هذه الصيحة التي تشبه إلى حد ما صيحة استغاثة؟ هل يستتران عن الأعين ليرتكبا إحدى الرذائل الممقوتة؟

آه... يالها من طعنة حادة تلقيتها في قلبي! إن الصوتين يتشابهان تمام الشبه! آه.. لقد فهمت، انني أمام امرأتين تعشق كل منهما الأخرى، وقد جاءتا إلى هذه الغرفة المظلمة لممارسة شذوذهما.

أذكر أنني لم أعتمد مطلقا طوال حياتي على الليل مثل هؤلاء العشاق الهاجعين على فراش من الظلام.

وأحسست أن هناك رجفة مبهمة تستولي عليهما، فقد همس أحد الصوتين: "ان الله يرانا! الله يرانا!" هما أيضا في حاجة إلى أن يراهما الله!؟ هل ليزين لهما ما هما فيه وهما آسفتين تطلبان منه العون؟!

وتسرب الشك إلى نفسي، إنهما امرأتان، ولكن يخيل الي أن الصوت الذي أسمعه صوت ذكر، لا صوت أنثى، وأخذت أقارن بينهما وبين نغماتهما وحاولت أن أتخلص من هذا الظلام.

ثم سمعت، وبوضوح، التوسلات التي بدأت تلوح وتظهر، تسابق الكلمات بعضها بعضا، خافتة هادئة، تعتصرها شفاه تبللها القبلات الدامية.

"أتريدين، هل ترغبين؟": ويحتل هذا السؤال مكانة هامة عند الفم الذي ينطق به، سؤال من انسان يهب نفسه وهو متوتر فاغرا فاه.

وأجاب صوت قوي كضربات جناح طائر:

- نعم.

وتمتم الصوت الآخر:

- آه!.

إن السؤال الذي يدور في خلدي ويحيرني: من أي نوع هذا الثنائي؟ وعلى أي شكل؟ وأي صيغة من صيغ الحب هذه؟ ما هي وسيلتهما ليمارسا حبهما؟!.. ونفضت عن نفسي هذا القلق وتلك الريبة، ورأيت أني أمام أكبر مأساة للحب.

ولكن هناك حقيقة واحدة هي أنهما متحابتان، سواء حلت عليهما البركة أو اللعنة وسواء كانتا في حالة طبيعية أو شاذة، وكل منهما تمتلك الآخرى! ولا أهمية لغير ذلك.

تلتقيان في الظلام هربا من عيون الدخلاء، كأنهما تلتفان في ملاءات تشبه الأكفان، لقد حكمتا على نفسيهما بالسجن وتصبان جام غضبهما على الأيام وتهربان منها عقابا للشرف والأمانة.

"ماذا لو عرف أحد؟" إنهما تكرران هذه العبارة كلما صدرت عنهما صيحات مكتومة، أو بكاء أو ضحكات. تتفاخران بتوحدهما فتارة تمجدانه وأخرى تدللانه، ولا تلويان على شئ مما حولهما، فليس للقانون أو الطبيعة، أو التضحيات أو العدم من حساب عندهما.

وتحاولان جاهدتين أن تمتزجا ببعضهما، وارتطمت الجبهتان العاجيبتان، وكل مشغولة بجسدها، تعبث يداهما وتتحس رغبة في إيقاظ الشهوة النائمة في ثغريهما المطبقين على بعضهما، وفي قلبيهما البكماويين الأعميين.

أن العشاق جميعهم يتشابهون، فبمحض الصداقة، يعجب كل منهما بالآخر، وتلعب قسمات وجوههم دورا هاما في هذا الاعجاب، وتتسبب في ارتباط كل منهم بالآخر ثم بعد اختيار شره، شراهة تبلغ حد الجنون، يغيرون وجه الحقيقة، فيجعلون الحقيقة باطلا والباطل حقيقة.

وفي هذه الأثناء تطرق إلى أذني همس ممزق:

- أنت لي، أنت لي، انني امتلكك وآخذك لي..

- نعم، انني لك..

ها هو الحب على قيد أنملة، يرسل لهاثه إلى وجهي في غدوته ورواحه، وكذلك أنفاس الحياة الحارة، هذه الأنفاس واللهثات هي التي تقوم باتمام عملية الحب وجنونه.

وبدا الحديث مرة ثانية رقيقا حلوا، وأكثر هدوءا، وأنصت إليه جيدا كما لو كان موجها إليّ، بدا هذا الحديث بعبارة حالمة مرتعشة: "انني أبغض النهار، ولكني أحب الليل".

وبدت عليهما أمارات التفكير المشتت، وأصابهما الوجوم، كمن ارتوى وأشبع رغبته فأحيانا أجد معنى لكلماتهما وأحيانا أخرى لا أجد لها معنى، وقد تقارب فوهيهما.

- ففي النهار، يشعر الانسان بالتيه والفرقة، بينما الليل هو الوئام التام.

وأجاب الصوت الآخر:

- آه، كم أتوق إلى محبة النهار!

- ربما.. ربما يتحقق ذلك مستقبلا.

وكانت الكلمات ترن رنينا طويلا ولها صدى بعيد. ثم استطرد الصوت قائلا:

- قريبا.

- يا الهي!

- قالها الصوت الآخر مختلجا باختلاجة أقل. واستمعت إلى شكواهما كسائر الشكاوي التي تنتشر في موضوعاتها.

وقالت المرأة كأنها تئن:

- أنا.. أنا التي كانت ترنو دائما إلى حياة مشرقة!

وتبادلتا بعض العبارات لم أسمعها جيدا، من بدايتها، ولم أتمكن من ربطها ببعضها، تحدثتا عن مروج خضراء تسطع عليها الشمس، وبساتين ذات حشائش خضراء قاتمة، وممرات ذهبية كبيرة، وأحواض زهور تخطف الأبصار فإذا ما وقعت عليها الشمس بأشعتها الذهبية لا يستطيع المرء أن ينظر إليها.

واستضاءتا بهذه الظلال، تفكران في النهار الذي أصبح لهما، فكانتا تشبهان الصيف في تباشيره، والسماء في زرقتها الباهتة.

وتحدثتا أيضا عن الشمس، ثم بدأ الصوت يخبو شيئا فشيئا حتى خبا تماما، وبعد فترة صمت طويلة ورهيبة سمعت "آه لو تعرفي كم يضفي الحب عليك من بهاء، وتضئ الابتسامة وجهك!" وبعد ذلك توارى كل شئ ولم تبق سوى هذه الابتسامة.

ثم انتقلتا بعد ذلك إلى الحديث، صورتا ألوانا من حياتهما، دون أدنى تغيير في أنوارها وتجاذبتا الحديث عن صالونات ومرايا ومصابيح تطوقها الزهور وعن أعياد احتفلتا بها في زوارق تنزلق على سطح المياه الهادئة في ظلمة

الليل، تتطاير البالونات الملونة فوقها: زرقاء وخضراء وحمراء فكانت تبدو مظلة تستظل بها سيدة في أحد البساتين من حرارة الشمس.

وخيم السكون مرة أخرى. ارتفع أحد الصوتين في نبرة يملؤها الرجاء والتوسل تعبر عن مدى الضيق ومدى الحاجة إلى تحقيق الحلم إلى درجة الجنون:

- إن الحمى أصابتني، ويخيل الي أنني أحمل الشمس على راحتي.

ومر الوقت سريعا.

- أتبكين! خدك مبلل كفمك.

فقالت إحدى المبتهلتين:

- اننا لا نحلم بمثل هذا مطلقا، ولا بهذا النور الذي لا نراه في الأحلام عندما نكون معا رغما عن وجودنا في الظلام.

وصاحت الأخرى:

- سنراه في يوم من الأيام، وهذا الحزن سوف ينتهي.

وأضاف الصوت الآخر مستطردا:

- هذا النور متوفرا لدينا، وأنتِ ترينه جيدا!.

ثم قالتا في مرارة وندم لا يعرفهما أحد:

- آه! لو علم أحد! ستأكله الغيرة منا، حتى الأشقياء منهم والسعداء.

ثم عادتا إلى قولهما: "الله يرانا".

إن أهل الظلام والليل يحلمون دائما بأن الله يراهم ويعرف خباياهم، ويلمس تصرفاتهم بنور من عنده، ونفوسهم المطوقة التي تعيش بطريقة يصعب على المرء إدراكها.

ثم سمعت هذه الكلمة "دائما".

وأخمن أن هاتين المخلوقتين المراهقتين اللتين لا تُكرهان على شئ متحدتين تحت الفراش إلى جوار بعضهما البعض، كأشباح الموتى: "دائما"! هذه الكلمة العجيبة لا تفارق ثغريهما وتفوق قوة البشر.

وكما تتشابه القلوب، يتشابه الفكر الانساني، فنجده ملئ بالغموض والابهام، ونجد الدماء قاتمة كسواد الليل، والليل شبيه بالرغبة.

فالعاشقتان تتوق كل منهما للأخرى، وكأن كل منهما تدافع عن نفسها، وتقولان: "أحبك"، وتنتظران، ثم تبكيان، وتتألمان، وتقولان أيضا: "إننا سعيدتان!".

وابتعدتا عن بعضهما، مسترخيتان، منهوكتا القوى، والكلمة المعهودة لا تفارقهما" دائما!".

وقد ذكرتني حالتهما تلك، بقصة "بروميثيوس" إله النار في الأساطير الاغريقية، (وبروميثيوس هذا له قصة، فهو إله النار،ابن "يابتوس " و" ثيميس" وشقيق "أطلس" و" إيبيميثيوس "وهو مؤسس الحضارة الانسانية، بعد أن صنع الانسان من طمي الأرض وحتى تبعث فيه الحياة، فقد سرق نار السماء (الشمس)، وغضب "جوبيتير" وأراد أن يعاقبه على فعلته هذه، فأرسل إليه "باندورا" وهي "حواء" عند اليونانيين صاحبة "صندوق الآلام" ولكن "بروميثيوس " أحبط المؤامرة المدبرة. وأخيرا قام "فولكان" بصلب "بروميثيوس" بالمسامير – طوعا لأمر "جوبيتير"- على جبال القوقاز، وسلط عليه نسرا هائلا – يقال في رواية أخرى أن مناقره وجوارحه من المعدن- وكان هذا الطائر ينهش كبده وكلما انتهى، تجدد غيره إلى أن أنقذه "هرقل" بأن صوب سهما من سهام جعبته إلى قلب النسر، فأراده قتيلا، وأنقذ "بروميثيوس" ليساعده في الحصول على التفاحات الذهبية).

كنت أبحث عنهما بعيني، وأستمع إلى أنفاسهما، وكم كنت أتوق إلى رؤيتهما في هذه اللحظة! فرغبتي الجامحة في رؤيتهما لا تقل قوة عن رغبتي في الحياة... أتوق إلى اكتشاف هذه الحركات، ومعرفة هذه الثورة العارمة التي تجتاح نفسيهما وتلك الجنة التي تسكنانها، وهذه الوجوه التي تعبق رائحتها الغرفة.

ومع هذا، لم أتمكن من الوصول إلى الحقيقة. كنت أرى النافذة من بعيد

غير واضحة، غامضة كطريق أبيض وطويل يمتد في السماء، تحفة النجوم وسط هذا الظلام الدامس الذي يغمر الحجرة.

وخفق صوتاهما إلا همسات لم أفهم منها هل هي صادرة عن رضا، أم عن شكوى تنتزعانها من بين الشفاه.

ثم تلاشى هذا الهمس أيضا، فهل هجعت كل منهما بعيدا عن الأخرى؟ أو ربما رحلتا بكنزيهما الثمين إلى مكان آخر؟

أما العاصفة التي خيل إليّ انها هدأت، فقد بدأت من جديد واستمرت.

قاومت الظلمة الحالكة، ولكنها كانت أقوى وأعظم مني، إلى درجة إنها وارتني واخفقتني، وهجعت إلى فراشي مكسور القلب، وبقيت في هذا الهدوء المظلم، واتكأت على مرفقي ثم تلوت الصلاة، ووجدت نفسي دون شعور أتهته بهذه الكلمة "التضحية".

التضحية..!.. لمَ هذه الصرخة، صرخة أمل مفزع، صرخة شقاء، صرخة عذاب وخوف تتصاعد مني، من أحشائي، إلى شفتي؟!

هكذا دائما تعترف المخلوقات، مهما تكن العبارات التي يتفوهون بها، ومثال ذلك هؤلاء الذين شاهدتهم وشاهدت مصيرهم بعيني، وسمعتهم وهم يصرخون هذه الصرخة من أعماقهم.

وخلال الأيام التي كنت أنتظر لأتسمع، ولأرى، كان هذا ما سمعته ورأيته.

هذا هو النداء الذي يخرج من الظلمة إلى النور، باحثا عن الحقيقة الخافية، وكما يرتفع من كل ناحية، يسقط أيضا في كل اتجاه، هذا هو النداء الذي تملؤه الانسانية يقع على أذني جهوريا رنانا.

أما أنا، فلست أدري ماذا أكون أو إلى أين أذهب؟ وماذا أفعل، وصرخت أنا أيضا، صرخت من أعماقي طالبا قليلا من نور الحقيقة.

*****

- 7 -

وفي صبيحة اليوم التالي، كانت الغرفة منداة بندى الصباح، وكانت "إيميه" مع زوجها قد وصلا لتوهما من السفر. لم أشعر بهما عندما دخلا الغرفة! فقد كنت مجهدا.

كان زوجها جالسا على أحد المقاعد، وقبعته على رأسه إلى جوار الفرش غير المنظم، ولكني تمكنت من تمييز ظل محدد لجسد أو جسدين؟

أما هي فقد كانت ترتدي ملابسها، واختفت فجأة خلف باب الحمام وتطلعت إلى الزوج وكان يتسم بقسمات وجه تعلوها صفة النبل.

فخطوط جبهته واضحة غاية في الوضوح، أما شاربه وفمه فيميلان إلى السوقية قليلا، وتبدو عليه أمارات الصحة والقوة وهي أمارات لا تتوافر في عاشق، ويده التي تداعب العصا يد دقيقة، فهو بشكل عام يتمتع برشاقة فائقة.

ها هو إذن الرجل الذي تخدعه وتكرهه، وها هي القسمات التي تراها- هي- مبتذلة، وتسبب تعاستها.

ظهرتْ فجأة، واستطعت أن أراها، فتوقف قلبي، ثم عانقني، ثم عاد فجذبني إليها.. وهي شبه عارية ترتدي قميصا شفافا، قصيرا وخفيفا، يكشف عن ثدييها ويلتف حول جسدها مفتتنا به، لقد عادت من الحمام وهي محملة بعدة أشياء. فرشاة الأسنان والمعجون، وفمها المبتل، وشعرها المبعثر على كتفيها، وتمتاز ساقاها بالرقة والجمال قدماها الصغيرتان منتصبتين على كعبيها الدقيقين.

الغرفة تبدو في هذه الساعات الأولى من الصباح مقلوبة رأسا على عقب،

مختلطة بالروائح التي تتزين بها السيدة من ماء كولونيا، وبودرة وصابون.

واختفت المرأة ثانية، وعادت مرطبة مغتسلة بالصابون ومنتعشة وقد اصطبغ وجهها باللون الوردي، وتجفف ما علق بوجهها من قطرات الماء.

أما هو، فكان يتحدث وهو مادا ساقيه قليلا، ويشرح لها أحد مشاريعه، تارة ينظر إليها، وأخرى يشيح عنها بوجهه.

خاطبها قائلا:

- هل تعرفين عائلة برنارد؟ لم توافق على عملية المحطة..

في هذه المرة كان يتابعها بنظراته أثناء حديثه إليها ثم انتقل بنظراته إلى مكان آخر، وعيناه تجوب أرضية الغرفة، وأحدث بلسانه "فرقعة" تنم عن خيبة أمل لفكرة راودته.

فبينما كان يتحدث، كانت هي تروح وتجئ في الغرفة، تهتز، وتبرز منحنى فخذيها تحت قميصها الخفيف وبطنها الضامرة، والظلال الكثيفة القابعة أسفل بطنها.

ارتعشت أشداقي أمام هذا المنظر المثير، ورنا لحمي إلى هذه المرأة شبه العارية، تلك المرأة الفاتنة المثيرة ذات الملابس الشفافة، والتي ينبعث منها العطر ذو الرائحة الأخاذة.

وسمعت أيضا صدى العبارة التافهة التي يرددها الزوج، هذه العبارة التي تضايقها وهي تسمعها في هذه الغرفة التي تحتضن عريها.

وشرعت ترتدي الكورسية وحمالة الجوارب، والسروال والجونلة، هذا والرجل لا يزال مستمرا في بلاهته وعدم اكتراثه كأنه حيوان.

ثم جلست أمام مرآة المدفأة، ومعها مجموعة من العلب وأشياء أخرى، ولم تكن المرآة -دون شك- مناسبة لما تريد أن تفعله.

وأثناء زينتها كانت تتكلم وتثرثر سعيدة مسرورة، مبتهجة تشع حيوية ونشاطا، ذلك لأننا في ربيع اليوم.

وبالغت في العناية بنفسها، واستغرقت ساعات طويلة في هندامها، ولكنها

ساعات لها قيمتها، وبالرغم من هذا الموقف الطويل الذي استغرقته، فهي تسرع في زينتها؟ وشرعت تفتح دولاب الملابس وأخرجت منه فستانا خفيفا ورقيقا حملته بين يديها كأنها تحمل أفراخ طائر حديثة الفقس.

وعندما همت بارتداء الثوب، طرأت عليها فكرة أخرى وتوقفت ثم قالت: "لا لا بكل تأكيد"، وبعد ذلك خلعت الثوب، وبحثت عن غيره، جونلة داكنة وبلوزة وتناولت قبعة، وفردت شريطها قليلا ووضعت وردة لتزين بها القبعة، ولتضفي على وجهها بهجة وجمالا ووقفت أمام المرآة، ثم ترنمت ببعض الألحان! فهي راضية إذن، وقانعة.

أما هو، فلا ينظر إليها، واذا نظر إليها فهو لا يراها، آه كم يهيبني هذا. إنها مأساة عابسة، وأكثر من هذا فهي تبعث الحزن في النفس.

هذا الرجل غير سعيد، ولكنه في نظري سعيد ويُحسَد على سعادته.

خبرني بربك، كيف تفسر ذلك، الا أن السعادة تكمن داخلنا، وكلنا نشعر بها، ومع ذلك فالمرء غير قانع؟

حقيقة أن هذين المخلوقين يعيشان مع بعضهما، ولكن كل منهما بعيد عن الآخر ويحول بينهما الفراق دون فرقة! وطالما أن الحب بينهما فاتر، فلن يقرب بينهما شئ وسيظلا فريسة لدسائس العدم!

فمن أشنع الصفات على وجه الأرض، الغباء، الغباء وعدم الادراك. أما الكراهية الظاهرة بين اثنين فهي أقل سوءا من أن يعيشا معا دون حب، كأن يحلو القول مثلا بأن الموت أكثر وطأة من الألم.

إن قلبي ليشفق على أنواع ثلاثة من المحبين: الذين يعيشون جنبا إلى جنب لا يشعر كل منهم بالآخر، والقلب المسكين الذي لا يدوم له حال، وهؤلاء الذين من خلق الله لهم قلبا لا يحبون به.

وخلال لحظة، أمام هذا المشهد البسيط الممزق كنت أقاسي من الآلام مثلما ذاق شهيد ألوانا من العذاب.

بعد أن انتهت من ارتداء ملابسها، ارتدت جاكت بلون الجونلة، شفافة من أعلى ولونها يتناسب جسدها، ثم تركتنا وانصرفت.

أما هو فقد أصلح هندامه استعدادا للنزول. ولكن الباب فتح من جديد، هل عادت؟.. لا إنها الخادمة، وعندما رأته همت بالعودة قائلة: لقد جئت لترتيب الغرفة، ولكني يا سيدي أخشى أن..

فقاطعها قائلا: يمكنك البقاء.

وبعد ذلك أخذت تجمع بعض الأشياء المبعثرة، وأغلقت أدراجا كانت مفتوحة، ورفع رأسه مسترقا النظر إليها ثم نهض من جلسته، واقترب منها كأنه مأخوذ بها، فألقت بالفرشاة والفستان التي كانت تحملهما، واحتضنها من الخلف، وطوقها بذراعيه، ويداه على ثدييها تعتصرهما.

- آه.. ما هذا؟ لا لا ما هذا الذي تفعله؟.

وهو صامت لا يجيب، وصعدت الدماء إلى وجهه وعينيه المحدقتين كأنه أعمى لا يرى شيئا، ثم أفلتت منه صيحة مكتومة انخرس لسانه، وشل تفكيره، ولم يكن هناك سوى جسده هو الذي يذكر ويتكلم، حابسا أنفاسه، ويخرج من بين شفتيه المضطرمتين وصرير أسنانه صوت آلة، لقد تعلق بهذا اللحم، كأنه فريسة ينشب أظافره فيها، ويلصق بطنه بظهرها، كنوع من القرود أو الأسود.

وأطلقت ضحكة من وجهها الأحمر المحتقن بالدماء، وانسدل شعرها على جبهتها، وانغمست أصابعه في ثدييها الممتلئتين تعتصرهما.

وحاول أن يخلع عنها جونلتها أو يرفعها، ولكنها ضمت ساقيها، وضعت يديها على فخذيها لتثبت الجونلة، ولم تنجح، انحسرت عنها الجونلة وكشفت عن ساقيها المستديرتين الممتلئتين، وقد سُدل عليهما الجورب حتى وصل إلى حذائها، كما ظهر طرف قميصها، ولم يشعرا. وطأ فستان "ايميه" الذي سقط من يدها على الأرض.

ولما وجدتْ أن الوقت قد طال قالت له: "آه.. كفى يا صغيري كفى!" وهو صامت لا يجيب، وألصق أنفه برقبتها، والرغبة تبدو واضحة في فمه الذي يشبه فم الحيوانات ونهرته: "..لا، كفى، أخرس، ألا تسمع ما أقوله لك!".

انتهى، وأرخى يديه عنها وابتعد ضاحكا، ضحكة خجل وحياء، يشعر كأن الأرض تميد تحت قدميه من تصرفه هذا، ونتيجة لما يعتمل في نفسه.

أن ماء الحياة يغلي في داخله. ويبحث عن مخرج له فإن لم يخرج منه ما يضايقه ويلازمه، فسوف يصعد إلى رأسه كلبن الأم.

ولكن ليست هذه فقط الغريزة الجسيمة، فمنذ بضع دقائق كانت أمامه المرأة اللطيفة، الفاتنة الساحرة، ولكنه لم يتمناها، لم يكن يريدها لا بجسده، ولا بعينيه، عيناه اللتان لمعتا بمجرد أن رأى هذه الفتاة، فينوس الكريهة، بشعرها القذر وأظافرها الطينية.

هذا، لأنها فتاة أخرى غير التي يعرفها ويعاشرها، إنها الفطرة هي التي تبعث على هذا التصرف.. التطلع إلى ما هو محرم، واشتهاء ما هو للغير؟ فكرة أزلية تلازم الإنسان منذ خروجه إلى الدنيا حتى خروجه منها.

وهذه فكرة قديمة، تجعل من الرجل أمام المرأة التي لا يعرفها، وحش يتربص بها بعد انتظار مضني، بنظرات حادة كأنها مخالب، وعناد ومكابرة، كأنه يريد أن يفتك بها، ليبقى هو.

وفهمت أنا الذي أشاهد هذه الأزمات الإنسانية التي تحررت من قيودها، أن الوجود لا فائدة منه، وأن هناك أشياء كثيرة من التي نحسبها لا تتوافر فينا، موجودة بداخلنا، وهنا يتجلى السر، وكم يسدل الستار وتتجلى البساطة والسهولة كما كانت تظهر.

جاءت ساعة الغذاء، وكانت فرصة لي كي أفحص الوجوه واتفرس فيها لأعثر على الحبيبتين اللتين كانتا تتبادلان الغرام في الليلة الماضية.

ونظرت إلى الوجوه متسائلا، أفحصها كل وجهين على حدة عساي أجد

نقطة تشابه تدلني وترشدني، ولكن للأسف لم أستدل على شئ.

لم أتمكن من التعرف عليهما لأن الموقف لا يقل عن حالهما عندما كانا سابحين في بحر من الظلام. توجد هنا خمس فتيات أو سيدات، وعلى الأقل لابد أن أحداهن تحتفظ بالذكرى المتأججة سجينة في جسدها، ولكن هناك إرادة أقوى مني قد أغلقت الطريق أمامي، وداهمني العدم من جديد، وانصرفن واحدة أثر الأخرى.

وانقبضت يداي على لاشئ، واعتصرت بين أناملي الشك اللا محدود، ووجهي شاخص هناك، لا لشئ ولا في شئ، بل في كل شئ ولكل شئ!

كانت بالقرب مني سيدة عرفت فيها "إيميه" تتحدث إلى مديرة البنسيون إلى جوار نافذة، ولم ألمحها في البداية بسبب المدعوين الذين يفصلون بيننا، وكانت تأكل بعض حبات العنب، وتتحرك بحساب.

وعرفت اسمها، مدام "مونتجيو" ولست أدري لماذا أرى هذا الاسم شاذا لا يناسبها، فكثيرا ما يثيرني التصنع وتثير فيّ الكلمات والاشارات. انتهى الطعام، وانصرف جميع المدعوين تقريبا، وتركوا فناجين القهوة وأقداح الشراب الصغيرة تتناثر على المنضدة يتسلل خلالها شعاع من الشمس جعلها تضوي وتبرق.

أشركت نفسي في الحديث مع مدام "لومرسييه" ومع " إيميه "، وبعد أن كنت أرى نظراتها بصعوبة، أصبحت الآن واضحة أمامي، وأثناء الحديث جاء الخادم وأسرّ بحديث إلى مدام "لومرسييه" التي اعتذرت لنا واستأذنت منا على إثره، وأصبحت أنا بجانب "إيميه"، كما كنت قريبا منها منذ ساعة ولم يكن في الردهة سوى شخصين أو ثلاثة يناقشون مواعيد المساء.

لا أعرف ماذا أقول لها؟ فالحديث بيني وبينها قد فتر، ولابد لها من أن تتظاهر بعدم الاهتمام بي، تلك السيدة التي أرى قلبها، وأعرف مصيرها الذي يعلمه الله، امتدت يدها إلى صحيفة على منضدة بالقرب منها وتناولتها

وقرأت فيها قليلا ثم نحتها جانبا ونهضت وانصرفت بدورها.

وبقيت أنا بمفردي، فأتكأت على مرفقي واسندت رأسي على يدي، أفكر في أمور الدنيا المبتذلة التي تغم المرء، أفكر في نفسي، وأتساءل عما إذا كنت سعيدا أم بائسا؟ وأفكر فيما هو حقيقة، وما هو وراء الحقيقة؟ وشعرت بالنعاس. وفي هدوء لمست حقيقة الأمور ولكن بعد فهم ثقيل، وجلت بنظري فيما حولي، أتأمل كل شئ هادئ وبسيط. وبعد ذلك أغلقت عيني، وقلت في نفسي- كمن وقع عليه الاختيار ويعمل حسابا لهذا الاختيار- فأما اللا محدود، فهو حقيقة لا أستطيع الشك فيها، وهذا الاثبات يفرض نفسه عليّ ولا وجود لأشياء غامضة، ولا أشياء خارقة للعادة، فاللا محدود يوجد في كل مكان، يوجد في الحقيقة كما يوجد في البساطة والسلام، وهنا بين هذه الحوائط الراسخة بكل قواها.

فالطبيعة وما وراء الطبيعة شئ واحد، فلا وجود لأسرار في الحياة كالتي توجد في السماء. فأنا الذي لا أختلف عن غيري، قد ملأني اللا محدود ولكن كل هذا يبدو أمام عيني مختلطا متداخلا.وأفكر في نفسي، نفسي التي لا أستطيع أن أعرفها حق المعرفة، وكذلك لا يمكنني التخلص منها، نفسي التي تشبه ظلا ثقيلا بين قلبي وبين الشمس.

*****

- 8 -

عدت إلى غرفتي بجوار "إيميه" وحبيبها تحوطهما ذات الظلال دون تغيير في شئ من محتويات الغرفة منذ رأيتها لآخر مرة، يجلس كل منهما بجوار الآخر، يتجاذبان أطراف الحديث.

كانت هي جالسة خلفه على الكنبة تخفيها الظلال، ظل الليل، وظل الرجل، أما هو فكان شاحبا، يضع يديه على ركبتيه منحنيا إلى الأمام في فراغة الشاسع.

كان الليل يكسو الحجرة بجو رمادي حريري الملمس، وبعد قليل، سينضو الليل هذا الثوب الحريري عن نفسه ويصبح عاريا ويبزغ النهار بنوره الذي يقضيانه وسيكون بمثابة مرض لهما لا يعرفان متى سيبرءان منه؟ ويبدو عليهما التوجس، ويتأهبان ليدفعاه بعيدا عنهما، ويتخذان حيطتهما في الحديث والأفكار، ويسرعان في حديثهما دون حاجة إلى هذا التسرع، ويتحدثان حديثا لا معنى له. وكان يصل إلى أذني حديثهما عن أشخاص وأسماء لأماكن وعن محطة ونزهة، وبائع زهور.

وفجأة توقفت عن الحديث، وخيل إليّ انها تخفي وجهها بين يديها، ثم اقترب هو منها وأخذ يديها بين يديه، كأنه معتاد على هذه الحالات، حدثها حديثا لا معنى له، لأنه لم يكن يعرف ما يقول، واقترب منها بقدر ما يستطيع وهمس إليها قائلا: "لم تبكين؟ خبريني، لم تبكين؟"

صمتت ولم تجب، ثم سحبت يديها من يديه ورفعت عينيها إليه، وقالت: "لماذا؟ هل أعرف أنا لماذا؟ أليست للدموع عبارات لها معناها؟

كم يشدني إليها هذا وأنا أراها تبكي والدموع تنهمر على خديها، إنسان

عاقل يبكي. مخلوقة ضعيفة، غاية الضعف، محطمة في بكائها، تبعث في النفس الشعور الذي تحسه عندما تبتهل إذ تتضرع إلى الله وعظمته، لأنها بضعفها هذا وانهيارها، إنما تسمو على كل القوى الانسانية.

تملكني شعور بالاعجاب أمام وجه المرأة، هذا الوجه الذي لا تنضب دموعه، هذا الوجه الذي يجمع بين الحقيقة والإخلاص.

توقفتْ عن البكاء، ورفعت رأسها دون أن يسألها هذه المرة، وقالت:

- إنني أبكي، وسبب بكائي هو وحدتي، أن المرء لا يستطيع أن يهرب من نفسه، كما لا يمكنه أن يصرح بشئ، إنني وحيدة، وكل شئ يمضي، ويتغير، ويولي الإدبار، وفي اللحظة التي يفقد فيها المرء كل شئ يصبح وحيدا.

لقد عشت ساعات مضت أفضل من غيري، وأخيرا ماذا يحول بيني وبين البكاء؟

وفي هذا الحزن الذي تغرق فيه من لحظة إلى أخرى، كانت تحتفظ بكبريائها، وعلى وجهها المكتئب كنت أرى شبه ابتسامة تتحرك ببطء.

واستطردت:

- كم من أمور تمر أمام الناس دون أن تلقي منهم أدنى اهتمام، بينما يكون وقعها في نفسي عظيم الأثر، وفي لحظات يقظتي، أنظر حولي فلا أجد سوى نفسي، وحيدة، وحيدة، وحيدة.

فلما رأى هذا الحزن الغزير الذي يتدفق منها، حاول أن يخفف عنها قائلا:

- لا يمكن للانسان أن يقول ذلك، ونحن، الذين نصنع مصيرنا.. وأنتِ، أنتِ التي اكتملت إرادتك.

ولكن هذه العبارات كان وقعها عليها كالعصف المذرور. فأجابته قائلة:

- هيهات، فبالرغم مما بذلته فأنا وحيدة لا يمكني أن أغير حقيقة الأشياء، مع أن هذه الكلمة ربما كانت حلوة.. وبالفضيلة تتحقق السعادة، لا بالرذيلة ولا بالنار المقدسة أو الغريزة، فلن يصل الإنسان

إلى السعادة بأي وسيلة من تلك الوسائل التي لها صلة بالبشر.

وتوقفت كأنها تشعر بقدرها فوق رأسها، وقالت:

- نعم، أعرف انني ارتكبت أثما، و لن يسامحني من يحبني اذا ما عرف حقيقتي، وستشقى أمي إذا علمت شيئا من أمرى. أنا على يقين أيضا أن حبنا منبوذ من الجميع، من كل عاقل وكل محب للحقيقة، كما تنبذه أيضا دموع أمي.ولكن هذا الخجل لن يفيد في شئ، وستشفق أمي على سعادتي اذا عرفت حقيقة أمري.

وقال بصوت منخفض في شبه تمتمة: "انك لشريرة".

ولاقت هذه العبارة وقعا غير ذي بال، وداعبت وجه الرجل بيدها وقالت له بلهجة الواثقة من نفسها:

- أنت على يقين من أني لا أستحق هذه الكلمة، كما تعلم جيدا أن حديثي هذا عنا، عن أنفسنا. وأظنك أيضا تلمس جيدا وحدتنا، وتذكر يوم أن كان حالك كحالي اليوم، حزين ومهموم، وكان حديثنا عن لذة الحياة وبهجتها، هل تذكر عندما سألتني عن الدماء التي تتدفق إلى وجهي، هل هي نتيجة لخجلي، أم إنها من المساحيق والأصباغ لتي أتزين بها؟ إن أفكارنا العظيمة، والبسيطة ليست لأحد سوانا وكل شئ لنا وإلينا، وإن كانت هناك إدانة فهي بيننا ولنا فقط. وفي هذا اليوم أيضا قلت لي: "هناك أشياء تخفيها عني ولن تصارحني بها مطلقا" وقلت لي "أن الحب ما هو إلا حفل لوحدتنا"، وبعد أن انتهيت من حديثك دللتني وأخذتني بين أحضانك، وهمست لي "أن حبنا هو أنا".

وحاول أن يتكلم، ولكنها وضعت يدها بدلال على فمه بانسجام مضطرب.

- خذني، خذني، اعتصر أعصابي بين يديك، أو بلحمك. وضع صدري على صدرك، وقبلني قبلة طويلة، حتى تخمد أنفاسنا، ولا نعرف فاهينا. أفعل بي ما شئت، لأكن بجوارك؛ بجوارك. إنني هنا لأتألم فهل تشعر بألمي؟.

ولبث صامتا لا يجيب، ولمحت رأسة من تحت الملاءة التي تغطيهما، يومئ بها إيماءة تدل على عدم الرضا، وأحسست بالبؤس الذي ينبع من هذين المخلوقين اللذين يطويهما الظلام، وفي هذا الظلام لا يعرفان الكذب.

هناك حقيقة واحدة وهي أن كلا منهما وهو مع الآخر لا يجمعهما سوى الفراغ الذي يحسانه. وسمعتهما يتبادلان حديثا عذب العبارات، وألمحهما تارة يتحركان وأخرى يثوران وثالثة يتشاجران ورابعة يتواعدان ولكن الوحدة تذلهما وتخضعهما، ثم بادرته الحديث قائلة:

- كثيرا ما حدثتني أنت بنفسك وبلسانك دون أن أضيف شيئا من عندي. فلنترك الحديث عن الآلام، وعن السعادة حيث يصعب اقتسامهما، فيندر أن نجد شخصين يتبادلان حديثا ذا مغزى واحد، حديث يصعب تغلغل الفكر فيه للفكر ذاته، وأحيانا، ودون مقدمات، يتقرب انسان لآخر،وبدون أسباب أيضا يفترقان، وأحيانا أخرى يقع صدام بين شخصين، ثم يتعاطفان، وكثيرا ما نأتي من التصرفات كالمشاحنة والقتل والتشويه، وفي ظروف أخرى يجد الانسان نفسه وهو يضحك رغما عنه في الوقت الذي يجب عليه أن يبكي، فاذا ما اجتمع اثنان معا يكون الجنون ثالثا لهما.

ولما كنت أنت تتمتع بلباقة ومعرفة، فقد أخبرتني إنه إذا ما اختلى اثنان ببعضهما، أصابهما البكم والعمى، وإذا ما هام عاشقان، ظلا غريبين عن بعضهما كالريح والبحر، واذا ما اعترضت المصلحة الشخصية، أو اختلاف الفكر أو الملل، أو أية رغبة جارفة تنتاب المرء تقوضه وتحول بينه وبين الصفاء، وتجعله يصغي دون أن يسمع، واذا سمع لا يفهم، فعادة، إذا ما اجتمع اثنان كانت الحماقة ثالثة لهما.

وكان يبدو عليه أنه معتاد على هذا النوع من الشكوى الحزينة التي لا تتغير نغمتها، كتوسلات تتكرر مرارا لتحقيق المستحيل، يتصرف معها كأنها طفل صغير مريض، يأخذها بين ذراعيه ويهدهدها ويدللها،

ويعطف عليها ويحنو، ومع ذلك فهو بعيد عنها.

كان مرتبكا، وأما هي فكان جسدها يختلج بشدة وهي مستندة إليه وبالرغم من ذلك كان يشتهيها كما يشتهي الوحش فريسته.

رأيت عينيه تبرقان وهو ينظر إليها، أما هي فحزينة ومطرقة، وهي كل ما يطمع فيه ويرنو إليه، كانت هي شئ بالنسبة إليه، كل شئ يتمناه ويبغيه، أما حديثها فلم يكن ذا بال عنده.

أما أنا، فكنت بمثابة متفرج يشاهد نوعا من المعارك القاسية التي تتمزق لها النفس، فبالرغم من قربهما، يختلف كل منهما عن الآخر، بعيدان لا يسمعان بعضهما، هي، حزينة، تحتفظ بشئ من الكبرياء، وهو، تتأجج الرغبة في نفسه كأنه حيوان، فهما متجاوبان مع بعضهما فيما يفيد كل منهما، ولا يستطيعان الإذعان لأمر الفراق، ويحاولان التغلب على مجرد هذه الفكرة.

ولكنها فهمت رغبته، وأيقنت ما يرمي إليه لحظة شهوته، وتظاهرت بالشكوى وقالت كأنها فتاة صغيرة تدعي المرض: "إنني مريضة..."، ثم نهضت لتوها، ونضت ثوبها وتخلصت من سجنها، وإليه قدمت نفسها. عارية تماما كما ولدتها أمها، مضحية بكل شئ. قلبها وكبريائها.

ومرة أخرى التحمت الأجسام، وبدأت المداعبات والأنغام، ومرة أخرى أيضا رأيت وجهه تملأه الشهوة وتستولى عليه، لا يفكر إلا في نفسه ووجهه المحتقن بالدماء، وعروقه النافرة كأنه على وشك الاختناق، مفتتنا بهذه المرأة بشهوانية، مأخوذا بها، إنه سعيد كل السعادة يحس بها في جسده وعقله، وتنعكس نفسه على مرآة وجهه تشع بالهناء والسرور غارقا فيها من شعر رأسه إلى أخمص قدميه، يهمس إليها بعبارات الحب والسعادة كأنه يباركها.

وبالرغم من انفصالهما عن بعضهما، فهما ملتحمان بجزء صغير من لحمهما، يئنا ويهتزا من فرط اللذة والشهوة كل منهما مفتتن بالآخر، لا يشعران بشئ سوى أنهما يتمتعان.. يا له من انفصال....

وفجأة أفاقا من حلمهما، ضعفاء، ملقيان على الأرض.

ونهضا ثانية مستيقظين من حلمهما العابس، الذي كان يطرحهما أرضا، وأصغيت جيدا لأتبين ما يقوله هامسا كأنه يتنهد: "آه لو كنت أعرف...".

وأعتقد أنهما يستعرضان بذهنيهما الجريمة التي اقترفاها تحت جنح الظلام وهما نائمين على الأرض يزحفان تجاه النافذة التي ينسل منها ضوء شاحب. لم يتشابه ما اقترفاه في الليلتين على التوالي.

حقيقة لم أكن أتوقع أن هذه الأحداث ستشدني إليها وأنها ستمر مرور الأشباح.

فهو، قد اعترته رجفة تغلبت عليه، وقد تجرد من كبريائه، ومن حياته، ولم تكن لديه القوة الكافية ليواجه نفسه بالحقيقة المخجلة.

وتمتم، وهو متخاذل: "انه القدر، وليس في مقدورنا اجتنابه".

فحديثهما هذا يدل على مدى نظرهما إلى الأمور، فهما ينظران إلى أبعد من الشهوة وأبعد مما ارتكباه، فانغماسهما في الجنس لم يحطمهما، ولا دناءتهما أو ندمهما، لا تقززهما أو اشمئزازها، بل ما هو أبعد من ذلك، شعور بالحقيقة المجردة، شعور بالفظاظة، شعور بأقصى درجات العدم، إذا ما لاح لهما في تفكيرهما، أنهما كثيرا ما انغمسا بنفسيهما دون جدوى، فيما يتخذانه مثالا هشا لشهوتهما.

لقد أصبحا يشعران ببداية كل شئ ونهايته، وأن كل شئ يفني ويبكي، وان كل حي سيموت وملاقيا حتفه لا محالة، وأن الروابط الخادعة بينهما ستنتهي حتما في يوم من الأيام.

ويرى صدى الصوت كذكرى لصوت موسيقي عظيمة لا ينتهي "ويصبح المرء وحيدا في الوقت الذي يهرب فيه الجميع من حوله".

وبالرغم من هذا الخيال لم يقتربا بل على العكس فقد ظلت معنوياتهما كما هي: الرجفة والغموض والاندفاع إلى اللا محدود، يتألمان معا، وقوة آلامهما هي التي تفرق بينهما، يا للأسى يا له من تفكك.

وفي صيحة كمن في نزعه الأخير، خرجت وسالت منها عبارات اللوم على الحب قالت:

- وحبنا الكبير العظيم إنني على يقين من أنه سيكون عزائي الوحيد.

وقالت وهي تلقي رأسها إلى الخلف، رافعة عينيها إلى أعلى: "آه.. المرة الأولى". ثم استطردت بعد أن شخصا بأنظارهما كأنهما يريان هذه المرة الأولى. عندما كانت يداهما تتلاقيان من بين الأشياء والمخلوقات:

- إنني متيقنة أن هذا الشعور سيموت يوما ما، وبالرغم من هذه الوعود الخافتة، فلا أريد أن يمر الوقت.. ولكن الوقت يمضي والحب بيننا قد خفت حدته.

ثم صدرت عني ضحكة. واسترسلت في حديثها:

- وليس فقط أنت يا حبيبي الذي سيذهب بل أنا أيضا، في البداية كنت أظن أنك أنت فقط، ولكني فهمت أن قلبي المسكين لا يستطيع الزمن شيئا ضده.

ثم قالت ببطء وهي تنظر إليه:

- وأسفاه ربما أقول لك ذات يوم أنني لا أحبك (مطلقا). يا للأسف بل ربما أقول لك يوما أنني ما أحببتك قط. وهذه هي الحاجة. الزمن الذي ينقضي، ويغيرنا ويفرق بين الأحياء الذين يعيشون معا ولكن هذا لا يعنيني في شئ، فالمرء بالرغم من هذا يعيش، ولكن ما يعنيني هو مرور الزمن فهو يجعلني أفكر في تقدمي في السن وهذا بدوره يدفعني إلى التفكير في الموت. أتتصور، لقد تقدمت بي السنون، وأصبحت مَنيتي قريبة مني، أنا، وحاولت وقتا طويلا أن أدرك هذا، لقد كبرت.. أنني لا أصدق هذا، وتسرب الشيب إلى رأسي، أول شعرة بيضاء يا للمفاجأة.فذات يوم، بينما كنت أهم بالخروج، فاذا بي ألمح شعرتين قد أصابهما الشيب متدليتين على صدغي، فالأمر جد مهم، وهذا هو الانذار الأول.أما هذه المرة، فقد كنت جالسة في أحد أركان الحجرة، استعرض

في مخيلتي وجودي في الحياة منذ البداية إلى النهاية.فرأيت أني كنت أخدع نفسي في كل ابتسامة ترتسم على وجهي، مشيب أنا أيضا؟ ومع ذلك أنا.. نعم أنا.وأصبحت فكرة الموت تحوم حولي، لم أكن أعرفها ولكني لمستها الآن وعلمت أن المسألة الآن أصبحت تتعلق بنا أنا وهو. آه، هل هذا التغيير الذي يطرأ على المرء يسلبه إرادته ويجعله لا حول له ولا قوة، لما يعتريه من تغير في لون الشعر، كشحوب الموتى، ويتخيل الهياكل العظمية على لوحة القبر، حتى ليهرب الانسان منه - ثم صاحت - أغربي عني أيتها التجاعيد. وكنت أحدث نفسي قائلة بكل هدوء ستلحقين به، فجلدك سيفقد غضاضته، ستذبل بطنك وسيذبل ثدياك، وتتداعى عظامك، وملل الحياة سيجعلك تثابرين على الدوام، وسترتجفين من البرد القارس يوما، سيصبح وجهك مخفيا، وحديثك الذي كان عذبا ساحرا ستتخلى عنه عذوبته ويذهب سحره، ويصبح مبغضا، والثوب الذي كان يخفي جسدك من أعين بعض الأزواج المجانين، لن يخفى بعد ذلك عريك البغيض، وتتحول عنك الأنظار ولن يجرؤ أحد على مجرد التفكير فيك.

ثم رفعت يدها فجأة إلى فمها، كمن تريد أن تخنق الحقيقة، تريد أن تقول الكثير. وفي هذا خوف وفيه عظمة.

أما هو فقد أخذها بين ذراعيه، منهوكة القوى، كمن يحمل عبء آلام العالم أجمع.

وما يقال في هذا المجال، أنها أفاقت إلى نفسها، إلى حقيقتها المشئومة، كحداد جديد أو نبأ ردئ واستطردت تقول:

- إنني أحبك ولكني أحب الماضي أكثر منك، أريده، أريد الماضي، حتى ولو كان فنائي ثمنا له. الماضي أوه. طالما أن الماضي لن يعود، فسأبكي وسأتألم، أترى ذلك؟ ولكني أحبه، فهو لم يبعد كثيرا.. فالموت في كل مكان، نراه في الجميل الذي أصبح قبيحا بعد طول جماله، نجده في انطفاء ما كان وضاء قويا ونقيا،

وفي عقاب الوجوه التي كنا نعزها ونحبها وفي التعود، وفي نسيان من هو بعيد أو قريب. وأما الحياة فنحن نحسها في الصباح، في الربيع، في الأمل، فما هنالك سوى الموت الذي يمكن أن نراه حقا في كل وقت، فمنذ بدء الخليقة والموت هو الشئ الوحيد الذي يمكن أن يكون محسوسا، فهناك، عاليا، يمشي الانسان واليه يذهب.ففيما اذن يضيرنا القبح؟ أو بما يفيدنا الجمال، ما دمنا سنطأه بأقدامنا. وفي باطن الأرض نجد من الأموات أكثر من الأحياء على وجهها، أما نحن فالموت عندنا أكثر من الحياة، ليس فقط أحياء دون أخرين، بل جميعهم، وعاما بعد عام يتقوض جزء كبير مما كان حولنا منا أيضا.. حتى من لم يكن، سيموت أيضا، فالكل مصيره الموت.. انني أبكي لانني سأموت حتما، وسيأتي اليوم الذي يقضي على وجودي. الموت. انني اتساءل كيف يمكن للمرء أن يعيش، وينام، ويحلم، طالما أن الموت سيواتيه حتما: كم هو متعب وثمل. فبالرغم من الفراغ الشاسع، والصبر والجلد، والجهود المضنية، وجهود الطاقة المتداولة، نلمس أكاذيب القدر في العهود التي نقطعها على أنفسنا، هذا ما أفهمه أنا، ففي كل مرة على المرء أن يجيب بلا أو بنعم، يتدخل القدر إلى أقصى النهاية، بقوة وحقيقة أكبر، ويستولي على كل شئ لنفسه. أواه، هناك بعض اللحظات، وخاصة في المساء، حيث يبدو أن الوقت غير ثابت، لاطفته قلوبنا، ويلوح لنا السراب الجميل للأوقات الساكنة التي لا تتحرك، ولكن هذا ليس حقيقة، ومع كل فهناك عدم لا يقاوم ولا يقهر قد سمم كل ما نقضيه. أترى يا عزيزي، عندما تدور هذه الأفكار في خلد الانسان، يصبح متسامحا مبتسما فلا يتمنى مثل هذا لغيره، ولكن هذا النوع من الصلاح هو أثقل شئ في الوجود.

أما الرجل، فكان كعهدي به، دائما سيد نفسه، انحنى عليها بهدوء دافيء وورع ولثم يديها بشفتيه. ثم قالت بصوت هدأت نبراته وتغيرت:

- لقد فكرت في الموت من قبل، وذات مرة صرّحت بهذا إلى زوجي، لقد ذهب إلى الحرب غاضبا، وأفصح عن رأيه في، قال إني مريضة وسوداوية وأعصابي ضعيفة،

وأحتاج إلى عناية، وكان يريد أن أكون مثله، لا ألوي على شئ، ولا أفكر في مثل هذه الأمور ويرجع ذلك إلى أنه سليم ومتزن العقل. ولكن هذا ليس حقيقة، فالمريض هو، مريض بالهدوء وعدم التمييز، أو بمرض غامض، وعدم تبصره هذا إنما هو عاهة أو علة، والمسألة التي به إنما هي داء كلب يعيش لنفسه كالبوهيمي، أو حيوان له وجه آدمي. ماذا يفعل؟ يصلي؟ لا.أيلقي بنفسه في مهمة تشغله؟ أيعمل؟ أليس كذلك؟ فالعمل متوافر، أيربي أطفاله؟ فهذا يعطي شعورا بالبداية والنهاية في الوقت نفسه دون جدوى، ومع ذلك من يدري؟.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي تلين فيها. ثم استطردت:

- ولكن تنقضي المثابرة والذلة والخضوع لأكون أما، فربما وجهني ذلك في الحياة فأنا يتيمة لطفل صغير.

وللحظة أسبلت عينيها، وتركت يديها تعبثان، وتركت الأمومة تستولى على قلبها، واقتصر تفكيرها على أن تحب وأن تقدم على الطفل الغائب، دون أن تلحظ أن في اعتباره سلوتها الوحيدة، فإنما يرجع ذلك إلى عدم وجوده فعلا.

ثم استرسلت في حديثها:

- الكرم؟ يقال إنه يُنسى كل شئ.

وبينما كانت تتمتم ببعض العبارات، شعرت ببرودة المساء تسري في جسدها فالمساء كان ممطرا ككل شتاء كان أو سيكون.

- آه، نعم فلأكن طيبة ولأذهبن معك في الطرقات التي يفترشها الضباب وعلى كتفي معطف من الفرو، نجول لنطلب صدقة.

ثم بدرت منها حركة تدل على الملل.

- لست أدري..أن الأمر مختلط علي، مذهل، لا يغير من الحقيقة شيئا لأنه ليس حقيقة في حد ذاته. من سينقذنا؟ واذا أنقذنا بالفعل؟ فماذا بعد ذلك؟ سنلاقي حتفنا، سنموت.

وصاحت:

- أنت تعرف جيدا أن الأرض تنتظر رفاتنا، وهذا ليس بعيد المنال عنها.

ثم جففت دموعها، ونفضت عنها حزنها، واتخذت لهجة إيجابية هادئة، توحي بشعور بالتيه:

- عزيزي. أود أن أوجه إليك سؤالا،وأجبني عليه باخلاص. هل واتتك الجرأة حتى في قرارة نفسك أن تحدد تاريخا مطلقا وبعيدا نسبيا، ولكن محدد بأربعة أرقام. أقول لك اذا تقدمت بي السن حتى وصلت إلى هذا التاريخ حيث توافيني منيتي، بينما سيبقى كل شئ على ناموسه الطبيعي، فهل الفراغ الذي سأخلفه من بعدي سيتقوض شيئا فشيئا أم سيظل قائما؟.

تحت جلاء هذا السؤال، تحرك، ولكن على ما كان يبدو لي أنه يحاول أن يتحاشى أي إجابة تضايقها.

فبكل تأكيد هو محيط بكل هذه الأشياء وعلى يقين منها(هذا على حد قولها) فقد تردد في حديثها ولكن يبدو عليه أنه يفهم نظريا على ضوء الأفكار العظيمة، وفي حمى الفلسفة أو الفن المميز لحساسيته.

أما هي، فقد أعياها ما تشعر به وحطمها، كما أجهدها وأدمى عقلها.

ثم واصلت حديثها بعد أن استعادت رباطة جأشها وبعد تردد وبصوت منخفض وسريع، وبحركة تنم عن اليأس الذي تشعر به، وما سببه لها من ألم عظيم:

- ألا تدري ما فعلته أنا بالأمس؟ أرجو- إذا أفصحت لك- ألا توبخني أو تؤنبني. ذهبت إلى المدافن في "بيير- لاشيز"، تجولت في الممرات أولا، ثم بين المدافن نفسها حتى قبو العائلة، وعندما رأيتهم ينزلون التابوت الخاص بي بالحبال، من خلال فجوة كان يغطيها حجر كبير فحدثتني نفسي: آه، هاهنا، ذات يوم، قريب أو بعيد، ولكنه أكيد، سيكون مصيري.كان هذا في حوالي الساعه الحادية عشرة، فلما أضناني التعب، التجأت إلى أحد القبور اتكئ عليها، وتأثرت بالجو الذي يحيط بي: حزن، وحشة، خراب. فلاح لي اليوم الذي

سأدفن فيه. فالطريق ينحدر بشدة، ولزاما على سائق العربة، عربة الموتى، أن يجذب سرج الخيل بشدة (وقد رأيت هذا مرارا قبل اليوم).أن هذا اليوم أمر يوجب البكاء، فهذا الطريق سوف يختار حتما في مثل هذه الظروف، في هذا المكان حيث أرى الجميع ممن يعرفوني، ويحبوني، مجتمعين ومنتشرين حدادا بين المقابر، يا للغباء كم تثقل هذه الأحجار الرخامية على الموتى. رأيت المقابر على أشكال مختلفة، فمنها ما يغطيه الرخام الأبيض ومنها ما يشبه كنبة صغيرة.. وأنا كنت هناك في عربة الموتى، أو قل أنه لم أكن أنا، بل كانت هي هناك والجميع في مثل هذه اللحظة يحبونني بخوف، والجميع يفكرون في، وفي جسدي، موت امرأة- طالما أن الأمر متعلق بي- بها شئ من الفجور. وأنت أيضا هناك، ترتسم على وجهك علامات الحزن، وحبنا الكبير لم يكن سواك أنت وصورتي، ولم يكن من حقك أن تتحدث عني، وفي النهاية رحلت أنت، كأنك لم تكن تحبني مطلقا. وعدت وقد أثلج جسدي وقلت في نفسي أن هذا الكابوس هو أكبر حقيقة من الحقائق، وهو الشئ العظيم الحق، البسيط، ويختلف عن أحداث حياتي التي كانت سرابا.

ثم كتمت صرخة جعلت كيانها كله يرتعد لوقت طويل.

- ما هذا الحزن والدمار الذي جلبته حتى المنزل. فبينما الشمس ساطعة ملتهبة، أظلم الحزن كل شئ من حولي حتى أصبحت لا أشعر بأي شئ جميل من حولي.. كل ما هنالك عالم آخر فالمنزل يبدو لي قاحلا وكل شئ في نظري أدان حقيقة ملاك سيئ.

وفجأة تذكرت شيئا كان هو قد أفضى إليها به بمهارة فائقة وبحذق غير عادي:

- ثم جئت إلى جواري، وجلست على ركبتيك، ووضعت رأسك على ركبتي. ثم بكيت وسمعت صوتك وأنت تقول: "أعتقد أن هذه اللحظة لن تعوض، واعتقد أنك ستتغيرين، تموتين؟ أو تذهبين إلى غير رجعة، ومع ذلك فأنت الآن هنا. إنني أفكر بكل حرارة، كم هو ثمين الوقت وأنتِ لؤلؤة غالية فريدة في نوعها. أنتِ التي

لن تكوني في يوم من الأيام على ما أنتِ عليه الآن، وأعبد هذه اللحظة لوجودك معي". ثم أخذت راحتي بين راحتيك، ولاحظت إنهما بيضاوين وصغيرتين وقلت لي أنهما كنزين ثمينين وسيختفيان، ثم كررت كلمة أعبدك، بصوت مرتعش هو أعذب وأصدق ما سمعت. وهناك شئ آخر أيضا، ذات مساء عندما كنا معا وقتا طويلا، حدث أنك أخفيت وجهك بين يديك وتفوهت بعبارات استقرت في قرارة نفسي، كان حديثا مخيفا "أنت تتغيرين، لقد تغيرتِ، لا أجرؤ على النظر إليك خوفا من ألا أراك ثانية أمامي". أتذكر؟ أنه في مساء ذات اليوم حدثتني عن زهور قطفت، أسميتها انت جثث الزهور وقارنتها بأجسام الطيور الصغيرة الميتة. نعم، لقد كان هذا المساء الملعون الذي لن أنساه مطلقا، فقد كانت هذه الزهور المقطوفة تثقل كاهلك.كم كنت على حق عندما شعرت بأن الزمن قد نهرك وأذلك وفي قولك أنا لا نساوي شيئا طالبا أن كل شئ يمر وينقضي.

غزا الغسق الحجرة، واحتوى هذين المسكينين الذين يحاولان جاهدين الوصول إلى أعماقهما لمعرفة أسباب آلامهما ومصادرهما وبؤسهما.

واستطردت:

- هناك شيئان يعترضانا. الفراغ والزمن، فأما الفراغ، فهو دائما بيننا، وأما الزمن فهو مرض يرتبط بنا، وهو يفوق الفراغ ضراوة، ووحشية، فالفراغ يغلب عليه طابع الموت، أما الزمن فهو قاتل. فكما ترى، لكل شئ في الزمن قبر حتى السكون والمقابر. فالفراغ والزمن شيئان غير مرئيين يتسلطان علينا أينما كنا كأننا مصلوبين ليس كإلهنا الطيب الذي صلب جسده على صليب (قد شدت إليه يداه وجسده) أما نحن فقد صلبنا على الزمن والفراغ.

يبدو لي وحالتها هذه، أنها قد صلبت وأن صليبها هذا يحمل المعنيين اللذين تضمنهما تضرعها، وتحمل بين طيات صدرها الآثار الدامية للعذاب الكبير الذي تذوقه في حياتها، لقد صرحت، وبكل قوة عما يجيش بين طيات صدرها، ما تحمله في نفسها من آثار دامية للعذاب الكبير الذي تذوقه في

حياتها فكان مثلها مثل الذين رأيتهم من قبلها في هذا المكان، يريدون أن ينتزعوا انفسهم من هذا العدم ليعيشوا أطول مدة ممكنة، ولكن أمنيتها الوحيدة كانت الخلاص، فكانت حياتها المتدفقة الحلوة تنتقل بين الموت والحياة، فأتجهت عيناها إلى النافذة المضيئة ووجهها شطر السماء تنشد هذا الخلاص- الذي هو أكبر الأماني الإنسانية- في اختلاجه شبه عذرية.

ولكنها استرسلت في حديثها قائلة:

- أواه، أوقف، أوقف هذا الزمن الذي يمر، أنك لست سوى انسان مسكين، لست سوى قليل من الروح والفكر، تائها في أعماق حجرة، وبالرغم من ذلك فأطلب منك أن توقف الزمن أو أن تمنع الموت.

ثم خفت صوتها واختفى كأنها لا تستطيع أن تتفوه بشئ، وتاهت في سكونها المسكين.

فأجابها قائلا:

- وأسفاه.

ونظر إليها، إلى دموعها، إلى هدوء فمها.. ثم نكس جبهته. فربما استسلم إلى قنوط عظيم، أو استيقظت نفسه، وعندما رفع وجهه، خمنت بديهيا بأنه سيقول شيئا يجيب به على حديثها ولكن حديثه دائما ما يبدأ مقتضبا، ورفعت رأسها كأنها طفل يطلب نجمة من النجوم. أي تطلب المستحيل وقالت:

- هذا هو حالنا.

وتمتم هو قائلا:

- من يدري بحالنا؟.

ثم بدرت منها حركة تدل على ملل لا محدود، وصوت لا رنين له، ونظرت خاوية، وقالت:

- إنني على يقين مما ستقوله لي، ستحدثني عن لذة الألم، آه.إنني أعرف أفكارك الجميلة، ونظرياتك العظيمة ولكني بالرغم من إنها حبيبة إلى نفسي لا أصدقها

واعتقد فيها إلا اذا استطاعت أن تواسيني وأن تنحي عني الموت وتمحوه.

حاول هو جاهدا، غير واثق، أن يبحث عن مخرج، فأجابها متعثرا:

- ربما، اذا آمنتِ بهذه النظريات والأفكار، فربما تمحو الموت.

- لا، لن تمحوه، لقد صرحت لي بأن كلانا ملاقي الموت. بم تجيبني على هذا؟ آه أجبني وأرجو أن تكون إجابتك مباشرة؟ آه لو تريحني بإجابة تظهر حقيقتي كما هي.

والتفتت اليه، وتناول هو راحتيها، وقد نفذ صبرها، من إلحاحها عليه، ثم انزلقت إلى جواره وجلست على ركبتيها، كجسد لا حياة فيه، على الأرض محطمة، غارقة تحت اليأس في أعماقها، وقالت له مستعطفة:

- كم سأكون سعيدة إذا أنت- إن استطعت- أجبتني على سؤالي.

وكانت تمد يدها وتشير بأصبعها، إلى الحقيقة المؤلمة، التي لاح لها شكلها، كأكبر مفهوم للألم، الفراغ الذي يحجبهما، والزمن الذي يمزقهما. وفي الحجرة التي غزاها الغسق حتى بدت ضعيفة ومنخفضة، والفراغ الشاسع يظهر في السماء، ويؤكد بندول الساعة الزمن وينبئ عنه بأفعال وهو مستند إليها كأنه في هاوية من الأسئلة.

واستطردت:

- أيعلم المرء من هو؟ أن كل ما نعتقده ونفكر فيه ونقوله، لا نعرف شيئا عنه، ولا أساس له من الصحة.إنك تخدع نفسك. ويا للأسف، مع الحياة ما هو مطلق وما هو مكتمل، آلامنا، احتياجنا، شقاؤنا، نراه ونلمسه وننفي ما تبقى بل تساؤلنا هو الذي بمقدوره أن ينفيها. نعم أنت على حق، فشقاؤنا هو الشئ الوحيد المطلق والذي هو كائن بالفعل.

حقيقة، إنني ألمس الشقاء، فهو يبدو واضحا على وجهيهما.

***

ثم كرر ما قاله: "نحن الشئ الوحيد المطلق الذي...." ثم توقف عن الحديث كمن يشعر بنقطة ارتكاز بين طيات الزمن وأردف "نحن".. ها هو قد عثر على صرخة ضد الموت "نحن" وكررها "نحن" "نحن".

والمرأة عند قدميه، وكل ما في وجههما يسطع ويتلألأ كالنجوم، ها هو والمرأة عند قدميه، ها هو قد بدأ يقاوم.. ياله من تقدم كبير بالنسبة له.

- إننا سنبقى.

- سنبقى! بل بالعكس سننتهي.

- سنبقى! وسنرى نهاية غيرنا.

وهزت كتفيها بعدم اكتراث، واكتسى صوتها برنة فيها بعض الكراهية

- نعم..لا.. ربما إن أردت أنت فليس في هذا شئ من المواساة. من يدري؟ ربما لا نكن في حاجة إلى غيوم، أو إلى حزن، لنصنع البهجة والنور.النور باق، أما الغيوم فلا.

فأجابها بهدوء:

- لا.

وأردفت هي ثانية: "هذا شئ لا مواساة فيه".وفجأة تذكر أن كل هذه الأشياء قد دارت بخلده، فقال لها بصوت يشبه الاعتراف، بنبرة فريدة، إلى التمتمة قريبة:

- اسمعي، تخيلت ذات مرة، اثنين في الأيام الأخيرة من عمرها، يعيدان ذكرى آلامهما.

- هل جاء هذا في قصيدة؟

قال:

- واحدة من بعض القصائد التي لها قيمتها.

عجبا هذه أول مرة يبدو فيها صريحا مخلصا، تدب فيه الحيوية شيئا فشيئا، لقد أقلع عن اختلاجات القضاء والقدر، واسلم لخياله العنان، واثناء حديثه

عن هذه القصيدة اعترته رعشة، واحسست بأنه سيتحدث بنية صادقة، بينما أرخت هي رأسها لكي تستمع اليه.

وقال:

- رجل وامرأة- مؤمنين- كآدم وحواء، وفي آخر أيام حياتهما، يعيشان في سعادة ويتمنيان أن يموتا في سبيل أشياء نعتبرها نحن حزنا، يصدقانها ويفكران فيها، في الجنة التي سيبعثان اليها.

وقالت إيميه:

- هل سنعود نحن إلى جنتنا، جنتنا المفقودة حيث البراءة والنقاء والصفاء؟ وأسفاه كم أفكر في هذه الجنة.

فقال:

- الصفاء؟.. نعم هو ذاك فالجنة هي النور بينما الحياة الدنيوية هي الظلام. وهذا هو سبب ما تغنيت به. ظلام سائد، وأنوار ينشدانها.

وقالت ايميه:

- مثلنا.

وكانا هناك، هما أيضا في الظلام، لا يتحركان ويتحدثان بصوت هزيل:

"هؤلاء المؤمنون يتمنون الموت كما نتمنى نحن البقاء وفي هذا اليوم العظيم، تغيرت كلمة: الموت، بدلا من الخبز"

" وكنت أود أن يكون هذا الحديث بازغا بزوغ الفجر، فؤلاء يتضرعون إلى الله بقلوبهم وبعيونهم وبأفواههم أن ينقذهم من الظلام الدامس وأن يشفيهم منه، وأخيرا، عندما يعلمون أنهم ملاقون ربهم لا محالة، يشكرون"

" فهم بإنسانيتهم لا يبغون من الله سوى أن يبعد عنهم الظلام ويحميهم منه، لأنه يعترض النور الإلهي، كما لا يرجون من الله سوى رضاه عنهم، فهم لا يرون منه سوى علامات باهتة في السماء"

" يقولون: أحسن الينا بالشعاع الذي يتوالى من الأزل يلامس النجوم، والذي

يعطينا انعكاسه أحيانا، كأنه خمار، وهم رافعون أذرعتهم الضئيلة كأنه بصيص من الضوء الخافت"

أما أنا فكنت أتساءل أمام هذا المشهد الذي أراه هل هما الأن في سكرة الموت؟ أليست هذه هي روحهما المشتركة تعبر عما يجيش بنفسيهما حتى يصل إلى أذني؟ الشِعر؟ الشِعر يعبر عنهما ويشير إليهما ويعتليهما، فهو يخرج بحياتهما من المجهول، كما يتلاءم مع عمق أسرارهما فبالرغم من أن المرأة مرهقة إلا أنها أسندت رأسها من جديد، وبدا هو أكثر أهمية منها وجمالا. واستطرد في حديثه عن المؤمنين قائلا:

- إنهم يحاسبون أنفسهم. فقبل أن يطأوا عتبة السعادة، يراجعون ما اكتمل من أعمال في حياتهم، كم من أحزان! وكم من حداد وهلع يعترفون بكل ما اقترفوه ولا ينكرون منه شيئا، من ماضيهم المخيف. أي قصيدة هذه التي تحوي البؤس بكله. أولا سنة الحياة الضرورية، كميلاد الطفل، المعرفة، ثم المرض، يليه الألم، كل هذه الألام التي نعللها بقصور الطبيعة، والكفاح من أجل العمل من الصباح حتى المساء، ليتمكن المرء من العثور على قوته في حالة عدم قدرته على العمل. والأرض من ناحية تتعجل الاستيلاء علينا، حتى نواري الثرى نهائيا، ينهكنا التعب، فتهرب الابتسامة من الوجوه، ويصبح المساء والمأوى فاعلين إلا من الأشباح التي لا تهجع.

هذا "وإيميه" تصغى متقبلة الحديث، وفي هذه اللحظة وضعت يدها على قلبها وقالت: "أناس مساكين" وتململت في جلستها، فهي ترى أن المرء يذهب دائما إلى أبعد مما يجب، وهي لا تريد تشاؤما أكثر مما هي فيه، سواء كان المشهد مبالغا فيه أم مملا لها.

وبعد مزج بين الخيال والواقع، تعترض المرأة في هذه اللحظة على القصيدة أيضا. رفعت المرأة نظرها، وبحياء، قالت معترضة:

- الطفل الطفل الذي جاء لينقذنا. الطفل الذي نعطيه الحياة ثم نأخذها منه.

ويجيبها الرجل:

- هو لا يريد منا أن نكتم أو نتصنع الألم، لأن في الماضي شقاء أكثر مما كنا نتصور، فللحياة تبريرات كثيرة ومعقولة.ويولد الطفل، يولد قلب جديد، يولد الشقاء وبسببه تدمي الجوارح الإنسانيه، وأن ضحى بمخلوق يترك خلفه أكثر من شكوى. إنها آلام الخلفة لا تنتهي، بل تتسع لتصبح كربا...وهذه هي عاطفة الأمومة، البطولة والتضحية في قمة النفس المتذبذبة، تحاول جاهدة أن تعيش سعيدة مبتسمة بالرغم من العذاب والدموع التي تسيل.. ولكن.. دائما الشك. تذكري نهاية العمل عند الغروب، والرقة الجزئية في الهجوع.. أوه كم من مرة في السماء تلصصت عيون على بعض العائلات وكم من مرة تعثرت يداي وهي تتحسس جبهات المحبين ثم أترك يدي إلى جواري حيث قهرني ضعفي وبكيت...

ولم تستطع "إيميه" أن تمنع نفسها، فقد بدرت منها حركة، خيل إليّ إنها ستقول له لقد كنت قاسيا.

ثم قال هو وعينيه تبرقان: "قابيل" وقالت هي بصوت منتحب: "هابيل" وتألمت لذكرى الأخوين اللذين كان يبغضان بعضهما إلى درجة إنهما تقاتلا، لقد كانا يعيشان في قلبها ولحمها...

وخطرت لها فكرة أخرى آلمتها، وهي صورة كل طفل يموت: "الصغير الأفضل.. اني آراه دائما بالرغم من عدم وجوده"، ومدت يديها إلى لا شئ إلى المستحيل، تئن، وتمزقها قبلة خاوية، وقالت:

- ومع أنه لا وجود له، فاني أقوم بتدليله.

وقال الرجل مزمجرا:

- الموت صلاح مشئوم يتركنا، شر للذين يحبون إلى درجة العبادة.

وصدرت منها صيحة سامية: "يا لشقاء الأمومة".

أما أنا فقد أخذني صوت الشاعر الذي ينشد بانسجام، وهو يهز كتفيه، مأخوذا به بشعره حتى حسبت أن الأحلام تحققت، وقال محادثا "إيميه":

- ثم وجدوا أنفسهم وقد تخلى عنهم أبناؤهم، بعدها كبروا وأحبوا.فالطفل يتركنا حيا كان أم ميتا: لأن الصغير يمقت الشيخوخة طالما هو شاب قوى وحساس، وطالما أن الربيع القاسي يواري الشتاء، وأن القبلة لا تكون نابعة من القلب إلا إذا كانت على شفاه شابة.. سوف تتركين والديك وتهربين من العناق القوي وثقل أذرعهم...

وفكرت مليا في المشهد الذي رأيته، في الليلة الأخيرة وكأن هذا الرجل يتحدث عن مأساة وقعت لي في حياتي معهم، فقد كان هكذا، امرأة عجوز احتضنت اثنين من الشباب الذين لجأوا إلى الظلام ليكونوا أحرارا في عناق غير مجد، عناق ضال، لقد كان على حق هذا المفكر والمتشرد الغامض. واستطرد:

- ولا رجوع إلى الشقاء الذي لا ينضب من الحياة أو حتى من الندم.. ينام الليل، كنا ننسى.. لا كنا نحلم، والهدوء يفكر في الأشباح الحقيقية فالنوم لا ينام مطلقا: فأحيانا يحتضر.. وأحيانا أخرى يلاطفنا بأشكاله المختلفة، الرؤية التي نراها، فدائما تسبب لنا الآلام، حزينة كانت أم حلوة، فهي تدمي أيامنا ولياليا.

"لما كنا نحن الاثنين؟" قالت الزوجة هذا متمتمة.. يتمتعان بالحب، وفي نهاية العمل، يذهبان معا ليستريحا ويتمتعا بالراحة والحنان.. ولكن الليل.. لقد كان كل منا للآخر في لحظة، وكنا نبحث عن طريقنا بين الطرق، وكنا نستحث الخطى إلى المسكن السيئ السياج، كأننا ذاهبان إلى بقايا حطام في أحضان الأمواج، وعندما عمت الظلال بطن الوادي، كانت نظراتي تقع على نبضات قلبك تحت الشعاع المترنم، وحيدين، ماذا كنا نقول لأنفسنا؟، كنا نقول: أحبك..ولكن للأسف فان هذه الكلمة لا تحمل أي معنى طالما أن الكل وحيد، وطالما أن كل صوتين، مهما كانا، وهما يسران بأسرار غير مفهومة، هذه هي اللعنة التي يصبونها على الوحدة، الوحدة التي تضطهدهم. أيتها الفرقة التي تحول بين القلوب، أيتها الأرض التي تثقل على كل منهم. أيها الهدوء

السخيف للأفكار، أيها المجنون، أيها العاشقون نحن نبحث عن أنفسنا في المجهول، لقد كنا هناك ولا شئ يجمعنا، قريبين مرتعدين، تتخالط الأصابع تحت الكواكب التي تستوي على العرش فلم نكن سوى صديقين.

فقالت "ايميه": انك تعترف بذلك في قصيدتك. ما كان يجب عليك.. آه هذا أكثر من اللازم..

قال هو:

- ثم حلت لحظة القبلة والعناق بالرغم من صعوبة الفكر ولم تتعانق الأجساد أكثر من الأيدي بسبب الهذيان.

فقالت وهي ترتعد وتحس بخجل مزدوج في كل كيانها:

- أعرف ذلك.

قال هو:

- وفي ساعات اليأس، ما كن من الهدوء الا أن زاد من عزلتهما. فيطأ الهدوء في أجسادنا كما نطأ نحن نعشا أو تابوتا، وتمتلئ مقلتانا بالدموع وتبكي قلوبنا من الوحدة، ثم.. رأيت اللا محدود هشا وعميقا.. وكل منا يعتبر عالم في حد ذاته.

واستطرد حديثه قائلا:

- ومن خلال كلام هؤلاء المؤمنين ظهر اليأس والألم في ضمير كبير عظيم لا يعذر وانتهت اللعنة، وفضلا عن ذلك فقد انتهت الحياة، وكانت المرة الأخيرة التي يطرقان فيها هذه الموضوعات. فالمرأة، بحب الاستطلاع الذي طبعت عليه تتطلع إلى بعيد، عند خروجها إلى الحياة، وكما بدأت حواء، انتهت، وصعدت روحها الرقيقة إلى سرها كأنها قبلة على شفتي حياتها، وكانت تريد أن تكون سعيدة فعلا...

"أما ايميه" فقد حلق فكرها مع حديث صديقها فاللعنة التي ذكرها في حديثه، وهي ماثلة للعنة التي تحل بها، قد أعطتها بعض الثقة.

ولكن يبدو لي أنها قد هدأت، واستعادت رباطة جأشها، فكانت تصغى وتسمع وتكبح جماح نفسها. وقالت: "ونحن أيضا؟ أليس كذلك؟".

كم يكون هذا النوع من الحياة الممزوجة بالفن مؤثرا كنوع درامي وغنائي، وهما يقومان في وقت واحد بدور المؤلفين والممثلين والضحايا!

فنحن لا نعرف حقيقتها، فليس هناك سوى حقيقة واحدة عظيمة، لكل من العبادات والقضاء والقدر، هذه الحقيقة تبدأ من حيث تبدأ المأساة التي يمثلانها ويلعبانها والتي تلعب هي بها بدورها.

ثم استمر صديق "ايميه" في حديثه عن المؤمنين قائلا:

- ويستولى عليهم أمل كبير في التقوى والورع، فتقول المرأة لرجلها: "انني أعتقد في الله ولكني لا أصدق نفسي!" ويذهب حب استطلاعها إلى أبعد من ذاك: "وكيف ستكون الجنة، وكيف لن نشعر بألم".فأجابها: إننا نلمح نوعا ولكن فقيرا من الجنة على وجه الأرض، فالآمال والاحساسات وجزاء كبرياء النفس، كل هذا يعد على هامش الجنة، وهي كلحظات قصيرة يهبها الله لنا.. ولكن تحتجب سريعا فحزننا وفضيحتنا وسوداويتنا الانسانية.. والآن سيقع طريقنا الحزين، وفي هذا سيكون الله بدون نهاية.وأجابته المرأة: "وماذا سأصير أنا؟".

فتدخلت "إيميه" وقالت:

- إنها على حق.

فاستطرد:

- وحدثها عن السعادة الكاملة موضحا لها أن هذه السعادة ما هي إلا جوهرا تضيعه الطبيعة علينا ولا يمكن أن نلمس الحياة الأبدية (الخلود) دون اختبارها ويجب أن نترك الله يعمل، ونحن كأطفال نائمون في أعماق الليل.

فقالت "ايميه"

- هكذا..

فأجابها صديقها:

- إلا أن المرأة التي وقعت فريسة للكهنوتية إلى درجة انها قد احتكرتها، سألت سؤالها العضال: "ماذا سنكون؟ وحينئذ أجابها من جديد: لأنهم لن يكونوا. وبالرغم من انه كان يريد أن يقول شيئا إيجابيا إلا أن الحقيقة قد هربت منه ووجهته إلى السلبية: لن نكون أكثر من قطع بالية من اللحم والزفرات... ولكنها صرخت مرتعشة: "ماذا سنكون " قال أكثر من ظل؟ أكثر من فراق؟ أكثر من مستقبل؟ أكثر من رغبات؟، وطالما أن الرغبة لا أمل لها، فحالها يرثى له. قالت "أكثر من أمل؟" قال: "الأمل شقي طالما إنه يتعشم ويأمل. كثير من التضرعات والابتهالات، فالتضرع هو أيضا مجرد بما أنه صيحة، تخرج منا وتتركنا..قالت " أكثر من ابتسامة " قال " أليست الابتسامة دائما شبه حزينة؟ فالمرء لا يبتسم إلا لكآبته، وبسبب قلقه، ووحدته السابقة، وآلامه التي تهرب، فالابتسامة لاتدوم ولو دامت فلن تكون، فمن صفاتها الفناء. ولكنها أعادت عليه سؤالها: ولكن ما مصيري أنا، مصيري أنا؟ فهذه الصيحة: "أنا" قد ملأت أرجاء المكان. ومرة أخرى ألقى عليها مجموعة من العبارات الخيالية. فأخذ يعرض من جديد الآلام المفاجئة كأنها شبح مخيف، يخرجها من مدفنها المجهول ويعترف بما لم يعترف به من قبل مطلقا " هناك أشياء كنت أخفيها عنك، كنت أقولها لك ولكنني كنت اكذب. فكان يؤلف أشياء ليجد ما يجيب به على الأسئلة الساذجة، ويعطي تفاصيلا للرغبات وكل همسة من حديثه، تنبئ عن عذاب أليم. لقد تمنى كل شئ، مجموعة من التمنيات الأزلية: الخير للغير، نصيبهما من الحياة، وكذلك المجد. لقد عبر أيضا عن مأساة مدفونة في نفسه بقصيدة صاغها بقدر المستطاع: "أيها الجحيم القاسي المتوحش، كم تشبه ابنتنا فجرك فهو لم ينوء بحمل رغباته فكل ما هنالك أنه يتألم منها، ففي هدوء تام، كتم في نفسه الرغبة الأبدية: مثبتة في نفسي، بأكملها وبحجمها.. أوه.. تتشبث بقلبي، مختفية تتعذب الألم الذي لا يمكن الاعتراف به من عدم اقتراف اثم.

ومع ذلك كله فهو يتمنى الماضي، ويريد أن يتغلغل فيه كما يتغلغل في القلب المحب ولكن الذكرى لا تخمد فهي لا شئ وهي ليست لها وجود ومن يبحث يتألم، وتصيبه آلامه القديمة.

هو كان أيضا، بل هما كانا، الاثنين، بالرغم من الصلاح الذي غرس في نفسيهما مع كبرهما، تسيطر عليهما فكرة الموت. فهذه الفكره أصبحت في كل مكان، لأن الشئ المخيف ليس الموت ذاته، بل فكرة الموت التي تهدم كل فاعلية عارضة، ظلالا كأنها أنفاق، فكرة الموت: الموت الذي يعيش.." أوه كم أتألم.. كم يجب علي أن أتألم ".

"هذا هو ما كان وما لا سيكون، هذه هي أنواع الظلام التي حالت بيننا، وبين استمرار السعادة، فكل شئ ينقمع إلى الطغي والشؤم اللذين تريد أن تهرب منهما الحياة " فصاح: "إننا مثل هؤلاء الذين لم تستنر عقولهم مطلقا، ويسودهم الغموض في كل مساء، هؤلاء من كانت دماؤهم سوداء، هؤلاء الذين ما لمسوا شيئا، يتسخ بسبب رؤيتهم المظلمة، وعيون حالكة السواد لا ترى، لسوادها وانطفائها وفراغها.. يحتاجون لنجدة كبيرة من السموات.. أتذكرين عندما اجتمعنا تحت عاصفة ليلية هادئة، وتمنينا لو أن الليل يطول، وضعت ذراعك الضعيف تحت ذراعي، وضمتنا ستائر الليل..".

وكان الليل يسودهما حقيقة كالظلال، يتدفق منهما كجرح آدمي، ومن أفكارها الطفولية، قال صائحا: "سيتلاشى الليل، وتصبحين أنت النور" ولكن الوعد المشفق للمرأة، لم يكن لرأيه تأثير على ما تشعر به من رعب، فلا زالت مصرة على أن تعرف: ماذا ستكون، ما هو مصيرها؟ لان النور لا شئ.. فهي تحاول جاهدة دون جدوى، أن تناضل ضد هذه الكلمة.

"ونسب اليها تعارضها مع نفسها لانها تنشد السعادة الدنيوية وسعادة الآخرة معا، فأجابته بأنها ليست هي التي تتعارض مع نفسها بل الأشياء التي تتمناها هي التي تتعارض.

ثم تناول فرعا آخر من فروع الخلاص، وأخذ يشرح بطريقة يائسة: ليس في مقدورنا أن نعرف كيف يتسنى لنا ذلك؟ أي ضرب من الجنون، وأي انتهاك للحريات ان نحن حاولناه؟ ان الأمر يتعلق بنظام مختلف تمام الاختلاف عن الذي نتبعه نحن، فالسعادة الإلهية تختلف تمام الاختلاف عن السعادة الانسانية. فالسعادة الالهية خارجة عن طاقتنا".

فقالت وهي ترتجف: "ليس حقيقة.. ليس حقيقة.. فان سعادتي ليست خارجة عن طاقتي أنا طالما أنها تخصني وطالما ان الله هو رب عالمه، لأنه عالمه، فأنا ربة سعادتي لانها تخصني" وأضافت بلهجة قاطعة: "إن كل ما أبغيه هو سعادتي أنا كيفما كانت وكيفما كنت أتألم".- وفي هذا الوقت كانت "إيميه" تختلج، فقد فكرت فيما قالته المرأة، "جواب يخصني شخصيا كما أنا هنا الآن" فهي تشبه إلى حد قريب هذه المرأة أكثر من شبهها إلى نفسها- وكرر الرجل: "أنا كيفما أتألم".عبارة لها أهميتها فهي تقودنا غريزيا إلى قانون عظيم: ان السعادة ليست تعبيرا حسابيا أو شيئا، انما هي تتولد عن البؤس وتؤخذ منه عامة ثم تصبح الفرقة والألم كالظل والضوء لا ينفصلان ففي تفريقهما، استخلاص لهما معا". "أنا كيفما أتألم" كيف يكون المرء سعيدا وهو محاط بالهدوء الكامل والصراحة الصافية النقية والمعنويات كأنها صور، لقد خلق الانسان بقلب غير منتظم، فلو انتزع المرء كل ما يسبب له من آلام، ماذا يتبقى اذن؟ والسعادة التي ستعود علينا بعد ذلك لن تكون لنا، بل ستكون لآخرين، فهناك صيحة مختلطة تقول ومتى تعتقد أنها على حق: لدينا شعاع منعكس من السعادة طمست معالمه الظلال، وان اختفت الظلال، فتكون لدينا السعادة كلها- أكذوبة طائشة، وأكذوبة طائشة أيضا اذا نحن قلنا: سنحصل على سعادة كاملة لم نستطع ادراكها. وقالت المرأة: "لا أريد من السماء"

فقالت "إيميه": ما هذا (وهي ترتعد) أكان يجب أن نكون تعساء في الجنة؟

ورأيت "إيميه" تلوذ بالصمت وتنتحي جانبا، مرفوعة الرأس وقد فهمت أخيرا أنه لكل هذا الحديث أجابها ببساطة وقد تكون في نفسها فكرة سامية وأكثر حقيقة.

واستطرد صديق "ايميه":

- والآن والرجل في حالة ائتلاف، وبالرغم من ذلك فقد كان يشعر منذ لحظة بأن أي خطأ سينهي غضبه؟ وها هو ذا يعبر تعبيرا كاملا عن الحقيقة الدرامية التي نلمحها في خبايا النساء.

فقالت له:

- والله ربنا؟ ألا يستطيع شيئا لهؤلاء؟ ألا يوجد ما يمكن عمله؟ فهو ليس مستحيلا، وما هو إلا الله.ماذا فعل هذان المؤمنان اللذان لا عزاء لهما بالرغم من هذا إلا الله..

- أعاد الذكريات التي مرت بهما في حياتهما، ذكرى تلو الأخرى، يستعيدانها بالرغم من موتها وإلى جانب ومضات السرور هذه من البهجة والكبرياء، فكانا حتى هذه اللحظة يقولان أنهما جزئيات من الله، ورأيا الظلال التي تسمح لهما بذلك، والضعف الذي يُجهز له والمخاطرة والشك يحيطان بهما من كل جانب كأنها العناية.. وكذلك الرجفة التي تمنحهما بعضا من الحياة.. حقيقة أن مظهر قضاءهما وقدرهما يتمثل لهما في حبهما ويبهر بصرهما. فلو لم يكن هو فقيرا، ما كان برهن على ما غمرته به من احسان عندما اقترب منها، من نورها، نورها الذي يعتبره شيئا ضروريا، وثغرها، ثغر المرأة الذي ينادي في سكون "يبدو أنهم- المؤمنون- يعيشون من جديد، لا يفهمون بعضهم البعض ولكن شيئا فشيئا سيفهمون، يبحثون عن الظلال في كل مكان أي يبحثون عن أنفسهم، وفي كل وقت، نهارا، وفي وقت الغسق، في أحضان الحجرة وفي ثنايا الغابة، يتأملون الطبيعة ويتفهمونها بل كانوا يفهمونها، ويعطونها أكثر مما تستحق، كما يعطونها ما ليس لها.. ذلك عندما يكون

شعورهم بالموت مصحوبا بابتسامة في جوف الليل: يا للأسى، النهار وكل شئ من حولنا يحتضر.

أما عن نفسي، فلم أكن أدري باسم من يتكلم هذا المخلوق ولا عما إذا كانت هذه المسألة تخص "إيميه" أو تخص الآخرين.

ثم استرسل صديق "ايميه" في حديثه عن المؤمنين:

- كان الجو باردا، وكنا خائفين، وأنت، كانت الظلال تحوطك من كل جانب: ليلنا، وثوبك، وحياتك.. ولكن أي فجر كان، عندما توجهت نحوك، آه.. وعندما أخذت رأسك الجميلة بين راحتي تحت ستار الليل ولمست في حركاتك المتقطعة سكون فمك للقبلات، وبشرتك التي تبدو في الظلام بيضاء جميلة.. كملاك..وعندما كنت أقترب من وجهك الذي تنعكس عليه ابتسامتي، وعندما كنا مستندين إلى بعضنا، وأغمضت عيني وخبأتهما في شعرك، شعرك الذهبي الذي يبهرني كما تبهرني أشعة الشمس، وأداعبك بيدي الثقيلتين.كان كل منا يحتاج إلى الآخر، وكل منا هو سبب آلام الآخر، أوه.. سيكون حالنا دائما: أمل ودموع وشك.. وبالرغم من الضعف والعجز والنسيان، فسيتصدر حبنا المسكين كل شئ..

فقاطعته ايميه قائلة:

- يجب على كل منا أن يراعي قلبه ويحبه، وألا يندم أي ندم.

واستمر دون أن يلقي لها بالا وكمن يقول في نزعه الأخير:

- إن الحياة يطول أجلها ولكنها تفرق بيننا بقدر المستطاع، يا للأسف ولا تدمج مخلوقين لتجعل منهما مخلوقا واحدا، حينئذ تخلقنا متشابهين إلى حد ما، ولنخلق الحنان والألفة بيننا حتى يشعر كل منا بالآخر، فاكتسبنا بذلك الكثير. جمعت شملنا، الطقوس الدينية، ودين متذبذب لشقائنا.

شقاؤنا الذي نجده مع الموت في كل مكان، كنا نعيد الضعف الانساني، في الريح التي نشعر بأنينها والتي تناهز وتقترب، والتي تذهب دائما مع أفول

الشمس في فصل الصيف ويأتي الخريف الذي يبعث في النفس بأوراقه الميته حزنا قاتلا، وحتى عظمة السماء تبدو ضربا من ضروب الجنون. وكنا نقاوم بأمل، ولكن كان من الصعب الاعتقاد بأن قلب الحجر من حجر أيضا، وأن المستقبل غير بريئ ومعرضنا للخطأ. هل تذكرين عندما أسدل الليل ستائره وكنا نشعر بالشيخوخة وقد حلت بنا، والتقت أيدينا وهي غير قانعة وتشابكت، وبالرغم من هذا، كنا ننظر إلى المستقبل! المستقبل! وكانت غضون خديك تبتسم، كل شئ كان جميلا جمالا مهتزا، والحقيقة الراسخة تتساقط من عظمة السماء وكان آخر انعكاس لها على جبهتك المضيئة، وأهدابك النحيلة تتحرك متثاقلة، ينقلها الماضي بعبئه، وكنا نأمل أن تلين الحجارة تحت جنح الليل، ولكن عينيك كانتا في مثل لون الذهب إلى درجة أني أحسست إنك تموتين. والحياة تتحرك تحت تأثير نوع من الحياة المتكاملة. جميل هذا اللون الذي نتغنى به، من الجميل أن يصل المرء إلى نهاية الأيام وهكذا عشنا في الجنة، بل عشنا الجنة نفسها. وظلا هكذا إلى أن قالا، وبحياء: "أحبك".وعلى شفا السماء الأزلية، أخذا يبحثان تحقيق بداية لحياة متواضعة واستغفارية. كانوا يطمئنون أنفسهم بأن الله يتألم اذا رآهم يموتون، وحتى الذين يتألمون ألما كبيرا، يودعون أنفسهم وداعا مخيفا تنتهي به الدراما.

فصاحت "إيميه" من أعماقها قائلة:

- انهم على حق.

فأجابها صديقها الشاعر:

- هذه هي الحقيقة، فهي لا تمحو الموت، ولا تنتقص من الفراغ، ولا تؤخر تقدم الزمن، ولكن الفكرة الراسخة لدينا عنها هي أنها- أي الحقيقة- تخلق من كل هذه العناصر الأسس الجوهرية السوداء التي توجد فينا. فالسعادة في حاجة إلى التعاسة، والبهجة تشكل جزءا من الحزن، وقلبنا يختلج بفضل صلبنا على الزمن وعلى الفراغ، فلابد لنا أن نفكر مليا فيما هو ذو أهمية، ولا

نطرق الا ما يربط بين دمائنا وبين الأرض. تذكري. نحن خليط أكبر كثيرا مما نظن. من يدري ماذا نكون؟".

ولاحت على الوجه النسائي ابتسامة ردت إليه الحياة بعد أن كانت ترتسم عليه إمارات الموت، وسألته: "لم لم تصرح بذلك عندما وجهت لك سؤالي؟".

فأجابها قائلا: ما كنت ستفهمينني، لقد ذهبت بك رؤيتك للحزن إلي طريق لا نهاية له، طريق مغلق، فمن الضروري أن أعطي الحقيقة وجها آخر حتى يتسنى لي تقديمها إليك من جديد.

ثم استطرد في حديثه عن المؤمنين:

- وهناك شئ آخر أيضا أراه فيهم وفي كل ما تحدثوا به، عن الأحداث وعن الجمال والصلاح، فكان يعلو رؤوسهم إكليل من النور قبل أن يفيقوا من حلمهم.

فقالت متنهدة:

- عظيم أن يكون لدينا كل هذا الحديث الذي ألقي ضوءا على ما نرمي إليه.

فقال هو:

- إن الشئ الذي يعطي شعورا بحقيقة العدالة هو أن يعبر الإنسان عما يجيش في صدره، وأن يحس بما هو حي.

ثم لاذا بالصمت بعد هذا الحديث، يتقارب مفهومهما للحقيقة السامية، التي يصعب إدراكها، (لأنه من الصعب أن تفهم أن السعادة هي أن تكون سعيدا وتعيسا في وقت واحد) ومع ذلك فقد صدقت هي الثائرة، هي، التي لا تصدق شيئا، هي التي لها قلب حقيقي يلمس ويفهم.

*****

- 9 -

كانت النافذة مفتوحة على مصراعيها، يغشاها المساء، وعلى الأضواء المتناثرة لمحت ثلاثة أشخاص يجلسون تحت الانعكاسات الذهبية الداكنة.

رجل حزين، عجوز، محطم، قد ملأت الغضون والتجاعيد وجهه كأنها الأخاديد، يجلس على مقعد كبير بجوار النافذة وامرأة قد تركت سن الشباب، بشعر ذهبي، ووجه كوجه تمثال للعذراء مريم.

وعن كثب منهما كانت تجلس امرأة أخرى، حامل، شاخصة بنظرها، كأنها تنظر إلى المستقبل، وكانت تجلس منعزلة لا تشاركهما الحديث، تبدو هيئتها الممتلئة قليلا في بعض الضوء الذي يسقط عليها.

أما الآخران فكانا يتبادلان الحديث، فالرجل يتحدث بصوت متهدج ومتقطع بنبرة غربية، وأحيانا تعتري كتفيه حركة لا إرادية، ويداه مكتوفتان. أما المرأة الشقراء فكانت تجلس هادئة كهدوء أهل الشمال، يشع النور من وجهها الأبيض الشاحب، والهالة التي تنبعث من شعرها الذهبي تشبه تلك التي تحيط الملائكة.

وإذا نظر إليهما أي شخص يتساءل: هل هما أب وابنته؟ أم شقيق وشقيقته؟ إنني أحس حبه لها إلى درجة العبادة، ولكنها ليست زوجته، ينظر إليهما بعينيه المنطفئتين ويقول: "يولد انسان، ويموت آخر.." وتململت المرأة الحامل، أما الأخرى فقالت: "ماذا تقول يا فيليب.." كأنها غير راضية عما يقوله.

ربما لم يكن عجوزا، فشعره يبدو رماديا، ولكن هناك آلام غامضة تستولى

عليه، فالجو المحيط به، والشفقة عليه من المحيطين به، والحداد الذي لا يطاق كلها تدل على أن أيامه في الحياة قد أوشكت على الانتهاء.

وحتى يقطع الهدوء الذي عم الحجرة، يواصل الحديث بعد أن بذل جهدا واضحا، والموضع الذي اتخذه مجلسا له بيني وبين النافذة جعل الحديث ينتشر في فضاء الحجرة، فتناول موضوعات شتى، تحدث عن أسفاره وعن زواجه ولكنني لم أسمع ما قاله بالتفصيل.

ودبت فيه الحيويه وارتفع صوته حزين النبرات عميقا، يملأ التأثر كل كلمة تخرج من فمه، وفي كل حركة، وفي كل نظرة مما جعل حديثه كبيرا ومؤثرا، ومن خلال حديثه وحركاته استطعت أن أتبين طبيعته قبل أن يفاجئه المرض، طبيعة نشيطة مملوءة حيوية.

ثم اعتدل في جلسته، وأدار رأسه حتى استطعت أن أسمع صوته جيدا، كان يسرد أسماء البلاد التي زارها إيطاليا- مصر- الهند، ثم توقف قليلا كأنه يهرب أو يختفي أو يستريح وتحدث أيضا عما يرغب في مشاهدته ورؤيته ولكن الشفق كان قد تغلغل شيئا فشيئا، وتبدد الدفء كأنه حلم جميل، وفكر في كل ما رآه فقط: "كل ما شاهدناه، وكل ما حملناه معنا في الفضاء".

كان حديثهم كحديث هؤلاء الرحالة الذين يجوبون البلاد ولا يهدأون مطلقا، كأنهم في هروب أبدي، ثم توقفوا لحظة ضاق الكون بهم.

ولما كان الرجل لا تواتيه الجرأة على أن يتحدث عن المستقبل أخذ يتحدث عن الماضي بلذة المخمور المنتشي، وكنت ألحظ في حديثه المجهود الذي يبذله ليعثر على ذكرى من ذكرياته في الأيام التي ولت، وسمعته يقول كمن يحلم:

- باليرن.. سيشيل - وتوقف قليلا ثم قال - كاربيا.. كاربيا.. هل تذكرين يا "آنا" ذلك الصباح الجميل الساطع حيث كان سائق الذورق وعائلته يجلسون إلى منضدة وسط الحقول، كم كانت الطبيعة حانية دافئة والمنضدة مستديرة شاحبة كأنها كوكب والنهر يتلألأ متألقا تحت أشعة الشمس، وأشجار الفاو

الوردية وأشجار التمر هندي على شاطئه، وهناك الخزان غير بعيد، تسطع عليه الشمس التي تزدهر بأشعتها أوراق الشجر، وتضفي على الحشائش لونا ورديا باهتا، والأيكات تبدو كالحليّ، والرياح هادئة ضعيفة أقرب إلى الابتسام منها إلى التنهيد.

وأثناء حديثه، كانت المرأة تنصت إليه بانتباه، وتتلقى عباراته بهدوء، ورباطة جأش، كلها صفاء ونقاء تنعكس من نفسها كأنها المرآة.

واستطرد:

- ولم تكن عائلة السائق كاملة العدد فكانت الفتاة مبتعدة عنهم حتى لا تسمعهم، تجلس على مقعد ريفي، ترتدي ثوبا متواضعا بسيطا، تظلها ظلال شجرة ضخمة خضراء، حالمة، كأنها على شاطئ غامض تحيطه ألوان الغابة البنفسجية اللون. وكنت أسمع طنين الذباب، ذباب الصيف في "لمبارديا"، حول النهر الذي يجري متعجرفا تارة، وتارة أخرى مستقيما -ثم قال هامسا- من يترجم طنين الذباب هذا إلى شعر. هذا محال، ربما لأن الطنين لم يكن أبدا بمفرده، بل كان مصحوبا في كل مرة بموسيقى الطبيعة.

واسترسل في حديثه قائلا:

- وهناك تحت شمس المكان، واتتني ذكريات أخرى، كان ذلك في لندن، في متحف، أمام لوحة تعبر عن الريف الروماني بشمسه المشرقة وشاب إيطالي صغير يقف مادا رقبته. وبين جمود الحرس وانقباضهم، وتيار الزائرين الذين بللهم المطر، وفي الضباب والرطوبة، كان يتلألأ، كان صامتا واجما تملأه شمس غامضة، يداه معقودتان تقريبا، كأنه يبتهل إلى اللوحة المقدسة.

وقالت آنا:

- ورأينا كاربيا مرة أخرى، فقد سنحت الفرصة لنا بالمرور منها في رحلاتنا في نوفمبر حيث كان النهر متجمدا، وكنا جميعا نرتدي معاطفنا ذات الفراء من شدة البرودة.

- نعم، وكنا نسير على الماء، كم كان هذا عجيبا وموحشا، للناس الذين كان الماء مصدرا لرزقهم كانوا يسيرون عليه: سائق الزورق والصيادون، والملاحون، والغسالات وأزواجهن. - ثم توقف وقال- لماذا تبقى بعض الذكريات خالدة لا تفنى؟ - ودفن وجهه بين يديه الحزينتين العصبيتين وأخذ ينشج ويقول- "لماذا.. لماذا؟".

أما هي، فقد كانت ترغب في مشاركته ذكرياته، فقالت له:

- وكان قصرك في "كييف" بأرضه الخصبة وفي ركن من أركانه أينعت أشجار الزيزفون والسنط. وكان كل مكان فيه تفترشه البسط الخضراء، مزدهرة في الصيف، مورقة في الشتاء.

- وهناك أيضا رأيت والدي، تبدو عليه الطيبة وكان يرتدي معطفا سميكا من الجوخ بوبرة كالقطيفة ويضع على رأسه قلنسوة من اللباد تصل إلى أذنيه حتى تغطيهما، ولحيته طويلة بيضاء، تدمع عيناه من البرودة.

وبعد ذلك عاد إلى أفكاره.

- لم أحمل في نفسي هذه الذكرى من والدي دون غيرها؟ أي شئ خارق للعادة يشدني إليها؟ لست أدري ولكن هنا صورة والدي، هكذا تستمر روحه بداخلي، وبذلك لم يمت.

ثم اعترته رعشة حينما قال:

- أحب باكو، لم أر هذه البلدة مرة أخرى بالقرب من آبار البترول وقوس قزح بألوانه المختلفة، في سماء واسعة لا أفق لها، وطرق ممتدة بلا نهاية، تبدو فيها الأخاديد كأنها قضبان، والمبان السوداء اللامعة، ورائحة البترول في كل مكان، حتى غابت رائحة الزهور ورائحة البحر الأزلية. لم أزر أبدا هذه البلدة مرة أخرى، وفضلا عن ذلك لم أكن أعرف فيها أحدا، وفي العام الماضي كان هناك "بورين" البخيل، لا يعمل شيئا سوى جمع ماله وحسابه.

فقالت المرأة الشابة:

- متى شعر بقرب منيته يقول "سيحل بي الخراب".

وأخذ نور النهار في الاضمحلال وبدت المرأة أكثر جمالا ووضوحا. وقال الرجل متحدثا عن البخيل وكانت أمارات الطيبة تبدو على ملامحه:

- لماذا لا تبدو الطيبة على البخلاء؟ الذين يحبون الشيئ حبا ذاتيا؟

وسرت في جسده المريض رعشة خفيفة هزت كتفيه فسأل المرأة قائلا:

- أرجوك، أغلقي النافذة إني أشعر بالبرودة.

وساد السكون مرة أخرى بعد أن أغلقت النافذة وقالت:

- استلمت خطابا من "كاترين دي بيرج.

- هكذا دائما.

- نعم فالندم سيقتلها، فخير ما تفعله هو التنقل من بلد إلى آخر، وفي الأسبوع الماضي كانت في جزر "باليار"، فهي دائما تجر ذيول ترملها الذي يحتاج إلى المواساة وتحارب شبابها وجمالها وهي لا تهدف من وراء هذه الأسفار الا زيادة حدادها ووضعه في كل مكان في العالم، ففي الواقع، هي لا تريد أي نوع من أنواع اللهو والتسلية، وهذا مما يكدر صفوها إذا ما نسيت لحظة أن تتأثر من الحياة. وذات يوم رأيتها تبكي، لأنها سبق وابتسمت، ومع ذلك فإن حزنها هادئ كالسماح الذي يعلو وجهها.

ورأيت خيال الرجل من خلال الستائر، شاحبا، تحمل رأسه رقبة نحيلة هزيلة، ورفع يديه قائلا:

- إن الألم الحقيقي موجود فينا، لا يُسمع ولا يُرى، ولكنه يمكنه بكل سهولة أن يوقف كل شئ، حتى الحياة نفسها، فأعظم صور الألم الحقيقي هي "الهموم".

ثم أخرج من جيبه علبة الدخان، وأشعل لفافة، بذراع نحيفة، ورفيعة كالدخان الذي ينفثه، وتحت جذب كل نفس من أنفاس السيجارة، ومع كل نفثة من نفثات الدخان كنت أرى ضبابا كثيفا.

ولم يكن الدخان الذي يدخنه دخانا عاديا، بل كانت له رائحة خاصة كأنها مركبات طبية تميع لها النفس.

ومد يده إلى النافذة المغلقة، وستائرها المرفوعة قليلا وقال:

- انظروا... هذا "بيناريس وهاليهاباد".. حريق ذهبي، توهج في الجو الرمادي، ووميض الناس الأغراب. ليسوا أناسا بل تماثيل لآلهة تحت سماء بنفسجية اللون في المساء.. يتحركون.. كم نحن نختلف عن هذه المخلوقات.. اذا كان هذا حفل فخم، حيث تغدق تيجان بابوية عظيمة وزينات جليلة للنساء وعلى الشاطئ الكاهن الأكبر، وشعره يعلو رأسه طبقات فوق بعضها.. من يعتقد انه على حق؟ والآن اتسعت حلقة الماضي، ليجعل الجهد شاقا وثقيلا كأنه يوسع نطاق الجحيم والعذاب. كل هذه الأسفار، والبلاد التي تتركها، كل هذا لا فائدة منه، فالأسفار لا تتقدم في السن، ولكن لماذا تتقدم بنا السنون مع كل خطوة نخطوها؟ هل لدينا الوقت لأن نضع هذا الوزر الذي يثقل كاهلنا لنكون على يقين بما نقضيه. وبالرغم من ذلك، فالمسافرون لا يعرفون سوى القشور حتى هذه اللحظة، فلم تكن هناك أسفار في الماضي، وكل شئ قد مضى. وفي هذه الليلة طرأت على فكري ذكرى حافة الجبل والأراضي والأدغال العالية ببلاد الغال، تشدني إلى فرسان المائدة المستديرة.. الملك "آرثر" وأصدقائه.. يخيل إلى إنني قريب منها، وأرى أحدهم يضع على رأسه خوذة غريبة، وعيناه في مثل لون الزمرد ينظر إليّ ويثلجني، والآخرين كأنهم أشباح، والمائدة الحجرية مستديرة وسط الضباب الكثيف الذي ينتشر في الغابة، وكانت المائدة مستديرة حتى اذا ما اجتمعوا حولها واقفين لا يكون لأحدهم حق التصدر على الآخر، فكانت شبه رحى هائلة، جديدة، بيضاء دقيقة الصنع والنحت... الف عام.. ألفين، ثلاثة آلاف عام.. وشاطئ طروادة.. أتتذكرين يا "آنا" ذلك الخط الذهبي الذي

تلاقينا عنده؟ والبطل اليوناني الذي كان يسير بخفة على الرمال، وقد أضفى عليه ضوء الفجر لونا ذهبيا يميل إلى السمرة، انني أرى أثر خطاه على الرمال وعلى حافة كل أثر من هذه الآثار التي تركها، وقد انهار عليها قليل من الرمال الذهبية، والبحر ساكن بجوارها. إنني أرى الأثر الذي ألقته آخر موجه على الرمال المبتلة وجات حصوة كبيرة تحت الحذاء البرونزي فأحدثت صوتا، إني أسمع الصوت الذي أحدثه الحذاء. أتتخيلين هذا يا "آنا" خطواته، وقع أقدامه الذي اختفى منذ آلاف السنين، أتتصورين الطفرة التي تلزم لتحقيق هذا؟ آثار أقدامه التي اختفت في اليوم التالي ولم يبق لها أثر ومع ذلك فقد كانت. أين هي؟ أين هي؟ إنها فينا نحن طالما نراها، في زمن غير الزمن، وفضاء يختلف عن الفضاء.

وبعد هذه العبارة العجيبة المبهمة ساد صمت طويل والمرأة لا تشعر بأنها جديرة بأن تقطع هذا السكون حيث تتجلى حقيقة لا نريد أن تطفئها.

واستطرد:

- وارتطم سيفه بصخرة، فأحدث صوتا مجلجلا وهو داخل غمده، ليحدث فجوة، ثم أمسك بساق رخوة لشجرة صنوبر حيث تساقطت بعض الأشواك الجافة عليه.. وهناك.. هناك شئ يتحرك في الغابة.. حيوان يجري في غابة الصنوبر.. كلب يجري وفي فمه شئ.. كلب هذا الرجل، يحمل في فمه حزاما من الجلد قد أصابه الجفاف من الأملاح، حزام طروادي.. طروادة، والمذبحة التي طالما تغنى بها "هوميروس" منذ مئات ومئات السنين "ووصل المحارب على طيف، شاخصا ببصره ناحية البحر، له أنف مسحوب ودقيق، وتطل جبهته العريضة من تحت خوذته الحديدية، له حاجبان دقيقان، تضطرب عيناه المتوقدتان تحت أهدابها، ولكن هناك شيئا أتفحصه.. يداه.. يداه شبه مطبقتين، وأظافره قصيرة ومحدبة.. ولون أصابعه كلون ظهره، لون متأجج

يميل إلى الحمرة، كأنها منحوتة من القرميد ومرصعة بالحصى اللامعة. ثم رأى الشاطئ، والبحارة وقد انشغلوا بإنزال المراكب يدفعونها حتى لا تصطدم بالشُعَب الصخرية النابتة في قاع البحر، إلى أن تصل إلى عرضه.. ورحل الأسطول اليوناني في هذا اليوم. في المساء تحت جنح الظلام وتحت ضوء النجوم، ورفعت المراسي وتباشير الصباح تتلألأ في الأفق.

وبعد هذه التأملات، خفض الرجل جبهته المنهكة، واسترسل في الحديث:

- إنني أرى امتداد المياه، وأرى هذه المياه عن كثب، هادئة هدوءا مطبقا، تتلاطم في لطف ودعة وترغى وتزبد تحت ضوء فضي جميل. لم هذا السكون "اللامحدود"؟ ها هم على كوكب آخر ابتعدوا منذ زمن طويل.. لست أدري ربما مئات القرون.

لقد سمعت ما قاله، ورأيته هو أيضا. مشهد خيالي والرجل تحجبه الظلال، والذكريات وصاحب الذكريات.

هناك اختلاف يصعب التعبير عنه في سمو التأمل والشئ الذي يتأمله. كأن في مخيلته قائمة بالبلاد التي طاف بها والقصور التي خاض فيها، وذكريات أخرى متكدسة، متكتلة، تتسارع، كأن الزمن يهاجمه بكثير من الذكريات. ذكريات يتحدث عنها حديثا متقطعا، وأخرى لا يجد لها وقتا ولا قوة لسردها، فهو لا يستطيع التنصل من هذه العظمة الساطعة التي توجد فيه. تراه جالسا وقد القى برأسه إلى الخلف، وبدون شك قد أسدل أهدابه.. وذكرياته، ذكرياته التي تعبر عنها الآلام التي كانت ترتسم على وجهه حين طاف بها.. لقد سمعت هذه الذكريات وأعجبتني.. والآن بعد أن كان بذكرياته مفتتنا، تحول إلى شاكي:

- واتذكر أن قلبي لم يكن شفوقا علي. آه إن الإنسان لا يستطيع أن يودع الجميع.

نطق هذه العبارة بنبرات كلها آلام واستسلام.

وهي، لم تستطع شيئا حيال هذا الوداع "اللا محدود" الذي يملأ العيون، عيون هذا الرجل ونظراته الأخيرة، هنا ماض قد ولى وانقضى يشتهيه ويناديه، ويتمنى لو يعيده من جديد، فهو يحب ماضيه فالماضي له شكل مقدس، قاسيا كان لا يرحم أم ساكنا لا يتحرك، لأن المؤمنين والجاحدين يرون أن الله تتجلى هيئته العظيمة في أن يتركنا نبتهل إليه.

وأصبح الرجل وحيدا مع المرأة بعد أن أنصرفت الحامل تسير برفق وفي حذر الأمومة وضمتهم الغرفة التي لم تخلو من قبل.

واصل حديثه مع المرأة قائلا:

- وينقضي يوم آخر - وأضاف كأنه يستكمل فكرته - يجب الاستعداد للزواج.

فأجابته المرأة الشابة:

- ميشيل ليس في حاجة إليه فهو يعلم إنك تحبينه يا "آنا"، ولن يهتم بالشكليات أو بزواج يعتريه التزمت.

ها هما قد احتوتهما الظلال في هدوء ولطف. هو، نحيف تخرج عبادته من أعماق حياته وهي تجلس أمامه، جسدها ممتلئ قليلا وأنفاسها متلاحقة وواضحة، وقد أطلق لعينيه العنان تسرح فيها. ثم قال بكل بساطة:

- أحبك كثيرا.

- آه، انك لن تموت مطلقا.

- كم أنت طيبة القلب لأنك تفضلت على بأن تكوني أختي لوقت طويل.

فعقدت يديها أمام صدرها وانحنت نحوه كأنها تسجد له وقالت:

- انك صنعت الكثير من أجلي، أنت.

وكان حديثها صريحا، فقد فتح كل منهما قلبه للآخر، وليس هناك أجمل من أن يتحدث المرء بصراحة دون تورية أو خجل آثم، وأن يصارح كل منهما الآخر بطريقة مباشرة.إنها معجزة للسلام والبقاء.

بعد ذلك أغمض عينيه كأنه يريد أن يحتفظ بها بين أهدابه، ويفتحها عليها وهي أمامه ويقول:

- انت ملاكي الذي لا يحبني.

وبعد أن قال هذه العبارة رأيت وجهها ينطفئ ويظلم فلمست في الحال مقدار الحب الذي يكنه لها، وهي تعرف ذلك، وكم أثر فيّ هذا المشهد البسيط "اللا محدود" الذي يجعل القلب يسهم في الطبيعة. لقد أظلم وجهها، وأيقنت أن هناك حبا عظيما يشده إليها، وهي على علم بذلك، كما يبدو ذلك واضحا في تصرفاتها حياله، وفي حديثها معه، وفي نظراتها إليه، وفي محاولاتها بشتى الوسائل أن تواسيه في حركاته وسكناته وتعوض له الألم الذي تسببه له.

وبعد أن تأملها مليا، وجعلته الظلال أكثر قربا منها قال هذه العبارة: "إنك نديمة حبي المسكينة".

ثم عاود الحديث عن الزواج، بما أن كل الاستعدادات مهيأة، لم لا تنتهي في الحال؟

- اسمي وثروتي يا "آنا" ستئول من بعدي إليك عندما.. عندما.. سأكون مجرد عابر سبيل.

وللأسف يريد أن يبسط يديه بالمعروف، النعمة الدائمة للمستقبل الغامض المبهم بينما لا يبغي في الوقت الحاضر سوى تحقيق هذه الكلمة: الزواج.

"لم الحديث في هذا الموضوع؟".

فلم تجب بطريقة مباشرة، واستولى عليها شئ من الاشمئزاز- دون شك- بسبب هذا الحب الذي يعترف به لها، وبقيت صامته لا تجيب على هذه التوسلات التي تنتقل منه إليها كما تنتقل النظرات.

ولكن، أليست هي الآن على شفا الموافقة وعليها أن تتخذ قرارا بالرغم من المصلحة المادية التي تعود عليها من هذا القرار الذي يجعلها خاضعة له، ويربطها به؟ وتتمتم "أخبرني؟".

وكنا، أنا وهو، ننظر إلى ثغرها الباسم، هذا الثغر كأنه المحراب، أو في وجه قديسة يبتهل إليه الجميع، وتوضع فيه الآمال الكبار، كما ترى فيه أيضا جمال الليل.

وقال المحتضر، وهو يأمل في الموافقة: "أحب الحياة... "وهز رأسة وقال:

- لا رغبة لي في أن أنام الليل.. فالأيام الباقية لي قليلة.. قليلة.

ولاذ بالصمت بعد هذا ليسمع جوابها.

فقالت: "نعم"، وربطت على يد العجوز بتثاقل.

وراع انتباهي بالرغم من هذه الحركة التي تعتبر مشهدا مسرحيا، أو سمة لكبرياء في نفسها وأرى- كما أرى كل شئ- ان التضحية تحمل في ذاتها كبرياء مجيدا.

وأصبح الحديث في البنسيون لا يدور إلا عن هؤلاء الأغراب الذين يشغلون ثلاث غرف وعددا لا بأس به من الأمتعة وأن الرجل على جانب كبير من الثراء، وأنهم جاءوا إلى باريس حتى تتم المرأة الحامل وضعها حيث أنها في الشهر الأخير.

ومدام "لومرسييه" ترى أن الرجل متقدم في السن وعلى قيد خطوات من الموت وتخشى أن توافيه منيته في بنسيونها نظرا لأنها وافقت على استئجارهم للغرف بعد توصية من معارف لها وإلا فما كانت قبلتهم عندها وتأمل أن يطول أجله حتى يغادر البنسيون.

أن من ينظر إليه فعلا يوقن أنه على وشك الموت، فهو يجلس على المقعد الكبير، يستند بمرفقيه إلى مسنديه، ويبدو عليه الضعف. حتى نظراته تخرج منه بعد جهد كبير.

ولما كان يخفض رأسه، يسقط ضوء النافذة على أهدابه، وليس على حدقتيه فبدا وجهه كأنه به خدوشا.

وأمام هذا المنظر، سرت في جسدي رعدة وتذكرت ما قاله الشاعر وأنا أمام هذا الرجل، الذي انتهت أيامه والذي يَسوَد وجوده بطريقة مخيفة والذي يكسوه جمال تقف القدرة الالهية نفسها أمامه حائرة.

وبينما كان المريض في انتظار الطبيب أخذ يتحدث عن الموسيقى فيقول: لماذا يتمسك المرء بالعادة؟

لقد كان النظام مبدءا للخلق الإنساني، مبدأ كبير في كل مكان بالطبيعة المتغيرة، والخضوع لقانون الطبيعة الذي يجب العمل به مهما كانت طبيعته، وهذه فضيلة تجعل الطرق مختلفة، وتخلق سلما متساو الدرجات في جبل من الضوضاء، لأن الفوضى ليس لها روح، بينما النظام له فاعليته ويدفع إلى التفكير.

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن انسجام وحدة النغم وجزئياته ولم يصل إلى سمعي سوى مقتطفات صغيرة من حديثه كما لو كانت الريح تجمع في سرعة خاطفة نسيم الريف والبحر الواسع.

ثم سمعت طرقا على الباب، موعد الطبيب، فنهض، وهو يقول "ان هذا السيد دائما ينتظرني".

وسأله الطبيب:

-كيف حالك منذ أمس؟.

- لست على ما يرام.

فقال الطبيب بهدوء:

- هيا.. هيا.

وغادرت المرأة الغرفة وتركت المريض مع طبيبة يجلس بطريقة تبعث على الضحك، والطبيب واقف بيني وبينه ثم سأله ثانيا:

- ها، حسنا، كيف حال القلب؟.

واتخذ المشهد مظهرا جديا، فبعد أن كانا يتحدثان بصوت مسموع، خفض كل منهما صوته، وسرد المريض على طبيبه كل ما يشعر به في يومه، والطبيب يستمع إلى شكواه ثم يقول له العبارة المطمئنة: "لا.. لا.. لا أرى شيئا جديدا".

وجلس الطبيب، ورأيت المريض وقد تغيرت ملامحه، ونظراته بسبب حديثه عن مرضه المشئوم، وبعد أن هدأ شرع في الحديث مع الطبيب، وهو يلعن

هذا المرض فقال:

- يا للخجل..

فأجابه الطبيب وهو ينهض:

- سأنصرف وأراك غدا

- نعم للاستشارة؟

- هو ذاك، إلى اللقاء غدا.

وانصرف الطبيب حاملا معه ذكرياته الدامية، أخذ معه كل هذا الوزر، البؤس والشقاء وهو لا يعرف مقداره.

وفُتح الباب مرة أخرى بعد الاستشارة الأولى مباشرة، ودخل طبيبان، أحدهما شاب والآخر متقدم في السن، تبدو على وجهيهما أمارات الضيق.

وظلا واقفين، ينظران إلى بعضهما، وحاولت أن أتعمق في هذا الهدوء الذي يسود نظراتهما ووجهيهما وكنت أحاول قراءة افكارهما، والطبيب العجوز يداعب لحيته وهو متكئ على المدفأة، ثم قال بعض الكلمات بصوت منخفض خوفا من أن يسمعه الآخرون وخوفا من نطق الحكم بالأعدام.

وهز الطبيب الآخر رأسه كأنه يوافقه على افكاره ولاذا بالصمت من جديد كطفلين قد اقترفا اثما.

- كم عمره؟

- ثلاثة وخمسون عاما.

فقال الطبيب الشاب:

- الحظ ساعده على الوصول إلى هذا السن.

حينئذ اجاب الطبيب العجوز بلهجة فلسفية:

- لقد بلغ هذا العمر والآن لن يتقدم أكثر من هذا.

***

وبعد صمت عم الغرفة، قال الطبيب ذي اللحية الرمادية وهو يضع اصبعه على رقبته:

- لقد لاحظت الورم اللحمي عند الكسر مباشرة خلف الشريان التاجي.

أما الآخر، فقد حرك رأسه، والعجيب أنه منذ أن دخل الحجرة وأنا ألاحظ أن رأسه لا يكف عن الحركة، وأجابه: "نعم.. لا يمكن إجراء عملية"

وكان رد الطبيب العجوز عليه، وعيناه تلمعان:

- ليس هناك سوى شئ واحد يمكن أن يريحه وهو: الموت، وأرى أن هناك نواة في الغدد اللعابية تحت عظمتي الأنف، وتحت الترقوة، وبدون شك مفصل الكتف أى أن الكارثة عظيمة، فسيصاب كل من الجهازين التنفسي والهضمي وكذلك الدورة الدموية بانسداد، وحتما سيؤدي ذلك إلى الاختناق.

ثم زفر زفرة، وبقي مكانه، يضع سيجارا غير مشتعل بين شفتيه ويداه معقودتان، والطبيب الشاب جالس على المقعد وهو يداعب رخام المدفأة بأصابعه. وقال أحدهما:

- عندما يتعرض المرء لمثل هذه الحالات فالمرجح أن السرطان يكون قد استقر في مكانه.

- سيدي، ماذا سنقول للمرأة الشابة؟

- أخبرها بأن الحالة خطيرة، خطيرة جدا، وإننا بذلنا ما في وسعنا وكل ما نستطيع بذله من جهد وقدرات وهبتها الطبيعة "اللا محدودة" لنا.

- العبارة المعروفة..

- أفضل..

- واذا اصرت وأرادت أن تعرف أكثر؟

- حينئذ يجب أن تدير رأسك ولا تجيب.

- ألا تعطيها قليلا من الأمل، إنها مازالت شابة؟

- بالعكس لأن رد الفعل عندها سيكون أكثر خطورة وسيعود علينا نحن وستتهمنا بالجهل، والكراهية.

- وهو، هل يعرف؟

- لست أدري، فعند فحصي له، كما كنت ترى، كنت أحاول أن أتخذ حذري وأنا أسمع إجاباته، فأحيانا يساورني الشك بأنه لا يدري عن حالته شيئا، وأحيانا أخرى أشك في أنه يرى نفسه كما أراه.

ومن جديد، عادا إلى الصمت المطبق، لم يتفوها بكلمة واحدة، كأنهما ما جاءا هنا إلا لينظرا إلى بعضهما.

ثم ما لبثا أن تبادلا حديثهما النادر، بحذر، ولكن أمام هذا الجرح الخطير ارتقيا بحديثهما إلى درجة لا بأس بها، وأحسست فعلا بما يدور في خلدهما ثم رنت هذه العبارة: "وهذا ينمو كما ينمو العقل".

واسترسل الطبيب العجوز في الحديث فقال:

- كالطفل تتغذى الجرثومة على الخلية، كما قال "لانسيرو" على طريقة الـ "سبير ماتوريد" فهي كائن دقيق يتغلغل في الخلية ويخصب فيها، وتكون لها قدرة على التكاثر، وتتخذ شكلا جديدا لحياتها وتصبح الوسيلة المانعة لهذا النشاط المعتاد للخلايا، جرثومة طفيلية بدلا من أن تكون البذرة العادية للحياة. ومهما كانت طبيعة هذا الـ "بريوم بوفنس" أو الـ "ميكرو كوكسوس فيوفورنس" أو نتيجة التكاثر غير المرئي للكائنات الباشلورسية لـ "كوش" أو أي كائنات أخرى. فدائما ما يكون تزايد نسيج الخلايا الطفيلية السرطانية في البداية مثل نمو نسيج الجنين.

- ولكن الجنين يصل إلى نهاية.

- تعيش الجراثيم في أماكنها إلى سن البلوغ، وتكون الأغشية السطحية الخاصة بها، والتي أطلق عليها "كلود برنارد" في كتابه: "ليمتيانت" والجنين ينتهي ويولد من جديد. بينما النسيج السرطاني نفسه لا ينتهي فهو يسير في

نموه إلى مالا نهاية. واليوم يظل جرثومة لا يمكنها أن تنمو بشكل كامل أو هارموني فهي تنمو، دون أن تتخذ شكلا معينا أو هيئة مميزة، واذا استؤصلت تبدأ في التوالد من جديد بنسبة 95% على الأقل. فما حيلة أجسادنا بصدد هذه الأجسام التي لا تنتظم ولا تخرج؟ وما هي الخلايا التي يمكن أن تضاهيها سواء في جسدنا أو هياكلنا العظمية، أو أي جهاز في جسدنا، أو تجري في دمائنا، ما عسانا نفعل لمواجهة هذه الكتلة التي لا حل لها ولا حدود؟

وأومأ الطبيب الشاب برأسه موافقا وقال من أعماقه أنه سيبحث، لست أدري أين؟ عن هذه الفكرة التي لا حد لها: "ككلب فاسد وعفن"

ثم اقتربا من بعضهما وقال الشاب للعجوز:

- إن الأمر جد خطير أكثر مما نتصور.

وهز الآخر رأسه بالإيجاب.

- وعندئذ رغم أنه لا وجود لدليل قاطع، فلن يكون هناك احتمال أكبر من احتمال هذا التبسيط الرهيب الذي نتكلم عنه!

فأجاب الآخر بصوت ضعيف وكأنه يفكر:

- أجل. أن جميع الأمراض ناتجة عن الأشياء نفسها. إنها الحياة غير المحسوسة التي تقودنا جميعا إلى الموت.

فتمتم الآخر كاتما صوته بدوره:

- إننا سنجد الآخاء في المرض كما في العدم. إن جرثومة الموت الوحيدة، اللامتناهية الصغر والتي تزرع في الأجساد الحصاد الرهيب، ستكون هي تلك الجرثومة التي يبدو أن دورها حياديا حتى الآن، وقد مرت بها الانسانية دون أن تراها. إنها الجرثومة النهائية. فهي تكثر في الأمعاء الغليظة وهي موجودة بالمليارات داخل جسم الكائن السليم، وهي تتجول- في مجال يحتوي على القوقسات- إلى كرة عنقودية ذهبية، كالخراج أو الدمل الغربالي الذي يميت بعض أجزاء اللحم. وهي تتحول أيضا في الأمعاء الدقيقة إلى مولدة للدمل التيفي.

كان رجل العلم يتخذ سيماء من العظمة والعمق كلما حدد اسم العدو الذي لم يقهر حتى اليوم:

- وهي التي تتحول أخيرا في مجال يحتوي على القوقسات إلى عصبية كوخ.

- وعصبية الكوخ ليست هي السل التدرني فحسب، بأشكاله الرئوية والحنجرية والمعوية والعظمة. لقد اكتشفها لاندوزي في سوائل ذات الجنب، و اكتشفها كوخ في البثور الباردة.

فقاطعه العالم الشيخ التي كانت عيناه منتبهتين تماما:

- هل أمكن في الأصل إحصاء الأنواع اللا محدودة للآفات السلبية الأصل؟

- لنأخذ العصبية الرئوية، ذلك أن الرئة مصابة دوما حتى عند المريض الرشيد.إن ظهورها يؤدي إلى تكوين الدرنات، وهي أورام صغيرة تصاب بالتآكل، بسبب عدم وجود أقنية، ويؤدي ارتخاؤها وقشعها إلى زوال العضو والموت اختناقا. إن الدرنة هي الجرثومة السرطانية في مرحلتها الأولى. وعصبية الكوخ هي صانعة تكوين جديد. ذلك أن كل عضوية صغرى انما توجد في العضوية صانعة التكوين الجديد. وهو نوع عظيم قادر على الخلق، يصعب تحديده علميا. فالدرنة تتكاثر، لكنها تظل صغيرة الحجم، ولهذا قال نيرشوف إنها ورم معدي فقير. لكن الطفيلي لا يستطيع أن يسبب السل التدرني عند المصابين بداء المفاصل الذين يعيشون حالة عصبية تصل إلى الانهيار، مصحوبة بانخفاض في الحرارة. وهو ينتقل إلى الدم مع الهضميات عن طريق مسالك الكيلوس.فالدم يحمل الفليكوجين، وهذا السكر البشري الذي لا تستهلكه الحرارة المرتفعة، يضعه التخثر الوريدي بكمية كبيرة جدا إلى العناصر التشريحية للأنسجة الغددية أو السلبية. وهنا يتطور بدون حمى، ما يمكن أن نسميه بجرثومة سرطانية جديدة، فبدلا من عدة درنات، لا توجد الا درنة واحدة ضخمة تتطور، إنه السرطان بشتى أشكاله ومختلف أسمائه: السرطان اللحمي والغدي والظاهري والمتحجر واللمفاوي.السرطان

اذن نتاج مرتبط بتراكم الفليكوجين عند المصاب بداء المفاصل الراشد الواهن وعند غير المصاب بالحمى أيضا.

فقال الأكبر:

- أجل، أجل، هذا ممكن. لكن ما الدليل؟ إنها نظرية جميلة لكن هل هناك من برهان تطبيقي؟ ذلك أن هناك على كل حال فرقا مورفولوجيا بين الورم والدرن.

كان يبدو عليه الميل إلى السخرية، والاستعداد للتوقف لكي ينهل من موقفه وتجربته.

فأجابه:

- إذا درسنا عددا معينا من أنواع الأورام، نلاحظ أن عددها متناسب تناسبا مطردا وأن حجمها متناسب تناسبا عكسيا، مع حرارة الذات التي نصنعها.

كان يستعيد في ذهنه وقائع وأرقاما. وكان يرمي بها إلى الأمام كما لو كانت أسلحة. وكان متحمسا بتقديمه هذا العرض الكامل، عديم الشفقة، ليدافع عن فكرته الكبيرة عن التبسيط، والتي تضفي طابع المأساة على الانسانية جمعاء.

- والسل الذري يتطور بأورامه شبه المجهرية التي لا تقع تحت الحصر من الدرجة44 إلى الدرجة 45 ويتطور السل الدخني من الدرجة 40 إلى الدرجة 41، لأن حجم منتجاته في حجم حبوب الدخن. ويتطور السل العدسي من الدرجة 39 إلى الدرجة 40. ويتطور السل البطئ ذو العقد الضخمة السطحية من الدرجة 37 إلى الدرجة 38. وفي الدرجة 37 تظهر أورام عقدية كبيرة الحجم، تؤدي إلى البثور الباردة (ويدخل في هذا النوع: الوراك والأورام البيض ومرض اليوت).

وفي الدرجة 28 نجد، كما يجد دوبار، الأورام الضخمة الداكنة ذات الحديات التي تشوه جوانب الأسماك.

وتوقف بعد أن ذكر هذه الأمثلة، ثم تابع:

- يمكننا أن نرجع بالتجربة آفة من الآفات إلى آفة أخرى: نأخذ أرنبا ونلقحه بالسل، وحين يعطي الحيوان علامات الخور التي لا تتحمل الشك، نعيده إلى حيوان بارد الدم، بأن نبضعه بضعا سريعا على سوبة الفقرة الرقبية الأخيرة والفقرة الظهرية الأولى. واذا لم يمت الحيوان شللا، فسرعان ما سنشاهد تشكل ورم ضخم له مظهر السرطان، في جوفه أو على أحد مفاصله.

كان يحدق في وجه زميله ويقول:

- اذكر ما قاله باكر "لقد لاحظنا سير السل والسرطان المتوافقين وشاهدنا كثيرا أن السرطان يكف عن التغذي ويبس، ما أن تتولد الدرنات وتتطور بحرارة تتجاوز الدرجة 38 - ثم أضاف - أن السل هو الذي يسيطر بشكل عام على المأساة.كل شئ يكمن في تكوين السكر وتوزيعه الداخلي، وتنظيم هذا التوزيع للحرارة العضوية التي تحرقه لدى المصاب بالسل، في حين أن الفليكوجين يتجمع عند المصاب بالسرطان لفقدان الحرارة. إن السرطان سكري. وقد ألقى باكر الضوء على هذه العملية التي تجعل من الورم السرطاني نوعا موضعيا من مرض السكر. ولقد ثبت وجود السكر عن طريق صنع الشمبانيا الممتازة من سوائل السرطان. ولقد أعدت التجربة بنفسي. فحصلت على عشرة كيلو جرامات من المواد السرطانية الناتجة عن العمليات التي أجريت في مستشفيات باريس على مدى يومين متتاليين. ولما سحقت هذه الكتلة بالمكبس، أعطت لترين ونصف لتر من سائل عكر، يحتوي على السكر أكثر من أي بول سكري. ولما زرعت السائل في الخمائر، نتج عنه اختمار قوي وعطري. وأشار ميزان الكحول إلى درجة6. وحصلت بواسطة الأنبيق، على كحول درجته 60، واستخلصت منه تلك الشمبانيا الممتازة في المخبر".البشر اذن يتطورون حسب حرارتهم حين تجتاحهم الجرثومة المرضية نفسها: فمن كان منهم مصابا بالحمى الموهنة للقوى، وينفق أكثر مما يكتسب، أصيب بالتدرن وهو ورم قزم، ومن كان مصابا بمرض المفاصل

البارد، ويكتسب أكثر مما ينفق أصيب بداء السرطان وهو درنة جبارة.ويتبادل المرضان مرضاهما أحيانا. فمعظم المصابين بالسرطان مسلولون برئوت وبردوا. وكان "دوبار" هو أول من لاحظ ذلك، إن ما هو وقائي بالنسبة للبعض مهدد بالنسبة للآخرين.. (وفرة الفليكوجين أو الأفراط في التغذية).

أدلى الطبيب العجوز برأيه ثم راح يصغي من جديد باهتمام، ولكن وجهه كان بلا تعبير، بعد أن كون فكرته الخاصة.توقف المتحدث لحظة ثم قال:

- ينبغي أن ننظر إلى الحقيقة دون أن يفت الوهن في عضدنا، (لقد خلقنا لهذا، مع الأسف!) ودون أن نخاف من فتح هذا الباب السري والرهيب للشفاء من السل.

فقال الطبيب العجوز:

- مهما كان الأمر، فان هذا التشابه، وهذا التناسب العكسي الذي تعتقد أنك اكتشفته بين الرائيين، مدعومان إلى حد ما بالأرقام ومن الواضح أن هذين الاحصائين لهما قيمتهما التي لا تنكر، وإنهما متكاملان. ففي باريس يوجد مريض بالسرطان مقابل كل أربعة مسلولين. وحين يموت أسبوعيا مئتان وستون مسلولا في المدينة، فان خمسة وستين يموتون بالسرطان. وفي فرنسا، حيث يبلغ عدد وفيات السل سنويا مئة وثمانين ألف، يبلغ عدد وفيات السرطان ستة وثلاثين ألف مريض: واحد على خمسة، ان خمسمائة فرنسي يموتون بالسل يوميا، ومئة يموتون يوميا بالسرطان.

فقال الشاب رافعا عينيه الباردتين الصاحيتين في رجاء واع ولكنه غير مجد:

- كم سيموت منهم غدا؟ ذلك أننا لم نرفع الأجزاء من القناع ولم نعترف إلا ببعض الحقيقة...

فقال الأستاذ:

- أجل، إن الحقيقة لأكبر أيضا. إن فتك السرطان يزداد يوما بعد يوم، ولا شك أن الحياة الحديثة تضاعف من حالات القابلية للمرض والملائمة

أكبر تلاؤم للداء. إن الحالة العامة تسبب حتمية الآفة، وأكرر ذلك: فالمرض ممتنع الشفاء بسبب المريض. فما الفائدة من شفاء هذا المرض موضعيا عن طريق استئصال الورم الخبيث إذا كان المريض سيولد المرض من جديد، بعد أن يترك لنفسه؟ إننا لا نستطيع شيئا سوى أن ننظر إليه وهو يفعل ذلك! إن مسلولا واحدا تستأصل منه درناته، لا أكثر، سيكون أشبه بشخص أجريت له عملية جراحية محكوم عليه بالنكسة، كذلك فان البضع لا يشكل وسيلة كافية للدفاع ضد الأورام الخبيثة، وعلى كل فإن الوقائع واضحة: من أصل كل مئة مصاب بسرطان العظام أجريت لهم عملية جراحية، انتكس منهم اثنان وتسعون. والرقم نفسه يتكرر بالنسبة لمن عاودهم المرض من المصابين بسرطان الثدي: إثنان وتسعون، وبالنسبة لسرطان الأمعاء المستقيمة: ثمانية وتسعون. وبالنسبة لسرطان اللسان: تسعة وتسعون (وأومأ إلى الباب برأسه).

كان قد تناول، أثناء تفوهه بالعبارة الأخيرة، صفحة ورق رسائل من فوق المدفأة ومقصا، وراح آليا يقص الورقة. وفجأة ألقى بالورقة والمقص، إذ فهم غريزة حركته المبهمة. واستدرك قائلا:

- إنه يبدأ بإصابة الشباب.. آه آنني أرى، أري في ذاكرتي، الصورة القاسية لملاك صغير شفاف العينين، له ثدي ضخم ضارب لونه إلى البنفسجي كملفوف أحمر!. ان السرطان ينتشر في الانسانية انتشاره في أي كائن- وأضاف بسخرية حزينة سبق لي وتبينتها في صوته- إذا لم يوقف، فلن تعود هناك حاجه للتساؤل، هل سيفنى العالم بإطفاء الشمس!.

قال العالم الشاب وهو يرفع يديه إلى جبينه:

- بالإضافة إلى هذه القرابة العجيبة بين أكبر آفتين حيتين أي قرابات أخرى تضاف؟ الزهري، الذي لم أتكلم عنه، وغيره؟ إلى أي شئ ستنتهي بي، إلى أي شئ ستحكم على الأبحاث التي سأتابعها بعد خروجي من هنا؟ لست أدري.. إنني إذ أرى بلمحة عين خاطفة كل عفونة الجسد البشري، كل الجانب الموبوء من

بؤسنا، كل ذلك العناء الذي ينهار فيه الجنس البشري انهيارا حقيقيا، إنني إذ أرى كل هذا، فاني أتساءل كيف يجرؤ على الكلام عن مآسي أخرى!

إلا أنه أضاف، بعد أن قال ما قال، وهو يمد يديه اللتين كانتا ترتجفان ارتجاف يدي مريض، بنوع من العدوى الجلية:

- ربما أمكننا -ولا ريب- أن نشفي الأدواء البشرية. كل شئ يمكن أن يتغير. وسنجد النظام الملائم لتجنب ما لا يمكننا ابقائه من الأمراض. وعندئذ فقط سنجرؤ على التحدث عن المجزرة التي تسببت فيها الأمراض المتعاظمة والتي لا علاج لها اليوم. بل ربما أمكننا أن نشفي أيضا بعض الآفات غير القابلة للشفاء. إن الأدوية لم يتوفر لها الوقت لتثبت صلاحيتها. وستشفي أمراضا أخرى بالتأكيد لكنا لن نشفيه هو.

وبحركة لا إرادية، وبعد الحديث الذي تحدثه الطبيب العجوز، سقطت يداه بجواره، وانقطع صوته، وجلسا صامتين كأنهما في حداد.

واستطرد الشاب:

- نحن الآن في مواجهة مرض خطير ليس كما يعتقد العوام في أنه مجرد حدث مشئوم، فالسرطان غير معد، لذا فنحن أمام أزمة حادة وعاجلة لعلم الأمراض (الباثولوجيا)، فهي نوع من أنواع المرض الانساني. هذه حالة عامة تحدد الناحية الرديئة، والمريض هو الذي يتحمل خطورة الطفيليات الطفيليات هي الوحيدة التي تعيش في الخلايا وتسمى أيضا البكتريولوجيا، وهي التي زادت من اهتمام الطب وانشغاله في الحاضر أكثر من الماضي.

أما أنا فاني أعتقد في الخلايا الطفيلية.

قال العالم العجوز:

- إن النظرية حديثة وعلى كل حال فهي ممتدة ويجب الاعتراف بأن الطب، والكيمياء، والفيزياء، من العلوم المتعمقة، قد امتدت إلى العناصر المادية وعناصر القوى.

(ودار حديث بين الطبيبين الشاب والعجوز تناولا فيه مخاطر السرطان والأمراض الناجمة عن الميكروبات والبكتريولوجيات، ومواطنها من الأجساد والأنسجة والأغشية، والسرطان مرض عضال لا يصاب به أحد الا وكان الموت نصيبه لذلك زاد عدد الموتى بهذا المرض، وإصابة الاعضاء والمواضع في الجسد).

أما المريض، فكانت تحيطه العناية المقدسة، فقد كان هو محور الحديث، وذلك لانهما تناولا المشكلة بوجه عام.

- هو روسي أو يوناني؟.

- لا أدري فالكل عندي سواء، فأنا لا أنظر إلى دخائل الناس.

وقال الطبيب الشاب متمتما: الكل سواء خاصة وإن الهدف البغيض الكريه هو أن يكونوا أعدادا، وغير متشابهين.

ويبدو أنه كان متأثرا نفسيا مما دفعه إلى التفوه بهذه العبارة، فنهض وقد تغير لونه، وملأه الغضب.

قال:

- آه، أي خجل هذا الذي تمنحه الانسانية. فهي تتسلط على نفسها بالرغم من جراحها الهائلة، إننا نختلف عن بقية الناس، فقد طبعنا على الألم الذي يصيب البشر، فأنا لست رجلا من الساسة أو العسكريين فليست مهمتي أن أهتم بالأفكار الاجتماعية، ربما تسنح لي الفرصة في مكان آخر ولكن أحيانا تأخذني الشفقة بدرجة كبيرة. إنها الأحلام، وأحيانا تكون لي رغبة في توقيع العقوبة على البعض وأحيانا أخرى أتشوق إلى التضرع اليهم.

وابتسم الطبيب العجوز لهذا الحماس، وتلاشت ابتسامته أمام خجل واضح لا يمكن انكاره.

- حقيقة نحن بؤساء ومجانين، نمزق أنفسنا بأيدينا.. الحرب.. الحرب لمَ تحوطنا من كل جانب، آه.. اننا متوحشون.

فأجابه الطبيب الشاب:

- لماذا، لماذا، لم نبق مجانين ما دمنا على يقين من ذلك؟

وهز العجوز الطبيب كتفيه ثانيا كما هزهما من قبل عندما كان يتحدث عن المرض العضال.

- لسنا أحرارا، لارتباطنا بالماضي، فمن لهم صلة بالماضي والتراث، قد أججوه وزادوا من قوته، ودائما ما تفيد الأفعال نفسها، وهذه هي الحرب والظلم. وربما تستطيع الانسانية في يوم من الأيام أن تتخلص من أي فكرة شريرة كانت قد استولت عليها، وأتمنى أن تخرج من هذا الجيل الشاسع، جيل البؤس والمذابح، وأتمنى أن تكون لدينا القدرة على ذلك وليس مجرد أمل.

وهنا توقف الطبيب العجوز وأجاب الشاب:

- الإرادة.

وصدرت من الآخر حركة غير مقصودة، فصاح الطبيب الشاب:

- إن "القرحة" التي أصابت العالم ترجع إلى سبب رئيسي وهو استبداد الماضي والمعتقدات التي رسخت على مر القرون والتي حالت دون إعادة بنائها من جديد على أساس من الأخلاق والعقل، فالفكر التراثي قد أفسد الإنسانية وإن ما يمكن أن أطلقه على هذه التعريفات هو..

فقاطعه العجوز بحركة كأنه يريد أن يقول "صه.. لا تذكر شيئا".ولكن الشاب لم يستطع أن يكبح جماح نفسه وقال:

- إنها الملكية والوطن.

وصاح العجوز:

- صه، إني لا أوافقك هذا الرأي، لأنني على علم بالآلام التي تسود هذا العصر، وأتمنى بكل جوارحي أن يحل عهد جديد، بل أعتقد هذا، ولكن لا تتحدث هكذا عن مبدأين مقدسين.

فأجابه الشاب بلهجة تشوبها المرارة:

- آه.. إنك يا سيدي تتحدث كالآخرين.. ومع ذلك فلابد من إدراك منبع

البشر.. إنك تعرفه جيدا.. أنت ولكن.. لماذا تتظاهر بأنك لا تعرف شيئا عنه؟.. واذا كانت هناك رغبة في التخلص من الحرب والقضاء على الجور والظلم فلدينا الدافع إذن في أن نهاجم بشتى الوسائل الفعالة جميعها مبدئ الثروة الفردية، وشعائر الوطن.

فنهض العجوز من مجلسه، ورمق بنظره محدثه، نظرة شرسة وجامدة ثم قال:

- لا لسنا على حق.

- لا إن الحق معنا.

وفجأة انخفض رأس العجوز، وقال بصوت منخفض:

- نعم.. نعم.. هذا حقيقي، نحن على حق...أتذكر ذات يوم، عندما كانت الحرب قائمة، كنا نتجمع حول أحد المصابين وهو في نزعه الأخير، وجدناه بين حطام أحد المستشفيات المتنقلة، بعد أن دمرتها القنابل، وكان وجهه مشوها إلى درجة لا تستطيع معها أن تتحقق من معالمه، أو إلى أي من الجيشين ينتمي، هذا كل ما كان يمكن أن يقال عنه، كان يصرخ من شدة الألم ويئن ويتوجع، وتخرج أناته رهيبة مؤثرة، وكنا ننتظر أن تخرج من فمه كلمة تلقي الضوء على حقيقة شخصيته أو على الأقل جنسيته، ولكن دون جدوى، فلم نحصل منه على شئ، سوى أن جسده كان ينتفض على نقالة الجرحى، نتآكله بنظراتنا فقط دون أن ينطق أحدنا بكلمة، إلى أن أسلم الروح، ولما فارق الحياة، وفارقتنا الرعشة..

فقاطعه الآخر قائلا:

- انني أفهم ما ترمي اليه، فهمت من أعماق نفسي أنه كان ينتمي إلى بني الإنسان أكثر من انتمائه إلى موطن مجهول، وفهمت أيضا أن الكراهية والثورة ضد الجيش، والإهانات الموجهة اليه، والنداءات ضد الوطنيين لها وقع رنان من الناحية المثالية والجمالية.

- نعم، نحن على حق.. ومنذ هذا اليوم، أتيحت لي فرص كثيرة لأبحث عن الحقيقة ولكن كيف هذا وأنا عجوز لا أملك القدرة على ذلك!

فنهض الشاب في احترام وتأثر وقال: "سيدي" واسترسل العالم العجوز في حديثه، يعبر عما يجيش في صدره باخلاص وصراحة تخالطهما الحقيقة: - نعم، أعرف، كما أقول لك، انه رغما عن البراهين المعقدة، والمتاهات التي تفقد فيها الحالات الخاصة، فلا شئ يمنع من أن نقول أن القانون الذي أوجد البعض أغنياء والبعض الآخر فقراء، ونشر اللامساواة في المجتمع، ما هو الا جور وظلم، كالذي أوجد قديما أصول العبودية، وأصبح مفهوم الوطنية، طالما ظل باقيا تقتات عليه الحرب المخيفة وفناء العالم. حتى أنه لا اليسر المادي ولا المعنوي، ولا العمل ولا التقدم النبيل، أو الفن في حاجه إلى منافسة مبغضة، بل على العكس، فكل هذا أو ذاك ستصيبه الأسلحة وتحكم عليه بالدمار. وأعرف أيضا أن خريطة كل دولة تتكون من عدة خطوط متفق عليها، وأسماء متباينة وأن الحب الغريزي يجذب كل منا حيال الآخر أكثر مما هو بين أفراد مجموعة جغرافية، وأنا لأكثر وطنية من هؤلاء الذين يفهمونك، ويحبونك وهم على مستوى من مستواك النفسي أو من هؤلاء الذين يرضخون للرق. ومن نتيجة هذا التشويه الشنيع والمخيف الذي يعتري الشعور بالوطنية، أن الانسانية قد قضي عليها وفنيت، وأن الجيل المعاصر ما هو الا النزع الأخير أو سكرة الموت.

واتفق الاثنان في وجهة النظر، فقالا معا: "هذا سرطان، سرطان".

ونشط الطبيب العجوز، واتقد ذهنه بالوضوح والبداهة.

- وأعرف أن الخلف سيحاسب حسابا عسيرا، هؤلاء الذين زرعوا ونشروا قدسية أفكار الظلم والجور، وأعلم أني على يقين بأن الاستشفاء من أي رذيلة لا يتحقق إلا اذا رفعنا شعاراتها المقدسة.. وأما أنا، فقد قضيت من عمري نصف قرن منكبا على الأبحاث والاكتشافات الجديدة الكبيرة ا لتي أحدثت تغييرا في جوهر

الأشياء، وأعلم أيضا أن الانسان يناصب العداء كل ما هو كائن. ومن الرذيلة أيضا أن نقضي السنين والقرون ونقول: "كنت أريد، والآن لا أريد" واذا كان ضروريا لاجراء أي تجديد، موافقة عالمية، فأعرف أيضا أن العالم سيبذر بذوره، أعرف ذلك! أعرف نعم.. ولكن أنا!.. فقد أضناني الهم واحتكرتني الأعمال، ثم ماذا بعد؟.. وكما قلت لك لقد تقدمت بي السن، وهذه الأفكار بالنسبة لي حديثة إلى درجة كبيرة، والعقل الانساني لا يستطيع أن يعانق إلا قدرا محدودا من الخلق والابتكار. وعندما ينضب هذا القدر، مهما كان مستوى التقدم نرفض أن نرى وأن نتعجل.. فأنا لست جديرا بأن أضفي على المناقشة البلاغة وخصوبة الفكر وأصارحك يا ولدي بأني لست قويا ليكون الحق معي.

فأجابه الطبيب الشاب بلهجة يخالطها التأنيب والصراحة:

- إنك قد صرحت عموما بعدم استحسانك لهؤلاء الذين يهاجمون علنا مفهوم الوطنية... وكذلك المكانة التي يحتلها اسمك.

فاعتدل العجوز في جلسته، وقد تغير لونه، ثم قال:

- أنا لا أسمح بأن يعرض البلد للخطر.

وتمتم الآخر:

- ولكن كل ما قلته الآن..

- أن هؤلاء الذين تحدثت عنهم ليسوا الآخرين، فالذين تحدثت عنهم قد قاموا بالتحدي لنا، واتخذوا حيالنا موقفا عدائيا مليئا بالإهانات.

فقال الشاب بصوت متهدج:

- لقد ارتكب هؤلاء الذين تعرضوا للإهانة جريمة كبرى هي الجهل. لم يعترفوا بالمنطق السامي للأشياء.

واقترب من صديقه أكثر، وبشكل أكثر ثباتا، سأله:

- كيف لا تكون البداية ثورية؟ وهؤلاء هم أول من نادى، فهم إما مجهولين، وإما مضطهدين، وسيتحمل الأبناء عبء التضحية أما الذين أذاعوا الشك بين

الناس حول مفهوم كلمة الوطن، فسيتلقون تحية الغير.

فصاح العجوز:

- مطلقـا!

كان العجوز يتتبع هذه العبارة الأخيرة بجبين مقطب وعين زائغة ونفاذ صبر، وتشنجت يداه من شدة الحنق. ثم استعاد رباطة جأشه وقال:

- هذه المناقشات لن تفيد في شئ، فهناك اختلاف في الوضع نفسه، ويجب على كل إنسان أن يقوم بواجبه، كما يجب على هذه السيدة أن تعرف الحقيقة. ومن قالها لنا، لنا نحن؟.

وفوجئ بهذه العبارة التي صدرت عنه دون أن يتوقعها، وعلت وجهه أمارات القلق والتردد، ثم قال:

- وفيم يفيد ما يقال لنا طالما هناك شك في معرفته؟.

- آه كنت أريد أن أعرف كيف سألاقي حتفي (ماذا سيكون مصيري) كم أريد التأكد من ذلك.

وأثناء حديثه وهو منفعل، كان زميله يرقبه ويرقب حركاته وهو مندهش:

- لست على يقين من ذلك، ومع ذلك فلا أعتقد...

- أبسبب ما نتحدث عنه؟

- أواه! لا! هذا شئ، وهذا شئ آخر.

وفي الحال اعترت الطبيب الشاب بعض التغييرات والأعراض التي حولته إلى رجل آخر. وقال للطبيب العجوز:

- سيدي، لقد كنت أستاذي، وكنت شاهدا على جهلي كما أنت شاهد الآن على ضعفي.

وارتعشت يداه واحمرتا كأنه طفل صغير. فأجابه الطبيب العجوز:

- هيا اذن! إني على علم بذلك، فقد حدث لي منذ زمن مضى، فقد كنت خائفا من مرض السرطان، ثم الجنون.

- الجنون؟! أنت يا سيدي!

وقال بصوت حزين متقطع:

- ومرت الأعوام ولا خوف الآن إلا من الشيخوخة.

وأجابه تلميذه، وهو يعتقد أن الوقت قد سمح له بالابتسام أمام هذه الصراحة:

- من الواضح يا سيدي أن هذا المرض هو الوحيد الجدير بالخوف!

وتعجب العجوز بشدة لم يستطع اخفائها إلى درجة أفحمت الطبيب الشاب وأخجلته ولم يعرف ماذا يقول وأجابه:

- ماذا تقول؟

وتمتم الطبيب العجوز قائلا:

- آه! لو تعلم ما هو هذا المرض البسيط! هذه العدوى التي لا يمكن تجنبها.. هل سنأتي قبل أن نموت؟".

وظل الطبيب الشاب لا يدري ماذا يقول. لقد أفحمه أستاذه العالم من جراء كلمة خرجت من فمه عفوا فكنت أتابع بعيني ما يتبادلانه من الأحزان سريعا ولم أكن أدري ما اذا كان قصره ساميا أم لا.

- هناك أناس يرون أن كل ما تأتيه الطبيعة من أفعال جميل.. الطبيعة!.

ثم ضحك العجوز ضحكة تهكمية أثلجت جسدي وقال:

- ان الطبيعة ملعونة، سيئة، المرض طبيعة. وطالما أن الشئ الطبيعي هكذا، فكل ما هو ليس بطبيعي مشئوم أيضا، أليس كذلك؟- وأضاف- ما تفعله الطبيعة دائما جميل. آه! هناك دائما في الأعماق حديث البؤساء لا يتمناه المرء لبني الانسان فالجميع يتمنون أن يواسوا بعضهم بشئ له أساس، وشعور له قيمة.

ثم عادا ينظران إلى بعضهما، واستطرد أحدهما: "اننا مخلوقان مسكينان" وقال الآخر: "طبيعي".

ثم اتجها نحو الباب:

- هلم بنا من هنا، فهي تنتظرنا، فلنحمل إليها الحكم الذي لا يغتفر (الحكم بالاعدام)، ليس بالموت فقط، بل الموت السريع، كأنهما حكمان بالاعدام".

وعلى هذا، أضاف الطبيب العجوز من بين نواجزه: "لقد حكم عليه العلم" يا له من تعبير أحمق!

- وهؤلاء الذين يؤمنون بالله، ينبغي عليهم أن يطلقوا على أنفسهم "المسئولون".

وعندما ذكرا اسم "الله" توقفا عند عتبة الباب، علا صوتهما من جديد، فقال العجوز:

- انه لمجنون هذا -وبتهكم وسخرية أضاف - من الأصلح له عدم البقاء؟.

ثم رأيت العجوز يعود أدراجه ويهرول تجاه النافذة ويلوح بقبضته إلى السماء.. لقد عرف الحقيقة!

كان المريض جالسا ينظر بعينيه من بين أصابع يديه، تخرج من شفتيه أحلام محدودة، بدون شك تخص المرأة التي كان يتحدث عنها الطبيبان. وبدأ المريض يتحدث:..

- ماذا أعرف؟!.. المباني..! وهذا مثلا مكان فسيح. هذا خوان، وذلك سهل ممتد من البلاط لا نهاية له، هناك في أعالي المدينة بالقرب من ضواحيها، وهاك رواق يتوسط صفين من الأعمدة تتداخل وتتباعد مع بعضها حتى يبدو سقفها كأنه ظلال الليل.. هكذا نرى أن ربع مساحة المكان مكسوة. وذاك يشبه قصرا منيعا، مفتوحا دائما يتخذ نوعا من الأهمية شبه طبيعية، جدير بأن تتخلله أشعة الشمس في شروقها وغروبها.. والليل.. والغابة الدغلة تسمح لشعاع الفجر بأن يصل إلى أرضها الحجرية.

وهناك، هناك حيث يتركز جزء كبير من النشاط العام. المواصلات البورصة، الفنون والمعارض، الحفلات تموج بالجماعات، وتيارات جارية من الجموع تدور عند مفترق الطرق يتوه فيها البصر. ومن السفح، يتوغل الرواق عموديا

في الحي الآخر من المدينة كأنه مجموعة من الصخور على شاطئ بحر، فكل هذا ليس له نمط معين، ويبدو من المعمار الهندسي سهلا يسيرا، أما الجزئيات فهي تجذب الأنظار وتشد القلوب.

ودققت النظر في المريض الذي يزداد لحمه من ساعة إلى أخرى، وفجأة لمحت رقبته، فألقيتها منتفخة عن ذي قبل، بينما كان هو يتحدث من أعماقه:

- وعند مدخل المدينة من بعيد، إذا ركبنا القطار يرى المرء الرواق كأنه ثابت على جبل وعلى الناحية المواجهة عند مدخل الرواق يوجد سلم ينتهي عند وادي الحدائق، وهذا السلم العجيب لا يوجد ما يشبهه حاليا، ربما أهرامات مصر، فهو يبلغ من العرض مساحة ربما يحتاج فيها المرء إلى ساعة زمن لكي يعبرها، سلم كبير كالجبل، كالطبيعة، يقوم على مساحة من الكيلو مترات المربعة، تقوم على أساس طولي منسجم ومتقارب، إلى درجة يمكنك أن تشمله في نظرة واحدة من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل، قد نحتت بمهارة فائقة، ترسخ عليه كتل ضخمة وأعمدة.

وها هي التماثيل، شامخة مرتفعة، رافعة يديها، لا يمكنك أن تلحظها من أول وهلة.

وأثناء حديثه الحالم هذا، كان صوته يخرج عميقا تنم نبراته عن أنه حقيقة في حلم جميل، واستمر في حديثه عن أشياء مشوقة، رغم أنه على قيد خطوات من الموت، وانما أنا الذي لا صلة لي بحقيقة الأمر فأنا لست متفرجا، أفحمتني المقابلة التي توحد بين كل من الروح والجسد، كما أفحمني الموقف بوجه عام.

واسترسل المريض في حديثه:

- فالمثّال ما هو الا طفل صغير، فهو يصنع من قطعة واحدة عدة أفكار وأشكالا عظيمة، وخطوطا دقيقة وبسيطة، يحمل أدواته كسلاح ضد أي صعوبة يجدها في التمثال.. إنهم أطفال صغار وبعض هؤلاء الأطفال عباقرة.

ويواصل البحث في أحلامه عن تماثيل فيقول:

- يجب أن يكون النحت -حتى لو كان لشخص- مسرحيا ودراميا فالتمثال النصفي لأي انسان ليس به روح، ليس به سوى أعضاء، وهو تعبير بالحجر للوحة أكثر حقيقة لانها تتمتع بمزايا لا توجد، في النحت وهي توزيع الظلال. وتمثال "السقوط" المنحوت من الرخام، من أين يأتيه هذا الثبات؟. موضوع نحت عظيم: مخلوق فقدناه، اذ يرفع لك غطاء القبر، ويظهر لك وجهه، هذا الوجه الانساني الذي يجمع في وقت واحد بين صفتين، الرهبة منه، والرغبة في رؤيته، مخيف لموته، ومرغوب لكونه إنساني، فحب رائحته تحت الثرى، وهو جثة هامدة، ومع ذلك فهو تحت السماء طالما أنه موجود. لست أدري ما اذا كان الوجه لذكر أو لأنثى؟ لكنه رأس عزيز، تهب الحياة إلى القلب نسماته، وتحقق المعجزة صورته، فيما يرتسم عليه من طيبة، رغما عن أنه ثابت، ولونه في مثل لون الأرض، وهما يمكن من توجيه نظراته اليك، فهو لا يسمع ولا يعي شيئا مما حوله، ما لفم يبتسم ويكشر في الوقت نفسه مزيج من الرهبة والحب لا يمكن تفسيره، وبالرغم من أنها ابتسامات إلا أنها في الحقيقة كشرة النزع الأخير... ومن أين جاءت رطوبة هذا الفم المبتسم؟! وتحت تأثير أي ريح قارصة البرودة قد انفتح؟ والعيون تدمع دون وضوح، ولكن هذا أيضا من التحلل، وكما يفكر الانسان في هذا الوجه، يرى الذكريات التي تنطبع عليه وعلى الجسد الذي يرقد ساكنا، والجسد بمفرده، مختبئا في الظلام بين طيات الثرى، والرأس هناك، مع بقايا حطام ضالة أزلية، تبعد وتقترب، وتنظر اليك، وتوجه لك ابتسامتها.. وحركاتها.. كوحش جميل، مخيف ورهيب، يفتح باب اللحد، ويخرج منه صديقا، ولكنه يبقى به عدوا.

ثم استرسل في حديثه عن التصوير قائلا إن في التصوير ناحية إبراز لا تتوافر لدى المثال، وتحدث عن ثبات الأوصاف الجميلة التي تسترعي الانتباه، وتنهد ثم قال:

- ان الفنانين مساكين، فهم مسئولون عن تجميل كل شئ، من يدري

بما تحتويه الحقيقة التي تتراءى لنا من جزئيات؟ فيلزم لذلك درجة كبيرة من الحس والإدراك.. نعم، أكثر من اللازم.. بصيرة وذكاء خارق إلى درجة الهذيان والهلوثة أما العظماء فقد كانوا غير عاديين: "رمبرانت" كانت له آراء، و"بتهوفن"، كانت له أنغام.

وعندما ذكر المريض هذا الاسم، اندمج مع الموسيقى وطالما أن الموسيقى قد حصلت على الكمال، فهناك مراتب بين شتى الفنون، لهذا فالأدب يعلو على غيره من الفنون، والانسجام، الذي ينتج عن الموسيقى لا يساوي الهمسات الخفيفة التي تصدر عن كتاب تقرؤه.

واستطرد المريض حديثه موجها أفكاره إلى "آنا":

- آنا، إن الموسيقى التي توجد في الكلمات والعبارات، والتي تنقل إلينا أجمل الصور، عظيمة في تكوينها مثل ضوء النهار، ما هو الأدب الحقيقي، أو شاعر الشمال يعبر عن تغيير الوجوه، ويفرق بين المتحدثين تحت الظلال، هو "اللا محدود" ولا شئ سواه.. كل هذا في كلمات قليلة رزينة رمادية عارية ونكدة.

فأجابته:

- لابد وأن المتحدثين على حق.

فقال:

- أما أنا فحياتي منذ الصغر، قضيتها تحت الشمس في فيض وحيوية واني لأفضلهما، والآن فاللون ينتشر خاويا، آنا، آنا إن الروح ما هي إلا طائر من طيور الليل، كل شئ جميل، ولكنه جمال غير مضئ.. ففي النور الصفاء، وفي الظلال "نحن" فالظلال هي حقيقة المعجزة التي تعبر عن المجهول.

ثم استطعت أن أتبين أكبر جزء من وجهه عندما حانت منه التفاته ناحيتي، كما تمكنت من رؤية رقبته المتضخمة.

واسترسل في حديثه قائلا:

- نعم.. نعم.. إن الأدب، هو النبع الذي نرشف منه، حتى نروي ظمأنا، إنه الطريقة المثلى للتعبير عن الذات وهو تقريبا أكمل طريقة لذلك.. نعم.. فبينما منح شكسبير النفثات الداخلية، فقد أعطى "فيكتور هيجو" العظمة الظاهرة حتى تغير اللون منذ أيامه، ففن الكتابة يختلف عن فن "بيتهوفن"، هذا، لأن ارتقاء القمة لا يتحقق إلا بالشكل، والشكل هو الحقيقة بوجه عام. والأعمال الأدبية القانونية لا تحتوي على شئ من الحقيقة، كما لا يتضمن أي عمل أدبي على جوهر الحقيقة، فالحقيقة كائنة في كتب مقدسة، أو كتب علمية، تهتم بالواجب الأخلاقي، ولا يعرف بعد ما إذا كانت تخضع عقيدتهم لبعض الأمور خارقة للطبيعة، وفي المسرح يتفنن الأدباء في إيجاد وسيلة للتسلية تتمثل في أساليب كاريكاتيرية.

"والدراما لم تخلط مطلقا بين الفرد والكل، فمتى إذن ستمتزج الحقيقة الدنيا، بالجمال المثالي، طالما أن كل منهما تجمع حولها الكثير. الإعجاب يجعلنا نقضي لحظات سعيدة صافية حيث لا توجد حدود أو مَواطن فالحقيقة واحدة للجميع، يراها الذي فقد بصره، وتجعل من الفقراء أخوة.. وفي ذات يوم سيجمع الناس على حق. فكتاب الشعر والحقيقة إذن، هما أعظم اكتشاف يتحقق.

*****

-10-

وقفت المرأة الحامل والمرأة الشابة أمام النافذة المفتوحة على مصراعيها، تتطلعان إلى الفضاء الفسيح، والضوء الساطع تحت أشعة شمس الخريف، وقد لاحظت أن وجه السيدة الحامل ذابل وشاحب.

وفجأة تغير لونها، وتقلصت معالم وجهها، تقلصات تدل على شعورها بألم شديد، ثم اتجهت إلى الحائط تتكئ عليه، ولم تستطع أن تتمالك نفسها، وصدرت منها صيحة مكتومة.

أما المرأة الشابة، فاحتضنتها وأخذتها بين ذراعيها وجاهدت حتى وصلت إلى الجرس وأخذت تضغط عليه ثم لزمت مكانها ولم تتحرك وظلت الحامل بين ذراعيها ووجه كل منهما قريب من الآخر. تغيرت نظرات الحامل وصاحت صيحة مكتومة تشبه الأنين، وما هي إلا لحظات حتى فُتح الباب، وانزلقت إلى الداخل بعض الوجوه الغريبة، أما صاحبة الفندق فكانت تقف خلف الباب ترقب ما يجري واليأس الذي يدعو إلى الضحك يعتري نظراتها.

تمددت المرأة الحامل على السرير، وحملت الأواني المختلفة، ونشرت المناشف وصدرت الارشادات السريعة، وما هي إلا لحظات حتى سكنت الأزمة وهدأت، وهي تشعر بالسعادة وتبتسم لأنها لا تتألم، وتنعكس الابتسامة على الوجوه التي تحيط بها، بعد أن أخذوا يجردونها من ملابسها بكل حذر.. وهي، كطفلة صغيرة، استسلمت لما يفعلونه بها، وانكشف الفراش قليلا، فبدت ساقاها البضتان، ووجهها يرقد هادئا لا ترى سوى هذه البطن المنتفخة تتوسط الفراش، وشعرها منثور حول رأسها على الوسادة.

امتدت إحدى الأيدي تضفره وتساويه، واختفت ابتسامتها، وأظلمت.. ها هي بدأت. أنّة قوية تصدر منها، وتتزايد حدتها قليلا، والمرأة الشابة الصديقة الوحيدة، تقف ولا ترفع عينيها عنها يتزاحم رأسها بالأفكار، وترى أيضا أن الألم لم يتركهه وترغب في الصياح والصراخ.

استمر الحال هكذا طوال اليوم، منذ الساعات الأولى من الصباح حتى المساء، إلى أن سمعت شكوى السيدة الحامل، شكوى تمزق من يسمعها.

وبعد ذلك رأيت اللحم الغض الرخص، يتمزق وينشج ويتحطم كالحجر، وبعد عدة لحظات خانتني قواي ولم أعد أستطيع النظر أو سماع شئ، وسقطت من فرط إعيائي حتى فاتتني حقائق كثيرة، واستعدت قواي من جديد واستندت إلى الحائط وتسللت إلى أن تخللته نظراتي من جديد.

وأول ما وقع نظري، كان على فخذيها الأرجوانيين وقد أمسك بعضهم بهما بمهارة يبعدانهما عن بعضهما، وسمعت بعضهم يقول: لقد سال من بطنها جدولين من الدماء.

دماء النساء! دائما مهدورة! حياتها وسرها المقدس قد ذهبا مع الريح وتعري كل لحمها الوردي فاغرا فاه، ممددا كأنه معروض، عاريا حتى الأحشاء.

ثم تقدمت منها الفتاة بهمة ونشاط من أثر الصرخة القوية ووضعت قبلة على جبهتها، واذا أعطينا هذه الصرخة شكلا أو صيغة، فيكون معناها حينئذ "لا! لا! لا أريد!".

وبدت الوجوه متعبة وكأن هذه اللحظات التي مرت بهم أعواما، مما لاقوه من خوف وغم، ومن خطورة وإنهاك.

وتناهى إلى سمعي قول أحدهم: "يجب علينا ألا نساعد وأن نترك الطبيعة تقوم بدورها، فالطبيعة تتقن كل فعل تأتيه".

وكان لهذه العبارة وقع في نفسي. الطبيعة! تذكرت الطبيب العالم في الليلة الماضية وقد لعن الطبيعة! وأخذت أردد ذلك دون شعور مني، بينما كانت

عيناي تقدر هذه المرأة الرقيقة البريئة التي تقع فريسة للطبيعة اللامحدودة، والتي تحطمها وتضرجها في دمائها، وتصيبها بكل ما في وسعها من آلام.

أما المرأة العاقلة فقد شمرت عن ساعديها ولبست قفازا من الكاوتشوك، حتى بدت يداها كمطرقتين حمراوين، سوداوين لا معتين.

شعرت كأن كابوسا يثقل على صدرها، وثقل رأسي ونفذت إلى صدري رائحة نفاذة من المواد التي توجد في الغرفة.

أواني مملوءة بالماء منها الأحمر والوردي وماء أصفر باهت، وفي أحد أركان الغرفة، كوم من الغسيل القذر، وكوم آخر من المناشف المفرودة مثل أجنحة الطير، وفجأة، دون سابق انذار، سمعت الصرخة التي انفصلت عن المرأة التي كانت حامل، صرخة تشبه صريرا خفيفا يحدث ضوضاء، إنه المخلوق الجديد قد حطم قيده، وما هو إلا قطعة لحم خرجت من اللحم، وكل ما يطرأ على الناس من تغييرات، هذه الهزة التي شعرت بها ما هي ألا علامة أولى، ولست أدري أي عرق هو للأم أم للأب؟

ثم رأيت المرأة تبتسم وتقول: "لقد مر كل شئ سريعا".

أوشك النهار أن يولى وبدأ الليل يزحف، وكل ما يحيط بالفراش أشبه بما يكون في معبد، ضوء هادىء ينبعث من القنديل، وبندول الساعة يتحرك بهدوء، كل شئ يركن إلى الهدوء، حتى هي، هناك ممددة هادئة هدوءا مثاليا، وترى الليل يسدل ستائره شيئا فشيئا على يوم من أجمل أيام حياتها.

وبعد أن وضعت هذا الوزر الثقيل الذي كان يجعل منها كتلة ضخمة، وأنهكها وأذبل وجهها، أصبحت صاحبة مجد جديد ينتمي إليها، ومن فرط السرور كان يعتريها نوع من الذهول، إلى درجة إنها تحملت الآلام في سبيله، وأخرجت إلى العالم الجديد أفكارا جديدة.

ثم أخذت تتخيل طفلها وقد كبر، وارتسمت على وجهها ابتسامة، كأنها تشعر بما سيسببه لها من آلام وأفراح، كما تبتسم أيضا لما سيكون له من

أخوة من البنين والبنات وطرأت على نفسي الفكرة في الوقت التي كانت تفكر هي فيها.

هذه الملحمة المأساوية التي تخرج من اللحم شيئا عاديا وعاما، كل امرأة لها فيها ذكرياتها وسماتها، ومع ذلك، فقليلات من تدركن هذا!

فالطبيب، وبالرغم من أنه يمر بمثل هذه الحالات التي يشوبها الألم، لا يستطيع مع ذلك أن يخفف منها، والمرأة الرقيقة المدللة، لا يروق لها أن تستعيد ذكرى آلامها.

فبعض الناس يجدون للإحساس والشعور أهمية كبيرة، والبعض الآخر، يجدون النزاهة في المهنة، وبهذا فلا يبقى أثر للشر!

ولكن أنا، أنا الذي أشاهد كل شئ لمجرد المشاهدة فقط، رأيت الألم في أروع صوره، ألم الوضع الذي كان يتحدث عنه منذ قليل هذا الشخص وكنت أستمع اليه، هذا الألم لا ينقطع من أحشاء الأم، ولا أنسى مطلقا التمزقات التي تصيب الحياة الكبيرة.

كان القنديل موضوعا بطريقة جعلتني لا أستطيع رؤية الأم بوضوح، حيث كان السرير سابحا في الظلام ولكني مع ذلك كنت أفكر فيها.

واليوم انتقلت المرأة النفساء إلى الحجرة التي كانت تشغلها من قبل والتي تجاور هذه الحجرة، نظرا لأنها مريحة وفسيحة وقد نظفت من أرضها إلى سقفها.

ولم تكن النظافة سهلة، فقد رأيت الخادم وهي تقلب الغرفة رأسا على عقب: الملاءات الحمراء وفرش السرير، وتلال الغسيل، وغسيل خشب السرير وأمام المدفأة، وإلقاء القنينات الفارغة والقطن المندوف. حتى الستائر لم تسلم من بصمات ملطخة بالدماء وكذلك منحدر السرير كان كحيوان مضرجا في دمائه.

ثم بدأت "آنا" تتحدث:

- احترس يا فيليب وأنت تتحدث عن الدين المسيحي لأنك لا تفهمه جيدا، ولا تعرف ماهيته، فأنت تتحدث عنه وأنت تبتسم، مثلك في ذلك مثل النساء اللاتي يتحدثن عن الرجال، أو مثل الرجال عندما يحاولون تغيير مكنونات النساء. فالعنصر الجوهري في الدين المسيحي هو الحب الذي ينشر المحبة بين الناس الذين طبعوا على الكراهية. إن الدين المسيحي ثروة من الحب، تستجيب لها قلوبنا ونتنفس بها منذ نعومة أظفارنا، ثم تنمو شيئا فشيئا، حتى يضاف إليها كنز آخر من الحب، يتدفق علينا، ونهب له أنفسنا، ونغذيه من هذا السيل. إنه كالحياة، كالشعر تقريبا أو كالإنسان.

- ولكن يا جميلتي "آنا" ليس هذا هو الدين المسيحي ولكنه أنتِ.

في منتصف الليل سمعت صوتا من خلال الفتحة، فحاولت جاهدا وتغلبت على تعبي ونظرت.

كان المريض وحيدا، ممداد على فراشه، وقد تركوا له بالحجرة مصباحا خافتا، وكان يتحرك ببطء، يتحدث وهو نائم.. ويحلم، ثم لاحت على شفتيه ابتسامة وردد: "لا!" ثلاث مرات، وتزداد الابتسامة نتيجة لازدياد شعوره بالسعادة، ثم لم تلبث أن اختفت هذه الابتسامة بعض الشئ، كأنه في انتظار شئ، ثم انفرجت شفتاه عن تكشيرة خفيفة، وفجأة تغير وجهه وفغر فاه: "آنا، آنا، آه، آه، آه!" صدر ذلك منه دون أن يغلق فمه، ثم تثاءب، حينئذ استيقظ وفرك عينيه، وزفر زفرة ثم هدأ وجلس في فراشه مأخوذا مما حدث. وجال بعينيه في كل ناحية يهدأ وينفض عن نفسه الكابوس الذي مر به.

كل شئ بالحجرة كان يوحي بالهدوء، في وسطها مصباح ينبعث منه ضوء خافت وثابت، هدأ من روع هذا الرجل، وشفاه من لا شئ، كان يبتسم لأشباح يراها هو، وكان على وشك أن يصيبه مسٌ.

نهضت في الصباح وأنا منهوك القوى، مكتئبا والألم بادى على وجهي. لاحظت ذلك عندما نظرت في المرآة، كنت أتحرك بصعوبة كأني نصف مشلول وهذا

عقاب لي على بقائي بجوار الحائط وعيناي لا تفارقان الفجوة وقتا طويلا.

وعندما وجدت نفسي وحيدا، انتابني قلق كبير بعد أن تجردت من كل رؤية ومشاهدة كنت قد كرست لها وقتي، قلقت لمركزي الذي أهملته، والإجراءات التي كان يجب علىّ انجازها، فقد أجلت كل شئ إلى أي وقت آخر، كما طرحت جانبا مصيري الوظيفي، كما أن هناك أيضا انشغالات تضجرني، لأنها تتزايد في كل دقيقة تمر بي. فعلي ألا أحدث ضوضاء، أو أشعل أي ضوء، وأن أختفي دائما، وفي الليلة السابقة كدت أختنق من السعال الذي احتبسته عندما كنت أستمع اليهم وهم يتحدثون، فأقفلت فمي وأخفيت رأسي.

يتملكني شعور كأن كل شئ سيتضافر ضدي لينتقم مني لأني لم أستطع الصمود لفترة طويلة، وسأظل أنظر طالما لدي الصحة والشجاعة، وأنا على يقين من أن هذا العمل لا خير فيه، ولكني أعتبره واجبا.

أما الرجل فقد كان في انحدار مستمر، والموت يخيم على المنزل.

في هذه الليلة، كان الوقت متأخرا، يجلسان حول المائدة كل منهما في مواجهة الآخر، كنت على علم بأن زواجهما قد تم، وأنهما حققا هذا الارتباط الذي لم يكن إلا احتفالا بالوداع الغريب.

بعض الزهور تزين المقعد الكبير، من زنبق وسوسن، وهو جالس كأنه منازع يحتضر كالزهور المنثورة حوله وحول المدفأة، وقال: "لقد تزوجنا يا "آنا"، أنت زوجتي، أنت امرأتي!".

قال هذه العبارة لأنه طالما تمنى ذلك.. فرحة العرس.. ولكنه يشعر بنفسه مسكينا لقلة هذه الأيام وندرتها فهي تعني بالنسبة إليه السعادة كلها.

ينظر كل منهما إلى الآخر، يشده إليها عطفها الأخوي، وتؤثرها عبادته لها. يا له من شعور لا نهاية له، يعبر عن هذا السكون المطبق الذي يخيم على العروسين، لم يلمس أحدهما الآخر ولو بطرف أنملة!؟

قالت الفتاة: "الوقت متأخر وأشعر بالنعاس" ونهضت ووضعت المصباح على المدفأة، لينير الغرفة، وكل كيانها يختلج، تبدو كأنها في حلم، ولا تدري كيف تنصاع لأمر هذا الحلم!

ورفعت يديها وهي واقفة، وفكت شعرها الذي انسدل على كتفيها وانبعث منه بريق وضاء في هذا الجو الخافت، وهو ينظر إليها صامتا، ثم نزعت من قميصها دبوسا ذهبيا كانت تقفل به القميص من أعلى فكشف عن جزء من رقبتها. فقال لها:

- ماذا تصنعين يا "آنا" ماذا..؟

- أخلع ملابسي...!".

حاولت جاهدة أن تبدو اجابتها طبيعية، ولكنها لم تستطع، ولم يجبها هو إلا بصيحة تعجب صادرة من أعماق قلبه.. الدهشة والأسف يدمغهما أمل متلألئ:

- إنك زوجي...

فقال:

- آه... تعلمين أني لا شئ! أعرف.. أعرف.. زواج صوري.. شكليات.. ارتباطات.

قال هذا بصوت حزين وبمرارة، كلام متقطع غير مترابط.

أما هي، فقد أجابته قائلة:

- إنك زوجي ومن حقك أن تراني.. لا.. لا.. ليس هذا حقك ولكن لأني أنا الذي أريده.

وبدأت أفهم إلى أي درجة تحاول أن تبدو لطيفة معه، فهي تريد أن تهب هذا العجوز المسكين مكافأة تليق به، فهي ترمي إلى أن تكون كريمة معه.

ولكن في هذا صعوبة كبيرة، فيجب إذن أن يبدو ذلك طبيعيا حتى لا يكون بمثابة تبرئة من دين أو مخالصة. يجب أن يشعر في بساطة تامة مع الحفل الذي أقاماه سويا إنه الزوج المرغوب عن طيب خاطر، كما يجب أن يخفي

عنه النفور والاشمئزاز والألم، لقد كانت هي نفسها يتملكها الخوف خشية ألا تبدو لطيفة معه ورقيقة حتى تدعم تضحيتها.

قال وهو يحاول المقاومة:

- لا يا آنا.. عزيزتي آنا.. فكري جيدا..

ومن قبل كان يقول "فكري في ميشيل" واكتفي بأن يقول: "أنتِ.. أنتِ..!".

فأجابته:

-انني أريد ذلك.

فقال:

-وأنا لا أريده.

نطق بهذه العبارة وهو يشعر أن قواه تخور أمام الحب الذي يخضعه ويستولي على كيانه، وأخفى وجهه بين كفيه ولكن سرعان ما تهاوت يداه إلى جواره.

كل هذا، وهي تواصل خلع ملابسها، وبعد أن كان ينتابها شئ من الاضطراب هدأت نفسها، وكانت رائعة تشعر بشئ من الزهو والخيلاء.

ها هي قد خلعت الكورسيه الأسود، فبزغ نصفها الأعلى متلألئا كضوء النهار وعندما وقع عليها الضوء ارتجفت بشدة، وعقدت ذراعيها البضتين أمام رقبتها، وأمسكت بطرفي أذنيها وذمت شفتيها، وفكت مشبك "جونلتها" التي انسابت على فخذيها وساقيها ثم تخلصت منها برقة وكانت تحدث صوتا كحفيف النسيم الخفيف للزهور اليانعات.

تخلصت من جونلتها والكورسيه اللذان كانا يضمانها في قوة أما سروالها بطياته الرقيقة فكان يحتضن عريها في ليونة وأنوثة.

وبعد ذلك استدارت وأعطت ظهرها ناحية المدفأة تصدر منها حركات كلها أنوثة وعذوبة، وأخيرا نضت جوربها الشفاف عن ساقيها الجميلتين الممتلئتين كتمثال "ميكاييل أنجلو".

في هذه اللحظة، سرت في جسدها رعشة وهي واقفة دون حركة، يأخذها نوع من النفور، وقالت حتى تبدد هذا الشعور: "إنني أشعر ببرودة" واستمرت فيما كانت تفعله، أمسكت بشريط قميصها لتكشف عن حيائها الذي تخدشه وتنتهكه.

فقال لها بهدوء شديد حتى لا يضايقها بصوته: "القديسة العذراء"، وحينئذ كان يجلس في مكانه متقلصا، يتحرق حبا وشوقا وهياما، حبه الذي هو أجمل منها، ولكن عليه أن يقاوم عينيه الضعيفتين فليس هناك سوى هو وهي.

وبالرغم من هذا، فقد تركت القميص ينساب عن صدرها المرمري الدافئ، حتى بدت أمامه عارية تماما.

لم أرَ في حياتي امرأة تشع نورا كتلك التي أمامي، لم أر مثلها في حلم من أحلامي، فمنذ رأيتها لأول وهلة، شدتني إليها بوجهها المضئ الجميل، ولكني لم أكن أتصور أنها جميلة إلى هذا الحد المتكامل، فلديها الرقة ولديها ثروة من الجمال.

يمكن أن أقول إنها حواء في لوحة مقدسة، رائعة في جزئياتها التي تفوق البشر، فهي ممتلئة، سليمة معافية، ولحمها بض خض، تتحرك بحساب، كتفاها عريضان، ونهداها بارزان كبيران، وقدماها صغيرتان ولحم ساقيها لين وخاصة سمانتيها اللتين تشبهان نهدين جميلين، تقف كأنها "فينوس ميديسيس" ذراع تنثني أمام ثدييها والأخرى ممتدة أمام بطنها، وكتمجيد وتعظيم لهذا القربان فقد رفعت يديها إلى شعرها.

كل ما كان يحتضنه ثوبها ويخفيه أصبح في متناول نظره، فقد أعطته إياه كفدية، كل هذا البياض الناصع، التي كانت تراه هي فقط حتى الآن، له وهو على وشك الموت، ولكنه يعيش بالرغم من هذا.

وهبته كل شئ. بطنها، بطن العذراء المصقولة الملساء، ذات الزئبر (الشعر الصغير) الذهبي، وبشرتها الرقيقة الناعمة ذات اللون الصافي الوضاء،

كالانعكاسات الفضية، (يلاحظ نصيب اللون الأزرق السماوي عند رقبتها ومؤخرة فخذها، وبعض الغضون الخفيفة التي يسببها لحمها على أحد جوانبها، وقد اتحدت مع العقد الذي يحتضن رقبتها ليكونوا الخط الوحيد على جسدها وعلى فخذيها العريضين كأنها العالم كله، والنظرات الصافية المضطربة التي تعتريها بعد أن أصبحت عارية).

ثم أخذت تتحدث بصوت حالم، تذهب إلى بعيد في حديثها عن الهبة السامية.

- لا أحد -قالتها بحدة- لا أحد، أتفهم؟

لا أحد مطلقا يعرف ما صنعته هذه الليلة، بعد أن أعطت سرا أزليا إلى عابدها المنهوك القوى إلى جوارها كأنه ضحية، وكانت هي التي ركعت على ركبتيها أمامه، ركبتيها اللامعتين. وهكذا اقتربت عارية تماما لأول مرة في حياتها وقد تورد جسدها، حتى كتفيها، مزدهرة، فوهبت عفتها، وكانت تردد عبارات كأنها تشعر بأن ما فعلته إنما هو فوق واجبها، وأكثر من ذلك جمالا إنها -هي نفسها- قد بُهرت به.

وعندما ارتدت ملابسها وأخفت جسدها إلى الأبد وابتعدا عن بعضهما دون أن يجرؤ أحدهما أن يصرح بشئ، هزني شك كبير، هل كانت هي على صواب؟ أم كانت خاطئة؟! فقد رأيت الرجل يبكي ويقول متمتما: (من الآن لن أعرف الموت مطلقا".

*****

-11-

في صباح اليوم التالي كان الرجل نائما، تارة يبتسم، وتارة أخرى يطلب ماء ليشرب، وأحيانا تصدر منه كلمات لا معنى لها، وأحيانا أخرى يدخل عليه بعضهم بحذر ثم أحاطوه وسألوه: هل تريد شيئا؟ أتريد قسيسا؟

فقال:

- نعم... لا....

ثم خرجوا وما هي الا لحظات حتى عادوا ومعهم قسيس كأنه كان ينتظر خلف الباب. وما أن رآه الرجل المريض حتى التفت إليه وخاطبه قائلا:

- سوف أموت.

- على أي دين أنت؟

- دين بلدي، أرثوذكسي.

- ما هو إلا بدعة دينية يجب أن ترتد عنه، فالدين الكاثوليكي هو الدين الحق.. اعترف وأنا سأبرئك وأعمدك.

فصمت المريض ولم يجب.

أعاد القسيس ما قاله:

- هيا، اعترف إليّ.. أفضي إليّ بما ارتكبته من آثام وأخطاء، تُب توبة صريحة وستُغفَر لك كل آثامك.

قال الرجل المريض:

- عن الآثام؟

قال القسيس:

- تذكر.. أيجب أن أساعدك؟ - وأشار ناحية الباب وقال- هذه التي تقف هناك؟

- إنها زوجتي.

- منذ متى؟

- منذ يومين.

- أوه! منذ يومين! ومن قبل، هل أخطأت معها؟

- لا..

- آه!.. سأسلم جدلا بأنك تقول الحقيقة، ولكن كيف لم تخطئ؟ أليس هذا طبيعيا؟ لأنك رجل!

وبدا الضيق على وجه المريض ولكن القس قال له:

- لا تتضايق يا ولدي من أسئلتي هذه، فأنا أسألك بكل بساطة فأجبني بنفس الطريقة كذلك، وسيسمعك الله، وسيكون معك حليما.

- هي فتاة مخطوبة، كانت تعيش معي منذ أن كانت طفلة، وقاسمتني ظروف الحياة ومشاق أسفارها، وكانت تعتني بي، وقد تزوجتها قبل مماتي حتى ترثني لأني غني وهي فقيرة.

- ألهذا فقط؟

- إنني أحبها.

- ها أنت قد اعترفت أخيرا.

واستطرد القس وعيناه في عيني الرجل المريض يضايقه بحديثه وبأنفاسه.

- اذن فقد رغبت في هذه المرأة، رغبت في لحمها، وارتكبت الإثم في ذهنك منذ زمن بعيد؟ أخبرني، كيف كنت تعاملها أثناء سفرك، وكيف كانت تعيش في الفندق، وكيف كنت تنظم اختيار الحجرة والفراش؟ تقول أنها كانت تعتني بك، مثّل لما تقول؟

تلك بعض الاسئلة التي حاول بها رجل الدين أن يتغلغل في نفس الرجل

المريض، ولكن الرجل المريض أصبح جافا وخشنا أمام هذا الرجل الغريب ولا يصدق شيئا، فحاول جاهدا أن يوجه سؤالا إلى القس:

- اذا لم أكن قد أخطأت إلا بالفكر فقط، اذن فأنا لست مذنبا، فلماذا أندم أو أتوب على شئ ناتج عن الألم؟.

- لسنا الآن أمام نظريات، وما جئت هنا لذلك، يجب أن تفهمني وتجيبني على أسئلتي فقط، قص على كل الظروف التي كانت تحيط بك وبرغبتك بالتفصيل.

- لكني قاومت، هذا كل ما يمكن أن أصرح به.

- لا يكفي فيجب أن تغسل الحقيقة الخطأ.

- فلأكن مغلوبا على أمري، لقد ارتكبت هذا الإثم وإني لأندم وأتوب عنه.

- ليس هذا اعترافا، ما هي الظروف والملابسات التي أحاطت بك مع هذه المرأة وما هي الأفكار الشريرة التي تولدت مع أفكارك؟

ضاق المريض ذرعا بهذا، فاعتدل قليلا واستند إلى مرفقيه وحدق في رجل الدين وثبت عينيه في عينيه وقال:

- هل أنا الآثم الوحيد؟

قال القس:

- بل الجميع؟

- إذن هو الله، طالما إنه خالقهم.

- آه! انك تدخل في مناقشات وسأجيبك. إن الإنسان لديه الميول إلى الخير والشر، أي احتمال إتيان أحدهما، فإذا نزع إلى الشر، تحل به لعنة الله، أما إذا جنح إلى الخير، فيجازيه الله خيرا، ولكي يستحقه، يجب عليه أن يتذرع بالقوة.

- أي قوة؟

- الفضيلة والدين.

- فإن لم يكن لدى الانسان دين أو فضيلة، فهل هذا خطأه؟

- نعم ففي هذه الحالة تعمى بصيرتك.

فقال المريض مكررا بعض ما قاله:

- ومن ذا الذي غرس في نفوسنا هذا القبس من الفضيلة أو من الجور.

قال القس:

- هو الله الذي وهب الفضيلة، وخيّرنا أيضا بينها وبين الرذيلة.

- فإذا كانت ميول الإنسان إلى الشر أقوى من ميوله إلى الخير فكيف يتسنى له أن يتجنب الرذيلة، ويجنح إلى الفضيلة؟

قال القس:

- هذا يرجع إلى اختيار الفرد.

- وهذا الاختيار ما هو إلا غريزة فاضلة، وإذا...

قال القس مقاطعا:

- إذا أراد الإنسان خيرا، فله ذلك، لأننا إذا تناقشنا في ذلك فلن ننتهي من شئ لا يُناقش، فإن لم يكن إبليس قد لعنه الله، ولو أن آدم لم يخطئ لكان الأمر غير ما هو كائن!

قال المريض:

- ليس من العدل أن نتحمل عبء آدم وإبليس.

فقال القس:

- ولكن هذا أكثر شرا من هؤلاء الذين انصبّ عليهم العقاب واللعنة، فإن كانوا قد زلوا، فهذه إرادة الله الذي أخرجهم من لا شئ، من لا شئ، هل تفهم؟ ومنحهم كل شئ من الفضيلة أكثر من الرذيلة، وقد عاقبهم على انزلاقهم حيث ألقى بهم!.

كان الرجل المريض قابعا طوال الوقت يسند ذقنه إلى يده، في جلسة مثل أبو الهول، ينصت إلى ما يقوله القس.

وعاد القس إلى كلامه قائلا:

- وقد كان في مقدورهم أن يختاروا طريق الفضيلة إن أرادوا ذلك، وهذا هو الخيار.

كان القس يتحدث بصوت حلو وهادئ، لم تضايقه مناقشة الرجل المريض، بينما كان ينصت إليه المريض فإذا به يسمع منه عبارة كان لها وقع شديد في نفسه:

قال القس:

- ففي السماء يشقى المخطئون، ويهنأ التائبون.

فقال المريض:

- وعلى الأرض؟

- على الأرض، الصالحون أشقياء كغيرهم، بل أكثر منهم، لأنه بقدر ما يتعذب الانسان على وجه الارض، بقدر ما ينعم في أحضان السماء.

فصاح المريض كالمحموم:

- آه! أكثر من الخطيئة الأصلية وأكثر من القضاء والقدر، فإن آلام الصالحين على الأرض ممقوتة ولا شئ يغفر لها!.

فنظر القيس إليه بهدوء وقال:

- ومن أين لك أن تختبر النفوس دون ذلك!

أجاب المريض:

- لا شئ يغفر لها حتى العقول الصبيانية التي لا تعي شيئا، وحتى يعرف الله طبيعة هذه النفوس، فيجب على الصالحين ألا يتألموا، اذا كان هناك قسط من العدالة: حتى يتحقق للانسان سعادته، يجب عليه أن يقاسي ويكابر. ومن أين لك أن تعلم أنه لا يوهب ذلك الانسان الذي قد ثار على القانون البدائي؟.

وازدادت حالة المريض سوءا، وأسرعت أنفاسه وقال:

- لن يكون لهذا الاتهام رد. فقد ألقيت الضوء على الصرح المقدس في

مختلف صوره، ولم تخفِ منه شيئا، مما يسبب الآلام التي لا نستحقها.

قال القس:

- ان السعادة التي تحققها بالألم ما هي إلا المصير المشترك والشريعة العامة.

قال المريض: أتُشكك في الله لأنها الشريعة العامة؟

- ان لله في ذلك حكم لا حدود لها.

فرفع المريض يديه إلى الأمام، وزاغت عيناه وصاح قائلا: "كذب"

قال القس:

- في هذا الكفاية، قد صبرت على شرود فكرك، وأنا مشفق عليك، فالأمر لا يتعلق بكل هذه الأفكار، فيجب عليك أن تقترب إلى الله الذي- كما يبدو لي- كنت تعيش بعيدا عنه، فان كنت تتألم فهذا يجعلك أكثر قربا منه، وآمل أن يكون في هذا كفايتك.

لم يتفوه المريض بأي كلمة بعد ذلك وظل صامتا وهو ممدد على فراشه كتمثال رخامي ذي وجه برونزي فكان فراشه شبيها باللحد، ثم خرج من صمته وقال:

- ليس في استطاعة الله أن يواسيني.

القس:

- يا نبي! ماذا تقول؟

- ليس في مقدوره أن يواسيني، لأنه لا يستطيع أن يهبني ما أريد.

قال القس:

- وَلَدِي المسكين! كم أنت تتخبط في الظلام.. والقدرة الإلهية اللا محدودة، ماذا أنت بفاعل حيالها؟

قال الرجل المريض:

- للآسف، لم أشغل نفسي بها.

إندهش القس وقال:

- ماذا!؟ أيناضل الانسان مدى حياته، ويتعذب ويتألم ثم لا مواساة؟! كيف تفسر ذلك؟

قال المريض:

- للأسف ليست هذه هي المشكلة.

قال القس في ضيق:

- لماذا إذن أرسلت في طلبي؟

- كان عندي أمل.

- إذن ماذا بك؟ ما أملك؟

قال المريض:

- لست أدري، فالإنسان لا يتمنى ما لا يدري.

وبعد ذلك لاذا الاثنان بالصمت. فكان شعوري حينئذ أن ما يدور بخلدهما هو الشئ نفسه والفكرة نفسها وهي: وجود الله: هل الله موجود؟ وهل الماضي والمستقبل ليس لهما وجود؟ إذن فهناك تقارب بينهما، فهما أخوان في التضرع وأخوان في التباين.

وحطم القس الصمت وهو يقول:

- الوقت ينقضي.

وكأن شيئا من هذه المناقشات لم يحدث، وعاد القس إلى الحديث الذي كان قد بدأه مع المريض:

- افضِ إليّ بالظروف التي عشت فيها وقت خطيئتك الجسمانية، عندما كنت بمفردك، مع هذه المرأة جنبا إلى جنب، أو قريبا منها، هل كنتما تجلسان في صمت؟

قال المريض:

- إنني لا أؤمن بك.

فقطب القس حاجبيه وقال:

- تب واعترف لي إنك تؤمن بالدين الكاثوليكي، فهو الذي سينقذك.

ولكن المريض هز رأسه في حزن عميق نافيا كل شئ عن سعادته، ثم هم أن يعود إلى مناقشته قائلا: "الدين..."إلا أن القس قطع عليه حديثه قائلا:

- لن نبدأ ثانية! صه، فكل أفكارك الباطلة قد مسحتها بحركة واحدة. عليك أن تبدأ بإيمانك بالدين، وسترى ما هو الدين، ونفرض إنك لا تعتقد فيه لأنه لا يعجبك ولهذا كان حديثك كله خارجا عن الموضوع وقد جئت أنا لكي أجبرك على هذا، على أن تؤمن به.

يا له من صراع حاد بين رجلين يشرفان على حافة مقبرة وينظران إلى قاعها كعدوين!

القس: يجب أن تؤمن.

المريض: لا..

القس: بل يجب.

المريض: أتريد أن تغير الحقيقة بالوعد والوعيد؟

القس: نعم - وأضاف بلهجة حادة - سواء كنت مقتنعا أم لا، تب فالأمر لا يتعلق بالتوضيح والبيان، بل يتعلق بالإيمان. فيجب علينا أولا أن نؤمن وإلا فلن نؤمن مطلقا، وهنا تكمن الخطورة، فالله لن يمن علينا بالإيمان، فزمن المعجزات قد ولى وانتهى، والمعجزة الوحيدة هي نحن، وهنا الدين والعقيدة، فآمن وستساعدك السماء على هذا.

كل هذا والقس لا يكرر سوى كلمة واحدة وهي" آمن " كأنه يلقيه بحجر في كل مرة يقولها له.

واسترسل في حديثه إلى المريض:

- أي بني، أنا لا أطلب منك سوى الإيمان.

فاجابه المريض ببغض:

- أغرب عن وجهي.

لكن القس ظل واقفا ولم يبدِ حراكا، ولم يخمد، تدفعه الرغبة الملحة في انقاذ هذه النفس رغما عنها. فقال للمريض:

- هيا! أطعني، فلم يبق لك على وجه الأرض سوى بضع لحظات وستوافيك منيتك.

- لا..

فأمسك القس بيديه وقال له: لا يوجد سوانا أمام الله، أنا وأنت، ولن تجدي المهاترات في شئ، فكلها تذهب مع الريح، والفرصة سانحة لك الآن فانتهزها.

وهز القس رأسه أمام المريض الذي اصفر لونه وشحب وجهه، وزاغ بصره، وامتلأ وجهه بالغضون، وغار أنفه في وجهه، واسودت ذقنه وخديه، ثم قال له:

- اعلم إنك وانت أمامي كأنك أمام الله، ما عليك إلا أن تقول ببساطة "آمنت"، وبعد ذلك سأحل عنك، هذه الكلمة هي كل شئ في الآخرة، أما دون ذلك فلا نفع منه.

واقترب بوجهه من هذا الرجل الذي يشرف على الموت، كمن يريد أن يفرض عليه التوبة والإيمان:

- قل معي أبانا الذي في السموات فلا أطلب منك سوى هذا.

زاد المريض إصرارا على رفضه أمام هذا الالحاح وهز رأسه نفيا. فنهض القس وعلى وجهه أمارات الانتصار وقال له:

- ها أنتذا قلتها أخيـرا.

- لا..

فزمجر القس قائلا: آه... وأمسك بذراعيه وضغط عليه بشدة كأنه يريد أن يحتضنه ليقبله أو ليعتصره أو ليغتاله. يحاول بأي طريقة أن ينتزع ما يريد من شفتيه وقال:

- فكر في أنك ستترك الأرض عاجلا وستموت، فقل هذه العبارة فقط. "أبانا"

لا أكثر منها.

واقترب منه أكثر مرددا في وجهه: "قلها، قلها، قلها" ولكن هذا الأخير أجابه بكل ما تبقى له من صوت قائلا: "لا".

قال القس:

- أيها الوغـد!.

أخرج القس صليبا من جيب سترته، ووضعه على صدر الرجل، فتململ منه كأنه به عدوى، ثم ألقاه على الأرض فالتقطه القس وهو يزمجر ويلعن ويسب:

- انك تريد أن تدفن كالكلب، ولكني هنا.

وضع القس الصليب ثانية على صدر المريض، الذي يكاد يلفظ أنفاسه، فلم يستطع أن يفعل شيئا في هذه المرة واكتفى بأن نظر إليه ببغض، ولكن نظراته هذه لم تلقِ بالصليب إلى الأرض.

ولما رحل القس في الظلام، وبدأ الرجل يفيق إلى حقيقته، كنت أعتقد أن هذا القس بقسوته وخشونته على حق، أقس ردئ هو؟ لا بل هو طيب فهو لم يكف عن التحدث بضمير وإيمان، وهو يعمل على تطبيق دينه كما هو دون نفاق. ولكنه جاهل وغير حاذق، نعم هو شريف في أسلوبه منطقي في تفكيره وفي محاولاته.

سمعته ورأيته وهو يحاول جاهدا بشتى الوسائل الأمينة أن يهب التوبة والغفران، ولكن دون جدوى حتى أنه تألم لذلك ألما حقيقا إلى أن قال: "ما عساي أنا بفاعل لك غير هذا؟". فإذا كان الرجل على حق فالقس كان على حق، فالقس هو حماقة الدين وغبائه. آه! ما هذا؟ هذا شئ لم يكن يتحرك من قبل بجوار القماش، هذا الشئ الكبير لم يكن موجودا من قبل، يعترض ضوء الشمعة الموجودة بجوار المريض.

وأحدثت دون قصد مني ضوضاء حقيقية، جعلت هذا الشئ يستدير

نحوي، فرأيت وجها مخيفا، وقد أخافني فعلا.

إنني اعرف هذا الوجه، أليس هذا الوجه لصاحب الفندق؟ رجل له بعض التصرفات الشاذة، كان يجوب الممر في انتظار أن يصبح المريض بمفرده. مد يده إلى حقيبة كبيرة موضوعة إلى جوار السرير، وأثناء ذلك كان ينظر إلى وجه المريض، فأخطأت يده الحقيبة، وسمعنا ضوضاء صادرة من الطابق العلوي فارتعدنا، وطرق أحد الأبواب، فنهض وهو يحاول أن يكتم صيحة تكاد تخرج منه. وفتح الحقيبة ببطء، وأنا لا أعرف لماذا كنت خائفا ألا تسنح له الفرصة!.... فأخرج منها لفافة كانت تحدث صوتا خفيفا، وعندما قدر هو أن في يده دفتر الشيكات، لمحت على وجهه نورا سطع على وجهه واختفى سريعا، كانت ترتسم على هذا الوجه كل علامات الحب، والغموض، وشعور بسعادة متناهية، وقناعة كبيرة عانقت السرور الذي يشعر به... نعم كل سمات الحب بادية على وجه هذا اللص الذي ينبض بالانسانية العميقة.

كان الباب في هذه اللحظة مواربا، وكان يكمن خلفه أحد، حيث لمحت طرف ذراع، وانصرف على أطراف أصابعه.

وبالرغم من إني رجل شريف، فقد كنت ألتقط أنفاسي في اللحظة التي كان يسترد هو فيها أنفاسه.. وكما فهمت، إن ذلك يرجع لشعوري باشتراكي معه، متواطئ معه في السرقة، وعلى ذلك فيجب أن أدافع عن نفسي.

كل اللصوص عاطفيون، حتى هذا اللص الجبان، ونظرته الشخصية إلى الثروة، فكل الجرائم والإساءات ما هي إلا محاولات مكتملة في صورة الرغبة التي لا نهاية لها والتي هي جوهرنا، وأصل نفوسنا العارية ما هي إلا "حب تملك ما للغير". ولكن أمن الواجب أن نغفر للمجرمين؟ وهل عقابهم ظلم لهم؟ لا.. ولا يجب أن ندافع عنهم.

ولما كان المجتمع الانساني تدعمه الأمانة والشرف فيجب القصاص منهم حتى يقتدي غيرهم، وكذلك لا يجب خلق الأعذار للأخطاء حتى لا تتحول

إلى عادة بل تلزم محاكمتهم تحقيقا لمبدأ الفضيلة فيجب أن تكون العدالة مصقولة كالسلاح. فالعدالة ليست كما يشير إليها اسمها، وإنما هي خلية تشعر بالفضيلة، فهي لا تكفي أو تستقر، فدورها يقتصر مثلا على تغيير المذنبين إلى نوع من الأشباح المخيفة بأن تشفع لمن يتأرجح ناحية الجريمة، إذا أبدى أي عذر لجريمته. فأي انسان ليس من حقه أن يدفع بآخر إلى التكفير عن ذنوبه، لا يستطيع أحد ذلك فالانتقام منفصل تمام الانفصال عن هذا. إذن فالغفران كلمة عديمة الاستعمال في العالم.

*****

-12-

رقد الرجل في فراشه، الموت يتسلط عليه، فلم يتفوه ببنت شفة، ولم يبد حراكا.

أما الصديقة الجميلة فقد جلست أمامه مستندة إلى عارضة السرير، وعيناه مثبتتان عليها، تتمتع ببراءة الطفولة، وجمال الملائكة، بشعرها الجميل وبشرتها البيضاء، فكنا- أنا وهو- لا نرى أمامنا سواها يبدو عليها الخوف من أن تصبح أرملة.

خرج من الفراش صوت عرفته بصعوبة، صوت المريض، قال: "حديثك لم ينته بعد" فانحنت "آنا" على الفراش حتى تسمع الكلمات التي تقال لآخر مرة- دون شك- من هذا الجسد عديم الحركة والشكل.

وأعاد القول:

- هل لدي متسع من الوقت... هل لدي وقت؟.

كان صوته يخرج همسا لا يسمع إلا بصعوبة، وارتفع رويدا رويدا وهو يقول:

- لي رغبة في أن أعترف إليك يا "آنا". ولا أريد أن تموت هذه الذكرى معي، إني أشفق عليها من الموت، آه كم أشفق عليها من الموت.. كنت أحب امرأة قبلك.. نعم.. أحببت.. يا لها من صورة حلوة وحزينة أريد أن أنتزع هذه الذكرى من الموت وأهبها إليك طالما أنت هنا.

ثم اعتدل في جلسته حتى يرى جيدا من يتحدث إليها واستمر:

- كانت شقراء. لن تغاري منها يا آنا (فأحيانا تتملكنا الغيرة حتى إن لم

نكن نحب) فمنذ عدة سنوات عندما ولدت كانت طفلة صغيرة، تجذب أنظار الأمهات عندما تسير في الطريق. تمت خطبتها في منزل أبويها، وكان لها شعر ذهبي جميل، تلفه بالشرائط، وكنت أسير أمامها ممتطيا جوادي فكانت تبتسم لي.كنت حينذاك شابا يانعا، مملوءا حيوية ونشاطا، أشعر كأني في مقدوري أن أغزو هذا العالم كله، وهي أيضا كانت تشع نشاطا مثلي، كنا نتنزه في "البارك"، ونقول لبعضنا سنأتي هنا دائما عندما تتقدم بنا السن، كان حبنا عظيما، ليس عندي متسع من الوقت لأصفه لك، ولكنك تعلمينه يا آنا، فهذه الذكريات التي أقصها عليك، في غاية من الروعة، أكثر مما تتصورين! ولكن الموت اختطفها في نفس الربيع الذي كنا سنعقد قراننا فيه. فقد اجتاح بلدنا وباء جعل منا نحن الاثنين ضحايا، تركتني وحيدا لم تستطع أن تهرب من الموت. منذ خمسة وعشرين عاما يا آنا! خمسة وعشرون عاما بين موتي وموتها!.. هذا هو السر الثمين يا آنا واسمها.....

لم أسمعه جيدا وقال:

- قوليه لي يا آنا..

أعاد الإسم ثانية في مقاطع متفرقة لم أفهمها أو أسمعها، ثم قال:

- أفضيت لك به لأنك هنا بجواري، فوجودك هو الذي دفعني إلى ذلك، أما إذا لم تكوني بجواري فكنت سأفضي به إلى أي أحد حتى أخرجه مني.

وأضاف بصوت خال من النبرات.

- عندي أيضا ما أريد أن أفضي به إليك شقاء وخطأ..

- ألم تعترف إلى القس بالاثم؟

- لم أقل له شيئا.

واستطرد:

- أثناء فترة خطوبتنا، كنت قد نظمت شعرا، وكنا نقرأ هذه الأشعار سويا كم كان هذا جميلا! هذا ما كانت تقوله.كانت هذه الأشعار تلازمنا أينما

كنا، لا تفارقنا، ولا ترغب هي في أن أنشرها حتى تظل بيننا، وقد صرحت لي برغبتها هذه ذات يوم في الحديقة وهي تقول كطفلة صغيرة "أبدا، أبدا" وهي تهز رأسها، ويتطاير شعرها في الهواء كأنه يرقص.

وزاد صوت الرجل قوة، واعترت نبراته رعشة وهو يقص ما تبقى من القصة:

- ومرة أخرى قالت لي ونحن في الحديقة، والمطر يهطل منذ صباح ذلك اليوم "فيليب" قالتها كما تقوليها لي أنت: "فيليب".

وتوقف في حديثه يتعجب من بساطة العبارة التي نطقها.

قالت لي:

- هل تعرف قصة المصور الانجليزي "روسيتي" وقصت عليّ تلك القصة التي قرأتها. لقد وعد محبوبته بعد أن طلبت إليه ذلك أن يدفن معها كتابه، ولما وافتها منيتها، حقق لها أمنيتها ودفن معها الكتاب فعلا. ولكنه طمعا في المجد انتهك حرية وعده وحرمة المقبرة أيضا، واسترد المخطوط فهل ستدفن معي كتابك هذا بعد موتي؟ فوعدتها وأنا أبتسم: نعم. وابتسمت هي أيضا قالت: ولن تأخذه ثانية يا فيليب. ولما شفيت أنا من المرض قليلا علمت إنها ماتت. ولما تمكنت من الخروج اصطحبوني إلى مقبرتها، مقبرة العائلة، التي تضم تابوتها الصغير. ما فائدة ذكرى هذا البؤس والحداد... فكل شئ يذكرني به، وصورتها كانت تملأ حياتي، أما هي فلا وجود لها. وكلما ازدادت ذاكرتي ضعفا، تحولت التفصيلات إلى ذكريات، فكان حزني بداية مخيفة لحبي. وكان الكتاب يذكرني دائما بالوعد، فأودعته خزانة صغيرة دون أن أقرأه ثانية، لذلك لا أعيه جيدا، فدور النقاهة قد غسل ذهني، وعلمت أنهم فتحوا المقبرة، وأخبرني الخادم بأنهم وضعوا الكتاب بين يديها. أخذت أكتب بعد ذلك قصائد ولكن لا شئ كان يرضيني وأصبحت في حاجة إلى كتابنا. "آنا" لابد أن نرحم أنفسنا.. أعرف جيدا أن ما بين قلبين من حب، شئ رائع، ولكني بعد ثلاث سنوات شعرت بأن لي رغبة في أن أفعل ما فعله المصور الانجليزي،

ليس فقط طمعا في المجد والشهرة، بل أيضا لأن حبنا وذكرياته الجميلة بين طيات هذا الكتاب، ومع ذلك فصوتها الجميل يرن في أذني وهي تقول: "ولن تأخذه ثانية يا فيليب".

لم تساعدني مقدرتي على أن أتمم بقية القصائد كأن مقدرتي قد وهنت خلال الثلاث سنوات التي تلت موتها، فكنت أكتب بصعوبة، وأحصل على عناوين القصائد الشعرية بعد جهد وعناء، وأخيرا وجدت أنه لابد لي من استرداد الكتاب حتى وهو في المقبرة.

وذات ليلة اجتاحتني رغبة في الذهاب إليها.. وبعد تردد، وبعد صراع نفسي طويل وعنيف، ليس من الضروري أن أسرده عليك، وقصة الانجليزي عالقة بذهني، ذهبت إلى المقبرة في الظلام، والبرد، وأخذت معي مصباحا كما قالوا لي، وكنت أتوقع ما سيصادفني... الرائحة، العقد الملفوف حول رقبتها... لم أعرفها... لم ألمس سوى الكتاب الذي أعطته لي... لا أريد أن أثقل عليك يا آنا فالحياة بعد أن كانت قاسية أصبحت حلوة في هذه اللحظة التي تصغين اليّ فيها، وهي اللحظة التي أعيش فيها مع الماضي.

كانت آنا تصغي اليه، وليس في إمكانها أن تفعل سوى ذلك.واستمر هو:

- وأمضيت بقية الليل في قراءة الكتاب المسروق، أليس في ذلك عزائي الوحيد، لأنسى موتها وأفكر في حياتها؟ ولاحظت جيدا أن هذه الأشعار ليست كما كنت أعتقد، فهي لا تزيد في قيمتها عن الأشعار التي نظمتها بعد موتها. وتولاني يأس أثلج كياني، فطأطأت رأسي أمام بقية الأشعار، فيبدو أن الفترة التي قضاها الكتاب في المقبرة، قد شوهت معانيه، وسلبت الروح من أشعاري، أصبحت بائسة كالأيدي الجافة التي أخذتها!

كم صاحت وهي تقول: "جميل.. جميل" بصوت عذب والأيدي تتشابك في حنان. حيث كان الصوت والقصيدة على قيد الحياة وحيث كان الحب يزين قافيتي ويضفي عليها جمالا، كل هذا كان في الماضي.. يبدو أن الموت يعدي..

فقد أصاب أشعاري أيضا لبقائها فترة طويلة مدفونة معه في الهدوء الرهيب والظلام المخيف، في هذا النعش الذي يرقد فيه حبي، والذي لم تكن تواتيني الجرأة على أن أدخله لو لم يكن فيه حبي.

صدقت أن عملي هذا كان انتهاكا لحرمة دون فائدة، وأن كل ما نعد به ونقسم هنا على الأرض، ما هو الا انتهاك حرمة لا ترجى منه فائدة.

حقا لقد ماتت! يا لها من ليلة ذرفت فيها الدمع حارا، كانت ليلة حدادي الحقيقية، كم يشق على المرء أن يفقد حبيبا له، وخاصة عندما يشعر بأن كل شئ قد انتهى! وأن اليأس لا مفر منه! والجريمة التي ارتكبتها تلك الليلة، إنما هي من ابشع الجرائم.

كم كانت جميلة ومتفتحة، تدب فيها الحيوية، تضحك دائما، واسئلتها لا تنضب... كأني أعيش معها من جديد، تحت أشعة الشمس على بساط سندسي أخضر ترتدي "جونلة" من الستان الأحمر الباهت، وتنظر إلى ساقيها الجميلتين ونحن نجلس بجوار قاعدة تمثال مرمرية.

كنت أجلس بالقرب منها، لأشبع ناظري بفتنتها، وأتفحصها جيدا لعلي أجد أي عيب في جسدها، ولكني لم أعثر على شئ يُعاب عليه. خدان جميلان، وجبهة مضيئة، وبشرة بضة... تأثرت كثيرا لهذا الجمال الذي لا يوصف، ودون أن أدري وجدت نفسي أقول: "هذا كثير... هذا كثير" كأنها أميرة على كل من حولها. فعندما كانت تسير في الطريق، يتسابق الناس على مداخل أبوابهم، الرجال حتى الشيوخ منهم، ليشاهدوها، ويبدون لها كل احترام... كان لها مظهر الملكة التي تقف على قاعدة عالية، كتمثال في "البارك". حتى المقعد الرخامي الذي كنا نجلس عليه أصبح مهجورا كالمقبرة. احتفظت عندي ببعض الأشياء التي كانت تخصها. مروحة أحركها أمام عيني، وقفازها الصغير، وقد فارقته الحياة، وخطاباتها التي كتبتها بخط يدها. آه... منذ لحظة، أيقنت كم كنت أحبها، وكم أحببتها على مر الزمن، هي، هي التي مُنحت الحياة، ثم

سلبت منها، والتي كانت شمسا وصيحة، الآن قد واراها الثرى في نبع مظلم.

بكيت أيضا هذا القلب الإنساني، في تلك الليلة، فهمت قيمة ما أشعر به، ثم أقبل النسيان، وتلته اللحظات التي كانت بمثابة تذكير للحظات التي بكيتها.

هذا هو الاعتراف الذي كنت أود أن أفضي لك به يا آنا.. كانت لي رغبة في أن قصة الحب هذه، التي بلغت من العمر خمسة وعشرين عاما، لا تفنى، وأن تبقى على مر الزمن، أعرف أن في هذا مضايقة لك وأنه شئ يربك ولكنه حقيقي. فمنذ أن أحببتك، ومازلت أحبك، أقدم لك صورة المخلوقة الصغيرة الجميلة التي كانت تبلغ من العمر سبعة عشر عاما وستظله دائما..- وتنهد بعد أن قال هذه العبارة - ورغم أني كنت أحبها وأعبدها وهي تبادلني نفس الشعور، فإني أحبك وأعبدك حبا لا يشاركني فيه مخلوق... آه.. أمن الممكن أن يعثر الانسان على الجنة حيث يجد السعادة!؟

وارتفع صوته، وخرج عن ثباته للحظة وقال:

- آه! أنتِ.. أنتِ.. أنتِ فقط. آه.. يا آنا.. لو كنت قد اقترنت بك حقيقة! كنا سنعيش كزوجين، وكنا سننجب أطفالا، لو كنت دائما بجانبي كما أنت الليلة؟ حقيقة انك بجواري!.

وهدأ بعد ذلك. كان يتحدث بشدة بحيث لو لم تكن هذه الفجوة موجودة، لكنت سمعته أيضا... لقد أفضى بحلمه، ونثره من حوله دون وعي منه... هذا الإخلاص الذي يختلف عند الجميع، كان له معنى حاد سحق قلبي.

واستطرد: "أعذريني.. أعذريني.. هراء لم أتمكن من ضبط نفسي..".

إلى هنا توقفت كلماته، وهدأت ثائرته، واستراح وجهه، بينما عيناه تتألمان، وكرر بصوت خافت كأنه يحدث نفسه:

"أنتِ.. أنتِ".

خمدت أنفاسه بعد أن نطق بهذه الكلمة: "أنتِ" وفي هذه الليلة فارق الحياة، وخرج من الدنيا، رأيته وهو يواجه الموت بمفرده، لم يكن معه أحد

في هذه الليلة، مات في هدوء، دون شهيق أو حشرجة، لم ينازع، ولم يتشبث بغطاء فراشه، لم يصرخ أو ينادي أحدا، لم يحدث من هذا شئ قط.

كان قد طلب من آنا أن تحضر له قليلا من الماء، وانصرفت لتلبي طلبه، وتركت خلفها الباب مفتوحا وتسلل الضوء إلى الغرفة وسقط على وجه الرجل، وأحسست في هذه اللحظة أن هدوءا كبيرا يغمر هذا الوجه، ولكن كيف؟ لا أدري!

وحتى لا يشعر بأنه وحيد لم أستطع أن أمنع نفسي فصحت: "انني أراك"، وتغلغل صوتي الشاذ الذي لم يتعود على الكلام داخل الحجرة، ولكنه كان قد مات. حتى في هذه اللحظة التي منحته فيها صدمة من مجنون.

كان رأسه منحدرا إلى الخلف قليلا وحدقتاه محولتان وفي هذه اللحظة دخلت "آنا" وهي تسرع لأنها سمعتني دون وضوح، وما إن وقع نظرها عليه حتى صدرت صرخة قوية من جسدها السليم المعافى، صرخة قوية خرجت من أعماقها، صرخة رنانة، صرخة أرملة، وركعت على ركبتيها أمام السرير.

وعلى أثر هذا، أقبلت الحارسة، فلما رأت هذا المشهد رفعت يديها إلى السماء وساد الحجرة صمت عميق وارتسم عليها البؤس، ومهما يكن من أمر الميت أو مكانه فان المرء ينتابه شعور غريب.

امرأة راكعة على ركبتيها، وأخرى واقفة ينظران إلى الفراش، الممدد عليه انسان بلا حراك، كأنه لم يكن، وكذلك المرأتان.

وبعد لحظات انخرطت "آنا" في البكاء طفلة صغيرة وانصرفت الحارسة لتبحث عن بعض الأفراد، ونهضت "آنا" وتناولت شالا تركته السيدة العجوز على أحد المقاعد وتأزرت به.

دبت الحياة في الغرفة التي كانت خالية في هذه الأيام الأخيرة، وامتلأت بالشموع المضيئة، واختفت النجوم التي كنا نراها خلال النافذة المفتوحة.

امتلأت الغرفة بالناس، فمنهم من كان يبكي، ومنهم من كان يركع على

ركبتيه، وجدت وجوها لا أعرفها ولم أرها من قبل، ولكنه كان يعرفها، كان يخيل الي، وأحس أنه هو الحي وهؤلاء المتجمعون من حوله متألمين لفراقه، هم الأموات؟

سمعت الطبيب وهو بالقرب مني يقول للحارسة:

- لابد أنه تألم كثيرا قبل أن يموت.

- كان ضعيفا جدا هذا المسكين.

- ولكن الضعف لا يمنع من الألم إلا في نظر الآخرين.

بدأ اليوم التالي كئيبا، وببداية النهار، ازدادت برودة الجو مما زاد الغرفة كآبة، وسمعت صوتا يخترق هذا الهدوء ويقول: "لا يجب أن تفتح النافذة، فسيفسد سريعا" وتمتم آخر "الجو بارد"

كنت أرى حركات كثيرة تصدر من الموجودين كذراعين تضم عليها فراء، وشخص ينهض ويجلس، وآخر يدير رأسه، وأسمع تنهيدة أو زفرة...

سمعت البعض يقول اننا انتهزنا فرصة الحديث لنرحل عن هذا الهدوء الذي يثلج البدن. ويتجدد النظر إلى الرجل الموضوع في النعش كتمثال لا يبدي حراكا. أظن اني قد غفلت على سريري، ومع ذلك فالوقت لم يزل مبكرا، وفجأة دوى في السماء الرمادية اللون صوت جرس الكنيسة.

بعد هذه الليلة المضنية، وهذا الانتظار الممل اصطحبتني دقات هذا الجرس إلى ذكرى الطفولة الجميلة... شرد ذهني في الريف الذي كان يضمني وأصوات الأجراس التي تظلها سماء صغيرة، في موطن هادئ حيث كل شئ جميل، وسقوط الثلج يعني "نويل"، ودفء الشمس ينادينا دائما ويتوسط كل هذا شئ واحد هو الكنيسة. وتوقفت الدقات شيئا فشيئا حتى اختفى صدى صوتها. ولكن هناك دقات أخرى، إنها دقات الساعة، الساعة الثامنة. ثمان دقات رنانة يعقبها هدوء ليس بعده هدوء، ما علينا إلا أن نعد هذه الدقات التي تعبر عن مرور الزمن... عمل من أعمال القدر.

في هذا الوقت من السحر كانت الطبيعة متأنقة تزين كل شئ حتى الكنيسة... قطرات المطر تتساقط فوق أوراق الأشجار، متناثرة عليه كاللؤلؤ والجليد على الزجاج في منظر رائع كأن يد امرأة ماهرة قد شغلته.

إن العبارات السابقة على مر الزمن تظل محتضنة لترانيم أجراس الكنيسة، تحتضنها في هدوء حتى أنها تتزايد وتنمو في أيام أو سنين أو أجيال، وهذه الألحان الصادرة عن دقات أجراس الكنيسة لا يمكنها أن تبدل الحزن بالجمال.

*****

-13-

كنت وحيدا في هذه الليلة، اتخذت مكاني أمام المنضدة عليها مصباح ساطع، كما تسطع الشمس على الحقول في فصل الصيف، ابتعدت عني النجوم وحلقت في السماء، وهرب الأفق مني دون عودة.

في هذه الليلة، لم أكن هادئ النفس، في هذه الليلة تملكني الحزن العميق، والقلق، كما كان شعوري عند مجيئي أول يوم، ولما نظرت في المرآة لم أجد سوى نفسي وتلك الصيحة التي هي "أنا".

أردت أن أعرف سر الحياة، رأيت كثيرا من الناس زرافات ووحدانا، رأيت حركاتهم وتصرفاتهم، كما سمعت حديثهم، وتفرست في وجوههم، رأيت في كل وقت، رأيت العيون التي ترتجف لتبدو عميقة كالبئر، وتمليت من الفم الذي يقول مفتخرا: "إنني انسان حساس كالآخرين" سمعت ورأيت العديدين منهم.

رأيت أيضا الصراع من أجل الحب، ومن أجل التعبير عن النفس، والمتعة بين المتحدثين، واندماج العاشقين، وهما مبتسمين، حبيبين اسما فقط، يحطمان بعضهما من التقبيل، ويتعانقات ليشفى كل منهما الآخر، بالرغم من عدم وجود أي ارتباط بينهما، وبالرغم من فرط السعادة أيضا التي يشعرون بها، فهم أغراب عن بعضهم، كالغربة بين الشمس والقمر.

كما سمعت هؤلاء الذين يبحثون عن بعض الهدوء والسلام، فيجدونه في بؤسهم المهين، ورأيت الوجوه الباكية، ذات العيون الوردية اللون، كانت لي رغبة في أن أحتضن كل هذا دفعة واحدة، فكل الحقائق كانت تشكل حقيقة

واحدة، تلك هي حقيقة الحقائق التي أرنو إلى معرفتها.

وليس هذا محبة في الناس، فمن الخطأ الاعتقاد بأننا نحب بعضنا فما من مخلوق قد أحب، أو يحب، أو سيحب الآخرين، هذا في رأيي الشخصي، فأبحث عن كيفية الحصول على الحقيقة عينها والوصول إليها، هذه الحقيقة التي تسمو على العاطفة، وتسمو على السلام وحتى على الحياة نفسها، كلون من ألوان الموت.

أريد أن أنزع منها رشدا، وأستقي منها إيمانا، وأحصل بها على الأخلاص.

وتأملت الذكريات الحبيسة منذ جئت إلى هنا فوجدتها لا حصر لها، حتى شعرت بأني غريب عن نفسي، مستعرضا المشاهد التي مرت بي، قاصدا هدفا ساميا وهو الوقوف على حقيقة نفسي والاستماع إليها. وجميل أن يعرف المرء نفسه ويستمع إليها.

كنت أفكر في الجميع على السواء، فنانين كانوا أو شعراء أو علماء، كل من كان يكابد أو يقاسي، أو كل من ذرف الدمع، وكل من ابتسم للحقيقة وهو قريب من المعابد، أو في الحدائق المظلمة، التي لا تكون أرضها سوى عبير هش أسود.

وأفكر أيضا في الشاعر اللاتيني الذي يواسي الناس ويبعث الاطمئنان في نفوسهم، وهو يكشف لهم عن الحقيقة، دون غشاوة كتمثال، كما يرمي إلى خلق الأفكار التي تساعد على تخليص الناس. فهم منذ ألف أو ألفي عام دائبي البحث عن خلاصهم ومواساتهم. ولا شئ يغير من وجوه الأشياء حتى تعاليم المسيح نفسها.

هل سيأتي اليوم الذي أرى فيه شاعرا يجعل الإيمان سرمديا ولا حدود له؟ شاعر لا يكون جاهلا أو أحمق، ولكنه حكيم، شاعر عظيم لا يرحم.

لست أدري، فقد منحتني العبارات السامية أملا في مجيئه، احتمالا، وعن حقه في التقدير.

ولكني أنا.. أنا! ما أنا إلا نظرة من القدرة أمكث هنا لأبحث لها عن ذكرياتها، والآن، وبالرغم من كل شئ، أشعر كأني شاعر على مشارف عمل أدبي. شاعر ملعون قاسي، لم يخلف وراءه أي مجد عن الحقيقة التي أعارتها العبقرية للصدفة. عمل أدبي مزعزع هش، وسيمضي معي ميتا، وبالرغم من ذلك الوهن سيتلاقى مع الخطوط الأساسية والدراما الأصلية للحياة.

ماذا أكون أنا؟ أنا الرغبة في الحياة، ليست رغبة اليوم فقط، بل أيضا الرغبة الدائمة، فنحن جميعا نمقت الموت، ونبغي الحياة، فهي في الحقيقة الرغبة في الاستمرار في الوجود، والازدهار الذي لا ينضب.

فكل ما لدينا من قوة وطاقة ونشاط يدفعنا إلى التحمس لكل ما هو جديد من أفكار وأحاسيس، تدفع المرء للسعي وراء ما للغير ليضمه إلى ما له.

فالانسانية ما هي إلا الرغبة في التجديد، والهروب من الموت. نعم هو ذاك، لأن الفطرة والحرية لهما نفس الاتجاه، بما لهما من علامات ودلائل، وفي الوقت نفسه أيضا نجد أن العبارات التي تختلف تتشابه أيضا.

وبعد... أين إذن الكلمات التي تنير الطريق؟ فإذا كانت هي الانسانية، فما حظها من العالم؟ وما هو العالم؟

إنني ألمس أهمية المخلوق عندما نعدم من يهب إلى نجدتنا عند الحاجة، وقد كرست حياتي لأصل إلى فهم حقيقة هذه الأهمية، ولأصل إلى أعماق كل منا.

فمن الحقائق، أن الانسان يفرح أو يحزن إذا ما فرحت الطبيعة أو حزنت. وحقيقة أنه إذا ما طلعت الشمس، اختفت النجوم في كبد السماء. فأنا مثلا أتربع على عرش العالم، تتوجني الكواكب وتحملني الأرض وترفعني، وتربعت على قمة مئات السنين، أحصل على كل شئ، على كل كبيرة وصغيرة، من الفكر كانت أو من القلب، وأوجد الظلام إذا ما رفعت يدي أمام عيني، واذا أغمضتها، تغيرت زرقة السماء، ومن بعدي فلن تجد العظمة مأوى.

أسندت رأسي إلى راحتي، وتحسست عظام رأسي... إنها الجمجمة، نعم عظام الجمجمة، جمجمتي التي تشبه جماجم الآخرين! تشابها واضحا، فمن خلال الظلال أرى عظامي وأتعرف على نفسي، على شبحي الذي لا يفنى، وهيكلي العظمي، أحسه وأتلمسه... هو الوحش الأبيض الذي يبعث الرهبة في النفوس ويدعو إلى السأم، وهو في الوقت نفسه أنا!

وانهالت علىّ الأحلام، طالما أن جمجمتي قريبة الشبه بجماجم الآخرين، بكل من كانوا من العظماء.

ترى كم جمجمة وجدت؟ فإذا كان الخلق البشري مثلا يرجع إلى مائة ألف عام، وهذا بدون شك أقل من الحقيقة كما أنه لو عاش على وجه البسيطة مليار ونصف من السكان يتجددون كل ثلاثين عاما، فيكون الذي قد وارى التراب ما يقرب من أربعة آلاف وخمسمائة مليار جمجمة!

سيأتي اليوم الذي يواريني فيه التراب، بسبب مرض أو جراح، وأدفن كما دفن الآخرون هكذا. فهو إنذار لا مفر منه، (وتذكرت كلام الشاعر الذي أصابني بالقلق وضايقني)، إذن فهذا التراب سيحتضنني يوما ما، هذا الغبار الذي أنفضه عن نفسي في كل يوم، وأغتسل منه، وأدافع عن نفسي ضده، وأنتزع نفسي منه عنوة، هو ملاك الأرض المشئوم.

تتكاثر الديدان في النعش حول جثتي، وقد قال "لين" في هذا أن ثلاث حشرات فيها الكفاية لأن تفعل بجثة ما يفعله أسد ضاري.

تناولت كتابا وفتحته، وتعمقت فيه، لأعرف ما ينتظرني.. وعلمت قصتي المقبلة.

فحشرات المدافن وطفيلياتها، تتعاقب في دورات، وكل نوع له موسم، بحيث يصبح من السهل التعرف على عمر الجثة بمعرفة مجموعة الحشرات التي تقتات عليها وترتع.

فهناك ثمان مراحل لاستيطان الطفيليات في الجثث تعلق بثمان مراحل

للتعفن، وعن طريق هذا التعفن تبلى الجثة شيئا فشيئا.

لي رغبة في معرفتها، فلنرى أولا مالا نراه، ولنتعرض إلى ما لا نحسه.

هناك طفيليات صغيرة يطلق عليها اسم "كورتو نيقر" تلازم الجسد لبضع لحظات قبل الموت... وتحس هذه الطفيليات بقرب الخطر منها إذا ما اشتمت رائحة كريهة فتتكاثر وتضع بيضها على تجويف الأنف والفم وفي أركان العيون.

فهل تتوقف حياتها إذا ما تكاثرت طفيليات أخرى؟ فالحشرة الزرقاء والحشرة الخضراء والإسم العلمي هو: "لوسيليا سيزارا"، والحشرة الكبيرة ذات اللون الأبيض والأسود وتسمى "جراند ساركوفاجيان" تصبح حساسة بمجرد أن تضعف الأخرى.

فالجنس الأول لهذه الحشرات، يمكنه أن يتكون من ثمانية أجناس في الجثة، تتوطن وتتكاثر خلال ثلاثة أو ستة أشهر. فقد قال "ميجتان" (إن ديدان طفيليات الحشرة الزرقاء تتزايد كل يوم بما يعادل وزنها مائتي مرة).

حينئذ يصبح لون الجثة أصفر يميل إلى الاحمرار قليلا، وكذلك يكسو البطن والظهر اللون الأخضر القاتم أو على الأقل تختلف الألوان إن لم يتم ذلك في الظل.

وفي هذه السبع أو الثماني مراحل تأتي هذه الطفيليات على الجثة، شيئا فشيئا، ولا يتبقى منها سوى فضلات حول العظام، وحول الجمجمة، وفي ثنايا العظام، وهذه الطفيليات تسمى الطفيليات المفترسة.

ثلاث سنوات تنقضي، وينتهي كل شئ، ويعود المرء الذي كان معبودا إلى حكم المادة. وباختفاء الرائحة الكريهة، ينتهي كل أثر للحياة.

هذا هو مصير سكان العالم، وسيلاقونه حتما، وربما خلال الخمسة عشر دقيقة التي كنت أفكر فيها، يكون قد مات آلاف السكان.

فالأجساد ما هي إلا أعداد هائلة من الخلايا، والخلايا أعداد هائلة من

الذرات، والذرة هي أصغر جزء من المادة ولا يبلغ حجمها سوى جزء من عشر من المليمتر.

(وأما الذرة، فهي عنصر غير معروف، ومجهول ومفترض وغالبا يحتمل الحقيقة. الإنسانية جمعاء يشغلها التفكير فيها ومن هذه الذرات تكونت الكرة الأرضية نفسها وهي لا تعد شيئا بالنسبة إلى الفضاء).

فإذا رسمت دائرة على ورقة، فمركز الدائرة يعادل حجم الأرض بالنسبة إلى الشمس، والشمس بدورها يصغر حجمها بمقارنته بحجم الأرض إليها، فهذه النقط التي نخطها على الورقة مع الدوائر تمثل نجوما أو كواكبّ في السماء.

واذا تخيلنا أن النجوم عددها مائة مليون نجم، فإن العين المجردة لا يمكنها رؤيتها، إلا اذا كبرت سبعة عشرة ألف مرة لأن الفراغ الذي يفصلنا عنها شاسع، وأقرب النجوم إلينا بعد الشمس هو النجم "الفا" ويبعد عنا عشرة آلاف مليار فرسخ، والـ "أركتوروس" ويبعد عنا ثلاثمائة وأربعة وعشرون ألف مليار من الكيلومترات، ويتحرك في الفضاء بمعدل ألفين وستمائة وأربعين مليون كيلو متر كل عام ونرصده منذ ثلاثة آلاف عام ونحدد مكانه من خريطة الكواكب، ويبدو كأنه لا يتحرك.

والنجم 1830 من كتالوج "جرومبيريدج" يبعد عنا ثمانمائة ألف مليار من الكيلو مترات ويتحرك بسرعة مهولة لا يمكن احتسابها... فضوءه يجوب طبقة الأثير بسرعة 33000 كيلو مترا في الثانية!

فبعض النجوم، كالنجم القطبي، وغيره من النجوم والكواكب يلزمه مئات السنين حتى يقترب منا أثناء دورانه.

وإذا نظرنا إلى مدار هذه النجوم والكواكب وطبيعتها، وبعدها عن الشمس، وبعد الأرض عن القمر ومجال دورانهم الأزلي، لا ندري إلى متى ستبقى الأرض؟ فمنذ أن انفصلت الكتلة الغازية عن خط الاستواء، فقد انقضت مليارات من السنين.. وعلى أقل الافتراضات فان المرحلة الثانية أي مرحلة

التحول من السيولة إلى الصلابة استغرقت ثلاثمائة وخمسون مليون عاما.

ولما كانت الذرة هي أصغر جزء من المادة فان عالم النجوم هو العنصر الكبير، ليس بوجه عام بل الجزء الذي تناوله العلم.

وأما الأبحاث العلمية فقد تناولت بالدراسة الكواكب القريبة منا فقط، والتي تبعد عن الأرض ثمانمائة ألف مليار من الكيلومترات، ولم يتسن لنا دراستها تماما وتحديد أماكنها بالنسبة إلى حركة الأرض، وليس هناك ما يشير إلى تأثير النجوم على الأرض. ويخيل إلى أن أحدا لم يتمعن في ذلك كما أتمعن أنا الآن.

كما أن هناك علامات وأرقام تحدد هذه الكواكب التي تخضع دائما أبدا لقانون الجاذبية الذي يحكم مسار الكواكب والنجوم.

(ما عسانا بفاعلين حيال هذا كله؟ وما عساي أن أفعل وأنا جالس هنا، أتصفح كتابا بين يدي على ضوء مصباح موضوع أمامي؟.. نهضت ورحت أذرع الغرفة جيئة وذهابا، وأنا أفكر. ماذا أكون؟ ماذا أكون؟

آه! ألابد لي أن أعثر على جواب لهذا السؤال لما يترتب عليه من أسئلة أخرى مثل: ما هو مصيري المحتوم الذي ينتظرني؟

وقفت أمام المرآة المعلقة فوق المدفأة، أحاول أن أتغلغل في أعماق نفسي وأبحث عنها! أبحث عن الرد الذي سينقذني من الضياع، وبدون شك إن لم أوفق إلى هذا، فسأتوه وسأنقذ نفسي.

هل أنا هذا الشئ العليل الذي أراه أمامي؟ وهذه الغرفة -كنعش متسع قليلا- تحتضنني، بل تخنقني؟

ولكن فكرة بسيطة وصغيرة أنقذتني مما أنا فيه، إلهام تسلط على، فقلت لنفسي: مستحيل، فالخطأ الجسيم في كل مكان.

ولكن ما الذي دهاني حتى أفكر هكذا؟ وما الذي دفعني إلى ذلك؟ آه.. هذا نتيجة لما يتكتل في نفسي من إيمان بالدين والعلم والبديهة، فالبديهة هي

صوت الحواس، الصوت الضخم الذي يناديني ليريني إن ما نراه في الأشياء إنما هو حقيقتها، مع إني في أعماق نفسي، أعرف أنها ليست الحقيقة، فلكي نعرف الحقيقة، يجب علينا أولا أن ننزع القشرة السميكة التي تحيط بها لتكشف لنا عنها.

هناك أخطاء عديدة تقع فيها حواسنا، ومفارقات وأشياء متعارضة، وما تصوره لنا الأحلام والتخيلات والجنون لا ييسر لنا الإصغاء إلى هذه الأخطاء لنرحم أنفسنا منها.

والبديهة حيوان مستقيم ولكنه أعمى، لا يعرف الحقيقة التي تتوارى عند أول نظرة، مثلما قال الحكيم عبارته المشهورة "تصبح على شفا حفرة".

والعلم.. ما هو العلم؟ اجتهاد، يعني تنظيم المظاهر، وكمعنى بحت، يعني العلم تنظيم العقل نفسه بنفسه "والحقيقة العلمية" تعني نفي البديهية نفيا تاما تقريبا.

فليست هناك تفصيلات مطلقة على المظهر، لا تتناقض مع الاثبات العلمي، والمادة تتكون من اتحاد بعض القوى ببعضها فهذا يملي نوعا من المادية المجردة.

وحتى العلم في مجاله التجريبي أو المنطقي، فهو مضطر إلى استخدام الافتراضات، وإذا قسناه إلى جانب سمو العالم أو صغره يكون حينئذ قاصرا.

وستواجه العالم مشاكل منها ما يتعلق بالأرض، ومنها ما يتعلق بالفضاء، فعلى الأرض تواجهه مشكلة تجزئة الفضاء، وفي الفضاء تعترضه مشكلة ذات حدين أولاهما: "هل للفضاء نهاية" أم "أنه مكتمل النهاية"؟

والعلم لا يزيد عن البديهة في شئ إلا أنه لا يرى الحقيقة طالما أن هدفه هو وضع منهجا تجريبيا أو عمليا للعناصر التي لا تبحث في أصل حقيقتها.

أما الدين فيقول بحكمة أن البديهة لا تصدق، والعلم لا ينتهي إلى شئ، ولا سبيل لمعرفة الحقيقة دون معرفة الله. وهكذا فقد استوقف الدين

"باسكال" معترضا الأساس المزدوج له وللحقيقة، وان الله ما هو الا جواب للأمل والمجهول، وما هناك إلا رغبتنا في معرفة حقيقة الله.

فهذا العالم الذي أراه الآن ليس له حدود، ولا يستند إلى شئ، إذن أين اليقين وأين الخطأ؟

وحتى أثبت وجودي، فقد دعوت هؤلاء الأحياء الذين رأيتهم من قبل. إن وجوههم تزدهر وتتفتح وتتخلص نظراتهم من القيود.

وجوه رأيتها في أعماق الليل، تبزغ كالأمجاد السامية، فمنهم من كان يستعيد الماضي، ومنهم من كان يوجه كل اهتمامه إلى النافذة، ووجوه أخرى تحلم بالشمس، من خلال الضباب، ووجوه أخرى كانت فريسة للموت، فالجميع كانت الوحدة تحيط بهم من كل جانب من جوانب هذه الغرفة، ومع ذلك فلم تنتهِ هذه الوحدة بعد.

وأنا... أحتبس بداخلي ماضيَ، ماضيَ الذي لا يخمد وأتطلع إلى مستقبل جديد، أفكر تارة، وأندم أخرى وثالثة، أتمنى وأفكر.

أنا... قد غيرني حلم النجوم الذي كنت أعيش معه منذ قليل، حولني إلى ذرات، أمن الممكن أن أكون لاشئ؟ وأحيانا أشعر أني كل شئ! هل أنا كل شئ؟ أم لا شئ؟

ثم طرحت هذه الأفكار جانبا، وقدرت أن كل شئ في جسد منغلق فلن نضيف إلى الكون شيئا، فأرواحنا ما هي الا نفثة من نفثات الحياة، وسنأخذ نصيبنا منها أحياء كنا أو أمواتا.

لا! وهنا اكتشفت الخطأ، فالذهن هو مصدر كل شئ، فيجب دائما أن نبدأ به.. والحقيقة تعود إليه أساسا.

وقد لاحظت الآن بعض الأمور الجانبية في تأملاتي، فهذه التأملات ذاتها هي أنا. كانت تبرهن على عظمة الفكرة التي هي أنا، ومع ذلك تقول تلك التأملات أن الانسان المفكر لا يساوي شيئا، أنا الذي يرفع من شأنها، تكاد تحطمني.

ولكن.. ربما وقعتُ فريسة للوهم، أعارض نفسي. فكل ما في نفسي هو صورة أو انعكاس لفكرة الكون، فالذهن ما هو إلا شبح العالم، الذي يعيشه كل منا. فالكون بنفسه لا يعيش داخلي، بل يعيش مستقلا عني، شاسعا نوعا ما، يجعلني مخلوقا من عدم، أو كأني لم أكن. وجميل ألا أكون؟ أو أن أغمض عينيّ أمام الكون.

ويبدأ الحزن والقلق في اعتصار أحشائي... وتخرج منها نتيجة لا تنسى كوقع موسيقى رفيعة المستوى: "لا!".

لا، ليس الأمر كذلك، لست أدري ما إذا كان الكون له حقيقة خارجي أنا، وكل ما أعرفه هو أنه حقيقة ليست لها وجود سوى في ذهني وفكري، لا يبقى إلا بهما.

لذلك ليس في مقدوري أن أتخلى عن ذهني، وليس هذا من حقي فمن الجميل أن أحاول جاهدا مقاومة نفسي، لأسرق نفسي من نفسي، ولا يمكنني أن أضيف إلى العالم حقيقة غير تلك التي أتخيلها.

وطالما أني لا أستطيع أن أخرج عن نفسي، فسأصدق ما تمليه عليّ في وحدتي.

وكيف أفكر دون جنون؟ إذا قلت إنه في استطاعتي أن أتخلى عن نفسي! وإن قلت أني لست وحيدا! ومن منا يمكنه إثبات أن وجوده ينفصل عن وجود العالم خارج حدود الفكر؟

واذا أصغيت إلى الميتافيريقا (وهي ليست علم، فهي تخرج من عداد المنهج العلمي، وتميل إلى الفن أكثر وترتبط مثله بالحقيقة، لأنه إذا كانت اللوحة جميلة أو أن بيتا من الشعر جميل، فذلك لأنه حقيقي) وأجوب صفحات الكتب، وأستشير العلماء والمفكرين، وجمعت حصيلة الحقيقة التي تفرض نفسها علي.

لا يتسنى للمرء أن ينفي الفكرة التي أخذها عن العالم ولا يمكن تأكيد وجوده خارج حدود هذه الفكرة، لا، ليس من المؤكد أن الحقيقة التي تبدأ

فينا، تستمر في مكان آخر، وبعد هذا فلا يمكن لإنسان أن ينفي هذه العبارة التي تقول: "أنا أفكر، اذن أنا موجود"، فالفيلسوف يحاول شيئا فشيئا، أن يصل إلى الحقيقة خطوة خطوة.

إن العالم، كما يبدو لي، لايراه سوانا، بينما العالم الخارجي، أي الكرة الأرضية بحركاتها ودورانها في الفضاء وآفاقها، وبحارها بمدها وجزرها ومساحتها الشاسعة، ونباتاتها المختلفة، وحيواناتها التي لا تحصى ولا تعد، عالمها الأرضي والفلكي وتعبيراتها وتاريخها، ومصادرها وأصلها، ما هي إلا خزعبلات، وأن هذه الخزعبلات إنما هي "خزعبلات حقيقية" أقول إن اللا محدود والأزلية لهذا العالم ما هما إلا إلاهين مزيفين. فأنا الذي منحت الكون هذه الفضائل اللا محدودة والتي تعيش في نفسي. ولا شئ يمنع من أن أقول أني موجود، وأني لا أستطيع أن أتخلى عن نفسي. إن كل شئ. الفضاء والزمن والعقل، ما هي إلا كيفية تصوري للحقيقة وكإمكانيات مبهمة لدي.

وقد وجدت هذه التفسيرات في كتاب عن الصرخة الانسانية والقلب ينبض ويحس من خلال الخطوط المُقدِّرة للانسان، كما يرى ذلك الكاتب الألماني.

فلمعرفة الحقيقة الخالصة وتفهمها جيدا، يلزمنا نوع من الاهتمام للتخلص من المظاهر، وأقول أن هذه الأفكار من أجمل الأفكار التي لم يمليها أحد من قبل على الناس، وهي خلاصة كتاب الفيلسوف "كوينجنسبرج" وهو الكتاب الذي يقترب كثيرا من التوراة، كلام المسيح الذي يهدف إلى تنظيم المجتمع طبقا لنظم سامية.

ولهذا أهمية كبيرة في أن نستبدل الحقيقة بالفعل. ويتعلق الأمر بمناقشات غير مجدية، بل بمشكلة مخيفة، تشدني إليها كلية، كما أنها تتعلق بمسألة حياة أو موت بالنسبة لي، محاكمة دون مقدمات تورطت فيها بنفسي.

كل شئ بداخلي لا يخضع لحكم، ولا حدود له، فالصراع من أجل البقاء لن يتوقف، وسيستمر القلب الانساني في طريقه بحرية. ولكن كيف أتخيل مماتي إن لم أكن شخصا آخر؟

نحن لا نموت، فكل مخلوق وحيد في هذا العالم، ولكن أيضا من السخافة أن نقول مثل هذا الكلام المتعارض... ومع ذلك فالأمر كذلك.

هناك أيضا كثيرون مثلي... لا... لا يجدر بنا أن نقول مثل..فلنتخذ موقفنا من الحقيقة بنوع من التجريد. ولا يجوز لنا إلا أن نقول شيئا واحدا. "ما الإنسان إلا فرد. ولهذا فالانسان لا يموت!"

ففي مثل هذا الوقت من الليل، قال الرجل: "بعد مماتي ستستمر الحياة، وتتجدد الحياة والآثار التي سأخلفها ورائي مع الفراغ".

كان يخدع نفسه إذ يقول ذلك، لقد حمل معه الحقيقة كلها، ومع ذلك فقد رأيناه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فبالنسبة لنا، مات الرجل، أما بالنسبة له فلا.

يبدو لي أن هناك حقيقة مخيفة وتعارض هائل يصعب الوصول إليهما، ولكني سأتناول الطرفين وأبحث عن تفسير لهما، فكل شئ مثل "كل مخلوق هو كل الحقيقة" وأعود لحديثي. المرء لا يموت طالما إنه فرد، وحيد بمفرده، بل الآخرون هم الذين يموتون، تلك العبارة التي تضطرب بين شفتي، مشئومة وبهيجة في وقت واحد، تفيد بأن الموت إله زائف... ولكن البقية؟

إذا سلمنا جدلا بأن عندي من الحكمة ما يجعلني أتخلص من فكرة الموت التي تستولى عليّ، فسيتبقى موت الآخرين، ولم يغير الألم من مفهوم الحقيقة لأن الألم، شئ مطلق.

وبالرغم من هذا، فبؤسنا العظيم اللا محدود، يمتزج بشئ من المجد وشئ من السعادة تقريبا.

وبالقرب من مصباحي هذا، الذي تلاحقه زرقة السماء، أرى نفسي وحيدا في هذا الكون ولكني سأبتسم عند تباشير الفجر، ولكني لست أدري ما كنه ابتسامتي؟ أعن كبرياء؟ أم عن فرحة؟

*****

-14-

نعود إلى آنا. كانت المرة الأولى التي أراها في ملابس الحداد السوداء التي زادت من شبابها وجمالها روعة وبهاء، تقف في منتصف الغرفة، تتلفت يمينا ويسارا كما لو كانت قد نسيت شيئا في الغرفة التي ستتركها.

وبينما هي كذلك، إذا بالباب يفتح، ويظهر على عتبته شخص، بمجرد أن وقع بصرها عليه صاحت: "ميشيل! ميشيل!" ومدت ذراعيها وظلت ثابتة في مكانها بلا حراك، وبالرغم من طهارة المكان الذي توجد فيه، والحياء الذي يملأ قلبها وحياتها لم تتحملها ساقاها وهوت على الأرض.

وبحركة رومانتيكية ألقى هو بقبعته على السرير وأسرع وأخذها بين أحضانه ووقعا على الأرض سويا، وهو يعانقها عناقا حارا ويقولان معا في كمة واحدة: "وأخيرا".. أخيرا قد انتهى فراقهما الطويل. وانتصر حبهما... وأخيرا ها هما قد التقيا.

رأيتها تنتفض من أخمص قدمها إلى شعر رأسها، وفتحت عينيها أمامه ثم أغمضتهما على صورته، وحاولا جاهدين أن يتحدثا، طالما إنه لابد لهما من أن يتحدثا، فقال:

- يا له من انتظار وأمل.. كنت دائم الفكر فيك، وكنت أراك دائما.

وأضاف بصوت أكثر دفئا، خافتا:

- أحيانا عندما كنت أتحدث ويذكر اسمك فجأة خلال هذا الحديث، يشتاق إليك قلبي.كم من مرات عديدة سرت على افريز المنزل ولم أكن أعرف في أي وجهة تقيمين، لم أكن أتحمل البعد عنك!.

قالت هي:

- حتى أنا، دائما في الليالي الحارة كنت أجلس إلى النافذة أفكر فيك، وأحيانا يكون الجو جميلا، مماثلا للطقس الذي قضيت فيه مدة شهرين في فندق "دي روز" وكانت تنحدر الدموع على خدي.

- كنت تبكين؟

- نعم، من الفرحة.

ثم تلاقت الشفاه الحمراء القاتمة في قبلة، يضمها هذا الهدوء الذي يخلق القبل، ويجعل منهما نهرا وحيدا ومظلما من اللحم.

ابتعد عنها قليلا ليملأ عينيه بجمالها، ثم ضمها إليه بشدة بإحدى ذراعيه، وهما جنبا إلى جنب، ثم وضع يده الأخرى على بطنها، فرأيت تقاسيم بطنها وساقيها، وهو يقول:

- وهناك بين الحدائق العديدة على الساحل، كنت أتخيلك، وكنت أبحث عن عبير جسدك.

قالت هي:

- كنت أعلم إنك تنتظرني، لأنك تحبني، فكنت أراك دائما في غيابك، مع كل شعاع من أشعة الشمس يدخل من النافذة، كنت أمد إليه رقبتي وأنا أفكر فيك وفي حبك. فعندما كنت أخلو إلى نفسي أحيانا عند المساء وأنا في حجرتي، كنت أعجب بنفسي وأنا أفكر فيك.

فابتسم وهو يختلج. استمرا في الحديث، لا يعرفان سواه، تستمع إليه بهدوء، وفمها مفتوح قليلا، ورأسها مائل إلى الخلف.

"لقد كدرت ذكراك صفوي، ولكنها كانت تؤنس وحدتي".

لا أعرف من منهما قال هذه العبارة حيث كانا يقبلان بعضهما بوحشية كأنهما في صراع، أو جمرتان متقدتان ووجهان مشتعلان.

- آه.. أريدك.. أريدك.. ففي ليالي السهد كنت أراك وأشتاق اليك وأتمناك، وأفتح ذراعي أمام صورتك، كأن وحدتي هذه قد صلبت. كوني لي يا آنا.

كانت تريد. كانت تريد. كانت راضية ومبتهجة ومع ذلك، فقد أبدت احترامها للغرفة.

فقالت وأنفاسها تلهث:

- فلنحترم هذه الغرفة.

ثم تملكها الخجل لرفضها، وتمتمت في الحال قائلة "أعذرني" ثم انسدل شعرها على جسدها وانسابت "الجونلة" من حولها.

وتوقف الرجل، وهو في أوج شهوته وهو يبدي احترامه للحجرة:

- هل حدثت هنا الوفاة؟

فقالت وهي تهدهده كطفلة صغيرة:

- لا.

كانت هذه هي المرة الأولى التي لا يتحدث فيها عن نفسه، وهي تطيعه في كل مرة، وتفعل ما يفعله هو لترضي رغبته كرجل. ثم فجأة رأيته نصف عاريا، وتغير منظر جسده وصعد الدم إلى وجهه، وامتلأت عيناه بالأمل.

هي تحبه وتعبده وتريده، وشحب لونها وظلت ساكنة بلا حراك، حتى شعرت أنها وقعت فريسة لقوة عليا تلهبها وأحيانا تثلجها.

ثم حملها بعد ذلك إلى السرير، حمل هذه الفتاة العظيمة، ورأيته وهو يفتح فخذيها ويبعدهما عن بعضهما وعورتها الحساسة الهشة وهي تُفتح، ثم ألقى بجسده فوقها، و.....

كنت أسمع دائما بين الحين والآخر بعض الكلمات وبعض العبارات التي تخرج منهما "أحبك"، مرة منها وأخرى منه، ورأيت بعض الدماء تلطخ فخذيها وأحيانا تتناهى إلى سمعي صيحات خافتة هامسة، وأحيانا أخرى صيحات قوية تكاد تهدم أركان الحجرة وسمعتها كأنها تغني وهي تقول له "آه... أحبك.. أحبك.. عزيزي يا عزيزي الصغير" أو بصوت يكاد يكون محطما باكيا: "لحمك.. لحمك" وعبارات أخرى كثيرة لم أتمكن من تمييزها.

وبعد ذلك، وكما هو الحال عند غيرهما دائما، وكما يفعلان ويفعل غيرهما في المستقبل المجهول، نهضا متثاقلين وهما يقولان:

"ماذا فعلنا"..

لا يعرفان ماذا فعلا، وأخذا ينظران إلى بعضهما وهما يتصببان عرقا، ولما وقع بصري عليها رأيتها قد تغيرت كثيرا، وجهها قد تحطم، ولم يتحدثا ثانية عن الحب، ومع ذلك فكانا ينظران إلى بعضهما بكبرياء وذلة.

وبالرغم من أنهما فردان متساويان، الا أن المرأة كانت أكثر ارتباكا من الرجل وكان ما فعلته أعظم وأقوى مما فعله هو. فكانت تضم ضيفها إلى لحمها وتعتصره، بينما حولهما العرق الصادر من جسديهما.

الحب في هذه المرة، لم يكن هناك اغتصاب أو انتهاك، ليس هناك سوى جسدين جميلين قويين لحيوانين شاحبين اقترنا ببعضهما، وصيحات خفيفة وحركات دائبة. فإن كانا قد انتهكا ذكريات وفضائل، إنما يرجع ذلك إلى قوة الحب التي تربط بينهما، فهما بريئان من الجريمة،ومن العمل القبيح، لاندم ولا ألم، بل انتصار، لايدريان ماذا فعلا، ويعتقدان أنهما قد ارتبطا ببعضهما.

بعد هذا جلسا إلى طرف السرير، وأخذ راحتها بين راحتيه، وقال لها:

- والآن أنت لي إلى الأبد، لقد منحتيني أقصى درجات اللذة المقدسة وتبادلنا قلوبنا، وأصبحت زوجتي إلى الأبد.

فقالت:

- أنت كل شئ لي.

والتصقا ببعضهما أكثر، فكيف لا يعرفان ما فعلاه! ألا يعلمان ما يقولاه بعينيهما وشفتيهما اللتين لا يستخدمانها إلا في القبلات، تملأ رأساهما عبارات الحب؟

سيتألقان في الشمس لا يعيان شيئا مما حولهما، يغشى ضوء النهار عينيهما فلا يريان شيئا، ولا يتعرضان إلا إلى صراع عواطفهما وغيرتهما، لأن العاشقين

ما هما إلا عدوان أكثر منهما حبيبان، ولن يشعرا إلا بألم التمادى في الرغبة، عندما يحتضنهما فراش المساء.

هي دائما نفس المرأة تجلس في الغرفة، عارية بيضاء، شاحبة، رأسها منحنى وظهرها مقوس، تبدو كأنها قنينة يسيل منها الدم.

حقا، لم أشعر بمثل هذا الشعور من قبل... الضعف البشري.. ولم يكن هذا مرضا، بل جرح، تضحية... فهذة هي المرة الأولى التي تخذلني فيها الشفقة.

توقفت عن النظر، وجلست واستندت إلى مرفقي، أين أنا الآن منهما؟ من الواضح أني وليد، فقدت وظيفتي، وقريبا سأحتاج إلى نقود، كيف سأواجه الحياة؟ لا أدري وسأبحث ولابد أن أجد.

لا داعي للحزن والقلق والحمى، آه.. لو قضيت بقية حياتي في هدوء وسلام، بعيدا عن تلك الأشياء الخطيرة.

لابد أن أجد عملا من أجلك أنت يا شقيقتي.. من أجلك يا بني.. ومن أجلك يا زوجتي. فإذا نظرت إلى مزايا الزوجات الأخريات فستعيشين بائسة.. سأعمل من أجلك ليل نهار، لنعيش سعداء، وسأكون خادمك المطيع.

وانت ستعملين في حجرتنا، في فترة غيابي ولم يكن إلى جوارك سوى ماكينة الخياطة تمارسين عليها العمل الجيد، فالعمر طويل طول الحياة، والأمومة ثقيلة كثقلها.

وعندما أعود إلى الغرفة، تستقبليني وأنت تحملين المصباح ثم تتحدثين عن نفسك وعن ذكريات طفولتك التي لن أفهمها، لانك تحكيها لي دون تفصيلات تساعدني على ذلك، ولكني سأحب هذه اللهجة الحلوة التي تحدثيني بها.

وسنتجاذب أطراف الحديث عن أول طفل لنا، فتخفضين رأسك، ورقبتك البيضاء، ونسمع سويا المهد الذي يهتز، وعندما تتقدم بنا السنون سنتحدث عن ذكريات الشباب.

وبعد هذه التأملات الحالمة لن نذهب بعيدا، ففي المساء سنفكر في الليل،

وتستولي عليك فكرة سعيدة، وحياتك الداخلية تصبح هانئة مستنيرة بنور قلبك.

فالعطف والمودة، أعظم من الحب، فأنا لا أميل إلى هذا الحب الجامح، لا أحبه لانه قمة الأنانية، ومع ذلك فان ارتباط أي اثنين دون حب يكون ارتباطا واهنا ضعيفا.

فلابد وأن يمتزج الحب بالمودة والعطف، ويجب أن يحمل معه البساطة والتقرب.

*****

-15-

همت علي وجهي في الشوارع يتلقفني شارع ليقذف بي إلى الآخر، ويأخذني ميدان ليسلمني إلى غيره، وظل الحال بي هكذا، حتى كدت أصطدم بإحدى السيدات التي دخلت إلى أحد المنازل ثم اختفت.. وأرى نوافذ مفتوحة، وأبواب موروبة.. استبدت بي الأفكار، وراودتني الأحلام، وأنا أسير في الظلام، وبينما أنا أسير إلى جوار حائط لبدروم، فاذا بي أسمع صوت موسيقى صادر عن عزف على البيانو، فتوقفت واسترققت السمع قليلا.

شعرت بالتعب، فجلست على أحد المقاعد في الناحية الأخرى من الميدان، وكان يجلس بالقرب مني على مقعد آخر رجلان يتحدثان، أعتقد إنهما صديقان حميمان، يتشابه حالهما، أحدهما يتحدث والآخر ينصت إليه، والذي يتحدث هو المتزوج. أيقنت من حديثه أن هناك مأساة غامضة، فهما صديقان منذ نعومة أظفارهما، متفاهمان، ولهما نفس الأفكار.

يفضي اليه بحزنه الذي يكدر صفو حياته، ويطعنه في حبه، ويهدر حقه. ويقول أن زوجته لا تحبه ولا تبتسم له إلا نادرا، بينما هو يحبها إلى درجة العبادة.

حقه! كان يظن أن له حقا عليها، ولكنه أيقن أخيرا إنه لا يتمتع بهذا الحق.

كان صديقه يجيبه ببعض العبارات وهو يبتسم، ولم يمنع حديثهما هذا، الليل من أن يحيط بهما.

إن الفراق هو المأساة الوحيدة التي نراها في الحياة... ويبدو أن التعساء غالبا ما يجتمعون مثنى مثنى، فقد مر أماي اثنان. رجل وامرأة.

أحيانا يكون الانسان سعيدا ولكنه في الوقت نفسه لا يشعر بهذه السعادة، وهو على يقين من أن لحظة الفراق قد دنت وأنه سيفقدها. وآخران مر أمامي، هو يقول لها: "أتودين أن أسافر؟ أتريدين أن أفعل هذا أو ذاك؟".

وآخرون وآخرون غيرهم، منهم من يتحدث ومنهم من يصغي، ومنهم من يبتهل ومنهم من يتضرع، وما هي الا لحظات حتى ابتعدتُ عن هؤلاء المحبين.

سرت في طريقي تتنازعني الرغبة في معرفة الحقيقة العارية، فلست من هؤلاء، ولكن كل ما أبغيه، بل أمنيتي الوحيدة هي أن أعرف هذه الحقيقة. "الحاجة التي من أجلها نعيش ونموت، وما اذا كنت وحيدا أم لا، ورغبتي في تملك حاجة الغير، وما هو ليس في ملكيتي؟".

وأثناء مروري على أحد المحلات سمعت صوتا يصيح ويقول: "نعم! لا!" واستطلعت أمر هذا الصوت فإذا به ببغاء في قفص، وصياحه هذا ما هو إلا ضوضاء عمياء. لقد لفتت هذه الصرخة انتباهي، لأنه لا ينتمي إلى البشر، بينما لم أهتم مطلقا بأي صيحة تخرج من فم بشر.

والآن.. سئمت كثرة التمني، وشعرت بأن السن قد تقدمت بي دفعة واحدة، ولن أشفى مطلقا من هذه الجائحة التي تقطن في صدري، أبتغي الهدوء الذي كان على قيد أنملة مني، منذ قليل، أتمناه الآن لانه بعيد عني، فطالما أن قلبي له تمنيات وأحلام تتجدد دائما، فسأعيش هذا الهدوء، وسأرنو إلى غيره.

إنني أبحث عن حقيقة! هل هؤلاء الناس عندما يتحدثون عن أنفسهم، يكون لحديثهم هذا صدى لما أفكر فيه، أو صدى للخطأ أو الكذب؟

وجن الليل وأنا أبحث عن كلمة، تماثل كلماتي، تكون لي سندا ودعما، ولكن يبدو أنني أنتظر أحدا ليقول لي أي شئ.

ليست لي رغبة هذه الليلة في أن أعود إلى حجرتي وأشعر برغبتي في البقاء بين هذه الجموع، أبحث عن مكان تدب فيه الحياة.

دخلت أحد المطاعم حتى أحس بأن حولي أصواتا كثيرة، وتلقفتني مئات من الأصوات العديدة والألوان المختلفة، وأصناف العطور، والملابس الأنيقة، والسجاد الفاخر الأحمر، والمصابيح في كل مكن فضية وذهبية، و"أباجورات" على كل منضدة طعام يتجمع حولها الزائرون للعشاء.

جلست مشدوها ومأخوذا بالجو المحيط بي، حيث اتخذت مكاني بالقرب من منضدة يتجمع حولها ثلاثة مدعوين، فقد تعودت عيناي على الظلام، والأجواء الظليلة، فحاولت أن أتكيف مع هذا الجو.

طلبت العشاء، وأحببت أن أتسلى بما حولي من وجوه، وكان من الصعب أن أحقق ذلك.. فالجميع حول مناضدهم زرافات، أو جماعات صغيرة تتكون من اثنين أو ثلاثة، هذا فضلا عن من يجدّ وينضم إليهم من الزائرين.

كان أول ما جذبني، هو جمال النساء، وجوههن البيضاء الجميلة، وأشكال شفاههن كالقلوب، على إنه إذا ما اقتربن، فسرعان ما يزول هذا الجمال وتتكشف أخطائهن التي تمحو هذا الجمال.. وأرى الرجال حليقين، وعلى أحدث ما ظهر من أزياء رجالي، كالقبعات العريضة والمعاطف ذات الأكتاف الساقطة ليلا.

وبحركة آلية كانت عيناي تتابعان المضيف وهو يضع طعامي أمامي يلبس قفازا أبيض، وأذناي تتابعان ما يدور حولي.

لم أسمع سوى الأصدقاء الثلاثة الجالسين، ومجرى حديثهم عن أصدقاء يعرفونهم، فتارة يتحدثون حديثا عاديا، وتارة أخرى تغلب السخرية على تعليقاتهم، لا شئ في حديثهم له أهمية، وأخشى أن تمر الليلة كالليلة الماضية دون أحداث لها أهمية.

بعد قليل، تقدم مني مدير الفندق، وأشار لي بطرف عينه إلى أحد المدعوين وقال لي: "هذا هو الكاتب المعروف "مسيو فيليه". قالها بشئ من الفخر والزهو. حقيقة إنه الكاتب، فهو يشبه إلى حد قريب صوره التي تنشر في الصحف.

تقت إلى هذا الرجل، هذا الرجل الذي يستطيع أن يقول ويكتب ما يدور بخلده، كان وسيما ذا شارب ومهندما.

ولما هممت بأن أرشف رشفة من كوبي، توقفت فجأة عندما سمعت هذه العبارة: "ما موضوع قصتك القادمة؟".وأجاب "مسيو فيليه": عن الحقيقة.

الصديق: آه.

الكاتب: ستكون مفاجأة.

الصديق: (مستفهما) ما هو الموضوع؟

كان الجميع وقتئذ آذانا صاغية، والعيون تحولت إليه، ومن بين هؤلاء رجل يأخذ ركنا من الأركان، ويدخن سيجارا غليظا. وقال (فيليه): "هذا هو الموضوع سيكون مسليا وحقيقيا في وقت واحد، رجل يحدث فجوة في حائط غرفة بفندق ويتابع ما يجري في الغرفة الأخرى من أحداث".

في الحال رمقت المتحدثين بنظرة سريعة، وخفضت رأسي بسذاجة كالأطفال عندما يريدون الاختفاء.

كأنهم يتحدثون عني، وكأن الجو الذي يحيط بي جو بوليسي، وما هي إلا لحظات حتى زال عني هذا الشعور الذي شل بديهتي، فبدون شك هذا بمحض الصدفة.

استطردوا في الحديث عن هذه الفكرة المطروحة وأنا معهم أتابع حديثهم دون أن يفطن أحد إلى ذلك.

طلب إليه أحد أصدقائه أن يحدثهم بالتفصيل عن هذه القصة، وافق... وسيقول هذا أمامي.

أخذ الكاتب يسرد أحداث قصته بفن عظيم، وأسلوب جذاب ومشاهد مضحكة مسلية، تبرهن على فكر خصيب وذوق سليم، وكان رد الفعل يبدو واضحا على وجوه المستمعين. "آه" "أوه" "عظيم! هائل! نجاح أكيد لموضوع حقا مسلي وحقيقي.

اعتراني نوع من الخجل، إلى درجة إنني كنت أفهم أن هذا الرجل يبحث عن الهزل من خلال المغامرة المشئومة التي كنت أنا شهيدها منذ شهر واحد.

تذكرت في الحال الصوت الضخم الذي انطفأ الآن والذي كان يصرخ بلهجة حادة وقوية، بأن الكتاب المعاصرين يقلدون الرسامين الهزليين (الكاريكاتيريست)، أما أنا الذي تغلغلت في نفوس البشر فلا أجد شيئا من الإنسانية في الكاريكاتير، فهو سطحي وغير حقيقي!

قال:

- ما أريد أن تراه هو الانسان مجردا من المظاهر وآخر من التأملات، وآخر من الحقيقة.

- هذا له مغزى فلسفي.

- ربما، وعلى كل حال لم أهدف إليه والحمدلله فأنا كاتب. ولست مفكرا!.

واستمر في سرد الحقيقة دون أن أستطيع أي شئ حياله.. الحقيقة! هذا الشئ العميق الذي أحس ظلاله في عيني، ومذاقه في فمي، وصوته في أذني.

انصرفت من المطعم، ودخلت أحد المسارح حيث تعرض مسرحية "حق القلب" وكان لها صدى عظيما ونجاحا يناديني ويغريني.

جلست في مقعدي، ورفع الستار، وبدأ المشهد الذي ينتظره الجميع.

شاهدت المشهد، لا فرق بينه وبين ما أراه في الغرفة، أنظر وأسمع وأسجل كل كلمة تقال.

تدور أحداث هذه المسرحية عن شاب فنان ونحات يدعى "جان دارس"، جاء من روما تصحبه أحلامه المرمرية، يستضيفه الممول، "لويفيس"، وفي الصالون المذهب، كانت الجموع تتسابق وتتسامر، وأعضاء من الهيئة، بأربطة العنق يبدون كرؤساء جوقة الشرف. الجميع كانوا يتناقشون في أمور مختلفة، ولما جاء الحديث عن صاحب المنزل انخفضت الأصوات: "هل

تعرفون أن الكونت "لويفيس" سيكون من النبلاء، هذا لما أداه من خدمات جليلة "للبابا" في هذه الظروف المضطربة."

دار الحديث شيقا بين المدعوين وطرق جميع المجالات من جد وهزل، فتارة يتحدثون عن أشخاص مشهورين، وتارة أخرى عن أنباء وأحداث لها أهميتها، أخبار اجتماعية عن زواج طلاق ووفاة وميراث، ومنهم من يعلق على العشاء الذي يتناوله، وآخرون يتناولون الشعر والشعراء مادة لحديثهم ويسمون الشاعر "قيثارة الحياة"، بينما هو شاعر بعينه اسمه الحقيقي "فرانسوا كوبلييه"، ومن الأبطال الذين قاموا بأدوار مسرحية الكاتب الكبير الشهير "كورنّ" وهي "السيد"، وعن زواج هؤلاء الممثلين من بعضهم، وكم أن تفاوت الطبقات بين الزوجين له عاقبة وخيمة.

وعلى أثر عبارة قيلت على لسان أحد الممثلين عند حديثهم عن فتاة لها قدرها "نأمل أن يكون هذا والدها"، دارت الهمهمة والتمتمة بين المتفرجين في الصالة.

انتهى الفصل الأول بأحداثه عن مغامرات "جان دارس" العاطفية، مع الجميلة "جانيت دى فلورانج"، استطعت وأنا أستمع للتعليقات من حولي، أن ألتقط هذه الكلمات: "كلمات! كلمات! لا شئ سوى كلمات" قالها أحد المتفرجين، بشئ من الانفعال.

بدأ الفصل الثاني وكان مشابها للأول مع بعض الاختلاف في الحركة والتنوع ويتبع نفس الطريقة. كلمات وعبارات تتناثر هنا وهناك، والممثلون لا يجيدون التمثيل، حتى يمكنهم أن يقدموا لنا حقائق.

وبانتهاء الفصل الثاني، بدأ الفصل الثالث وفي هذا الفصل، تتساءل البطلة "جانيت دى فلورانج"، عما إذا كان من حقها أن تربط مصيرها بمصير هذا الشاب الفنان الذي تحبه؟ وبعد صراع نفسي تتخلله الغيرة استقرت على أنه ليس هذا من حقها، وعملت على أن تبعد عنها "جان دراس" إلى الأبد، بعد

أن تجعله يعتقد أنها تميل إلى شخص آخر هو "جاك دى لينيير".

ولما علم "جان دارس" بذلك اشتد احتقاره لتلك التي كان يقدسها ويعتبرها ملاكا، ويتزوج من "راشيل لويفيس" التي كانت تحبه دون أن تبوح بذلك لأحد، وانتصر حق الحياة على حق القلب.

وبانتهاء المسرحية أسدل الستار، ودارت المناقشات حول هذه التضحية، ثم بُررت بالخيانة البطولية، وكان رد الفعل عند البعض إما مع أو ضد هذه النهاية. كان من بين من شاهدوا هذه المسرحية كاتب مسرحي آخر يدعى "بيير كوربيير" وله في الوقت نفسه مسرحية تعرض تحت اسم: "الخط المتعرج".

سرت في الطريق، لا أحد سواي أنا والسماء، السماء التي استوعبت كثيرا من الكلمات والعبارات التافهة، سيتعفن ما رأيته منذ قليل بالرغم من أنه يناسب الوقت والزمن إلي أن يُبطّل أو يُهجّر غدا.

أين الكتاب الذين لمعوا خلال هذه السنوات الأخيرة؟ فأسماؤهم تطفو لكن على أي شئ، لست أدري! تعلمت التمييز بين الخطأ وبين الظلم، وذلك لاتصالي بالواقع ومشاهدتي للحقيقة، فأصبحت أمقت أي نوع من أنواع اللهو، لأنه يشوه معنى الفن، ولا نجاح لمثل هذا النوع ولا شك!

أما الحماس الذي تقابل به هذه المسرحيات في بادئ الأمر فلا يلبث أن يتلاشى، وأتمنى أن تُوأد مثل هذه المسرحيات قبل أن تولد.

عدت إلى الغرفة، وجدتها مضيئة سابحة في ضوء القمر، ورأيت رجلا وامرأة هادئين، يعلو وجهيهما ضوء القمر فيزيدهما وضوحا، النار منطفئة، والساعة ساكنة. المرأة قابعة عند قدمي الرجل، كتمثالين، يتأملان القمر.

فلما تحدث الرجل، عرفت صوته، صوت الشاعر والعاشق، ولكن لا أعرف اسمه، فقد سمعته مرتين من قبل.

كان يتحدث إلى صديقته، ويقول لها:

- عند عودتي، قابلت امرأة مسكينة تحمل طفلها على ذراعيها تندفع وتزاحم وسط المارة الذين يحيطونها من كل جانب، وألقت بنفسها تحت رواق من الأشجار تشبه صخور البحر.. توقفت وهي ضائقة النفس. واقتربت فرأيتها تبتسم. ترى إلى من تبتسم، أللحياة؟ أم لطفلها؟ وهي في هذا المأوى تفكر في طفلها، ونموه، وتفتحه في المستقبل، تحيطها الشمس الغاربة من كل ناحية، تحميه من بعض المخاوف التي يتعرض لها، ملازمة له، كتنفسه ونظراته وخطواته... نعم مهما كانت الابتسامة العميقة لهذه المخلوقة، فهي تحمل وزرها، وترفع رأسها، وتجابه الضوء دون أن تهتز أهدابها، ودون أن تنظر إلى طفلها، أو تستسلم لحديث أحمق متلعثم - ثم صمت لحظة وعاد فقال بصوت هادئ عذب عميق- تبتسم للمساء وهي جالسة في هذه الظلال، تنحسر عنها ملابسها البالية الممزقة، كما ينحسر الماء عن شاطئ البحر... صامتة كالأمواج الهادئة تتألق في ابتسامتها كالنجم، كمن يتضرع إليها الناس... دون تفكير جاءت إلى هذا المأوى تحمل طفلها بين ذراعيها دون ضجر أو سأم، في قلبها لمسة مقدسة، ها هي هنا لا شئ يحميها ولكنها مع ذلك تبادر بالابتسام فهي تحب السماء.. والنور.. النور الذي يسحبه طفلها فيما بعد.. وتحب السَحَر الذي يميل إلى البرودة، وحرارة الظهيرة، والليل الحالم. سيأتي اليوم الذي يترعرع فيه هذا المنقذ ليعيش، هذا الطفل الذي لم يتفتح بعد، والذي يرتعد في أعماق الطريق، سيبدأ حياته.هو الجنة الوحيدة التي ستكون هناك، هو باقة من الطبيعة، سيضفي على الجمال جمالا وروعة وبهاء، وبابتسامته وشدوه سيواسي السرمدية. في هذا المساء، تضم طفلها الوليد إلى صدرها.. وقد أضفى عليها الليل لونا ذهبيا.. وصبغ عينيها لونا ورديا، فكانت هي كوردة كبيرة تتفتح وتتمايل من أجل الجميع.. تحلم بكلمات حلوة مدللة.. تشد المارة إذا التفتوا إليها.

لشد ما كان إعجابي بكلامه، ولشد ما تأثرت بأسلوبه، لقد كانت كلماته

كاللؤلؤ المنثور في الظلام، كلام جميل وموزون ومقفي، كالحنان الذي يبحث في الظلام عن الحنان!..فهو يعبر عن خلجات نفسه، وخفقات قلبه، بموسيقى كلامه التي لا تضاهى.كأنه يعيش في عالم آخر، عالم لا تقال فيه سوى الحقيقة.

وأما المرأة التي كانت معه فقد اكتفت بالجلوس عند ركبتيه، وهي تستمع إليه.استرسل في عذب حديثه قائلا:

- ولكن ابتسامتها هذه لا تنطوي فقط على إعجابها بالمستقبل وتمنياتها فيه، بل هناك أيضا شئ من المأساوية أحسسته بعمق. فهي تعبد الحياة، ولكنها تبغض الناس، وتخشاهم بسبب الطفل دائما.. فهي تجادل الناس به، وبابتسامته تتحداهم وكأنها تقول لهم " سيعيش ويترعرع رغما عنكم، وسيخضعكم، إماليستغلكم أو ليعيش محبوبا، وهو الآن بين يدي، بين براثني، يتحداكم، ويزدريكم ولا يبالي بكم "

كانت قاسية، كنت أحسبها ملاكا رحيما، فوجدتها ملاك حقد وضغينة عديمة الشفقة. نوع من الكراهية لهؤلاء الذين سيتعرضون له بالسب، ويسببون له الانقباض أو يحطون من قدر الأمومة التي هي فوق البشر، وقلبها الدامي لا يملأه سوى قلب واحد، القلب الذي يدرك الشر قبل وقوعه، والذي يمقت الناس ويرى فيهم، ملاكا هداما، كالمد والجزر، الأم ذات المخالب المخيفة، ترفع هامتها وهي تبتسم بفمها الممزق.

تحت ضوء القمر كانت "إيميه" تنظر إلى حبيبها بنظرات كأنها تغوص إلى الأعماق، مع كلماته. وواصل كلامه الحلو فقال:

- وانتهت من الحديث عن عظمة اللعنة الانسانية، مثل كل ما فعلته من قبل، وما سأفعله على وتيرة واحدة مع هؤلاء الذين هم على حق... أوه! فبدون الله، وبدون موسى وبدون ما نستر به أنفسنا، ليس لنا إلا الابتسامة الثائرة، والوقوف على أرض الأموات.. وإلا الثورة في سبيل الحياة في أعياد.. دامية.. نحن فقط، تتسلط علينا السماء!.

ما هذا الذي أسمع؟! "السماء تتسلط علينا" إن هذه العبارة أعظم صيحة ألقت بها الحياة، إنها صيحة الخلاص التي طالما بحثت عنها، وكنت في حاجة ملحة إليها، كنت في أمس الحاجة لأن تقال هذه العبارة، حتى تجمع بين العظمة والشقاء، وحتى تكون مفتاحا للقبو السمائي.. وأرى أن العالم قد عاد إلى فكرة الانسانية.

تلك السماء، تعني الزرقة التي تلتقي بأبصارنا، والآخرة التي لا نراها إلا في أذهاننا، السماء أي الصفاء والنقاء واللا محدود، وللمبتهلين سماء الحقيقة وسماء الدين، فكل ما بداخلنا هكذا يتسلط علينا.والله، الذي هو كل هذه السموات، وفي وقت واحد، يتسلط علينا كظاهرة من الظواهر الطبيعية، وكذلك لا محدوده هو لا محدودنا. فيجب علينا أن نقدر ما بأنفسنا من نوازع وابتسامات، وشعور بالوحدة وما تأتيه قلوبنا من أعمال غير مجدية، أن نقدر هذا بشئ من الاخلاص. فهذا الشعور هو عزاؤنا الوحيد لكل ما يشغلنا وهو الذي يضفي على جباهنا الصلاح، وتسمو أرواحنا ويتزين كبرياؤنا، فللحقيقة نفسها سجية دينية، ومن يبتهل تتفتح له السموات.

هكذا أشار في حديثه إلى أننا نتمتع بصفة إلهية وأن الجميع يشتركون في العناصر العميقة. فالأخلاق والطباع تختلف عن بعضها البعض كقسمات الوجه، وذلك تحت تأثير الظروف المتعددة والمتباينة. ولكن في الواقع هناك تشابه عاري مثله كمثل شحوب الجماجم. فالعمل الفني نفسه، يعتبر بدعة أو إلحادا إذا ما حاول أن يقارب بين وجهين تمام التقارب.

وقال الرجل في هذا الصدد:

- لذلك فان قصيدة الحياة العظيمة، لم تنظم من الألوان المحلية، ولم تؤخذ من شواهد اجتماعية، أو من المشافهات المسلية، أو من دسائس حاذقة، وإنما ينظمها سر المخلوقات الأزلي المخيف والممزق، حيث تمحو الوحدة مكانهم وزمنهم حيث عاشوا أو مروا.

بعد ذلك تناول الحديث موضوع الشعر، فراح يثبت أن ما يعطي للقصيدة قيمة وروعة، إنما هي الحركة أي الطريقة التي ينتهي بها كل مقطع، حيث تشير بداية كل جملة إلى الحقيقة وأن الصعوبة في القصيدة، إنما هي ناتجة عن ضرورة اشتمال القصيدة على وحدة الشعور، فتفكك المعنى وعدم اختيار الكلمات يفقد القصيدة معناها وبالتالي يفقدها قيمتها.

كل هذا و "إيميه" تصغي إليه في هدوء تام، وقالت له موافقة على كلامه: "نعم"... بصوت خافت كله رقة ونعومة، ولم تتفوه بعد ذلك بكلمة وراحت في سبات عميق وهي مستندة إلى ركبتيه.

ناداها بصوت خافت: "إيميه"، فلم تتحرك. كانت نائمة، رأسها على ركبتيه، فأيقن أنه وحيد، نظر إليها وهو يبتسم، ولاحت على وجهه أمارات الطيبة والشفقة وربت بيده في حنان على رأسها، فلفت نظري شيئان وجها لوجه أمامي. الكبرياء الممزوج بالعظمة والحنان والكرم، والمرأة الساجدة أمامه كأنها تقدسه.

*****

-16-

منحت نفسي عطلة وسأرحل غدا حاملا ذخيرة من الذكريات التي حصلت عليها، فمهما تكن الأحداث والمآسي التي يدخرها لي المستقبل، فسأعيش حياتي بأثقالها.

حاولت في هذا اليوم، وهو اليوم الأخير، أن أعاود الكرّة وأنظر، ولكني لم أستطع، فقد كان جسدي يؤلمني، بل كان هو الألم، ذاته، حاولت جاهدا أن أقف على قدمي وألتصق بالحائط، فخارت قواي وهويت على السرير، ومن فرط إعيائي لم أتمكن من أن أفتح عيني، بل كانت تغمض دون إرادة مني، وامتلأت بالدموع، دموع الإجهاد والتعب.

وتناهى إلى سمعي صوت من خلال الحائط، من الغرفة المجاورة، كرنين أصوات من بعيد تعبر الحائط بصعوبة.

ومن الآن فصاعدا، لن يصبح في مقدوري أن أنظر أو أسمع ما يجري داخل الغرفة. أنا الذي لم يبكِ مطلقا وهو صغير، فقد بكيت الآن، وأنا كبير بكيت كطفل صغير!

بكيت على ما سأفقده، بكيت الجمال والعظمة المفقودة.. فأنا أحب كل ما هو لي.

ستموج الغرفة ثانية بسجنائها، سيجلسون بجوار النور، ويتطلعون إلى السماء من النافذة، وسيتبادلون النظرات الأولى أو الأخيرة، سيفتحون أذرعهم، ويسلمون أنفسهم لمن يحبون، سيتعلقون بالحياة وسيخشون نهايتها، وسيبحثون هنا على الأرض عن ارتباط كامل بين القلوب، بينما سيبحثون في

السماء عن البقاء بين السراب وإله في السحاب.

أصبحت مثل هؤلاء الذين يشغلون أي غرفة، لا أسمع إلا تمتمة بعيدة لما يجري خلف الحائط، وكأول مرة جئت فيها إلى هنا شعرت بأني ضائع، منذ أن أصبحت في هذه الغرفة، وقبل أن يتغير مصيري.

فربما بسبب الحمى التي تنتابني، يخيل إليّ أني أسمع قصيدة تُقال، أو يتغنى بها أحد، أو كأن أحدا يتحدث عن "بروميثيوس" الذي سرق قبسا من الشمس (الآلهة) فكان يشعر بآلام في أحشائه كلما جن الليل، وعندما يحط عليه الرُخ كما يحط على عشه، والرغبة هي التي تجعلنا نصدق هذا، بينما في الواقع لا وجود للرخ أو للآلهة.

فلا وجود للجنة إلا تلك التي نراها في مقبرة الكنيسة الكبيرة، ولا وجود للجحيم إلا في الخوف من الحياة، ولا وجود للنار الخفية،لقد سرقت كل الحقيقة، رأيت كثيرا من الأمور المختلفة، الصافية منها والمأساوية وكنت على حق، ورأيت الصادق منها والمهين، وكنت أيضا على حق، وبهذا تبوأت عرش الحقيقة، إذا كان في مقدورنا، دون أن نلوث الحقيقة، أن نستعمل الأسلوب، الذي يستخدمه الكاذب والمنافق.

من صنع كتاب الرغبة الانسانية، الكتاب المريع والبسيط؟ يدفعنا عن الحياة إلى الحياة، وعن حركاتنا ووجهتنا، وعن خطيئتنا الأصلية. من ستواتيه الجرأة على أن يقول كل شئ! ومن ستسعفه عبقريته على أن يفهم ويعي كل شئ؟!

إنني مؤمن بالعقيدة الشعرية العظيمة، حيث يمتزج الجمال بالمعتقدات وأكثر من ذلك، فأشعر بقصوري حيالها، بل وأصدق إمكانية تحقيقها.

فأحيانا كانت رؤيتي للأشياء، تخالطها زفرة من الحقيقة قوية وخلاقة، تكاد الغرفة كلها تهتز منها، حتى كان الهدوء نفسه يصيح في بعض الأوقات!

ولكني لم أعَر كل هذا، بل سرقته مغتنما الفرصة بفضل تخلي الحقيقة عن

حياتها. وعليه، فسيختفي كل شئ رأيته، طالما أني لم أستعمله في شئ فكأن حالي كحال الأم التي لم تحسن استعمال اللحم حتى فسد.

مهما كان الأمر! فإني قد بشرت بما سيكون أكثر جمالا، واخترقتْ العبارة نفسي، ووصلت الكلمة إلى أعماقي، الكلمة التي لا تكذب، والتي ستشبع رغبتي.

انتهيت وتمددت على فراشي، وانقطعت عن النظر، واندملت عيناي المسكينتان كجرح قد شفي، والآن ما عليّ إلا أن أحتفظ بهذه الذكريات، هذه المأساة التي عشتها مع الغرفة.

أعتقد أنه لا يوجد سوى السراب الذي يجيب على نداءات العقل والقلب الانساني، تلك النداءات التي لا تغضب.

كما أعتقد أنه لا توجد حولنا، سوى كلمة واحدة كبيرة وشاسعة، هي التي تطلق العنان لوحدتنا، وتكشف عن نورنا، هذه الكلمة هي " لا شئ " وهي -كما يبدو لي- لا تعني انعدامنا أو شقاءنا، بل على العكس، طالما أن كل شئ موجود بداخلنا، فهي تعني تأليهنا وتثبيت وجودنا.

*****

تمت

كتب أخرى.. للمترجم

- صدر للمترجم:

مهاجر بريسبان .. مسرحية جورج شحاته دار المعارف 1969

الآلة الجهنمية.. مسرحية جان كوكتو الانجلو 1969

انفعالات.. قصص ناتالي ساروت هيئة الكتاب 1971

دقات المسرح.. دراسات ونقد تطبيقي هيئة الكتاب 1973

ليلة القتلة.. مسرحية خوذيه تريانا هيئة الكتاب 1980

كهف الحكيم.. دراسة عن أهل الكهف دار المعارف 1980

شباب هذا العصر.. رؤى ودراسات غربية المركز الجامعي 1980

صرخات فوق المسرح.. رؤى ودراسات غربية دار المعارف 1980

جرينكا.. أزمة العصر.. رؤى ودراسات غربية دار المعارف 1981

سينما نعم.. سينما لا.. رؤى ودراسات غربيةهيئة الكتاب 1982

دون كيشوت.. مسرحية ايف جامياك هيئة الكتاب 1986

هؤلاء المفكرون.. دراسات عربية وغربية الثقافة الجماهيرية 1986

نبض العصر .. دراسات ونقد تطبيقي 1986

- تحت الطبع

رسائل من مصر .. نينيه والثورة العرابية

الانسان.. كلمة .. دراسات عربية وغربية

فصل في الكونغو.. مسرحية ايميه سيزير

جان كوكتو.. حياته وأعماله

ألوان العصر.. دراسات تشكيلية وأشعار

عصر الشك.. دراسة لناتالي ساروت

المضيفة الحسناء.. مسرحية كارلو جولدوني